واصف البارودي

الحياة والشباب

قدّمه الدكتور طه حسين باشا

الطبعة الثانية
منقحة ومزيد فيها

4'B II
Stand 1A1

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

واصف البارودي

الحياة والشباب

قدّمه الدكتور طه حسين باشا

370.1
B29h2A

« اما بعد فهذا كتاب الشباب، اليهم يتحدث، وعنهم يتحدث، فما اجدر الشباب ان يقرأوه ويفهموه ويذوقوه »

طه حسين

الطبعة الثانية

منقحة ومزيد فيها

المكتبة العصرية - صيدا - بيروت

المطبعة العصرية - صيدا

الإهداء

ايها الشباب ! ... في أى بلد عربى كنت ! ...

أنت الأمل ... وبك تتحقق الامجاد في المستقبل ! ...

من أجلك ألف هذا الكتاب ... فاليك أهديه ! ...

المؤلف

مقدمة الطبعة الثانية

اقدم الطبعة الثانية من كتاب « الحياة والشباب » وازهار الامل تتفتح في نفسي ، ناشرة عبير اطياب تعبق في كياني، فتنتعش بها روحي، ويهتز قلبي ، عند كل عبارة اعيد قراءتها ، لاعيد كلماتها للطبع ، خالية ، ما امكن ، من الخطأ . وما هزة القلب ، ولا انتعاش الروح ، الا اثر لفاعليـة الامل !... وأملنا هو شبابنا النامي ، الطالع علينا ، في حقبة ، اصبحنا فيها عند مفترق الطرق !...

اننا عند مفترق الطرق، والحياة تنادينا، لنسير معها في الطريق القويم، طريق الوعي والعمل !.. فهل نجيب ؟!...

اجيالنا المتناهية مشغولة بنفسها عن المجتمع ، وعن الامـــة ، وعن تحقيق الكيان ، بتحقيق الذات ! .. انها مشغولة العرض ، عن الجوهر ، وبالمظاهر الخلابة ، عن حقيقة الوجود ، وبسراب الترف ، ونعومته، عن شظف الكدح والكفاح والعمل !.. فهي مشغولة ، اذن ، بالموت ، عن الحياة !.. فلا غرو اذا رأيناها تتلهى بالقشور ، منصرفة عن اللباب !... فالحياة ، بنظر حكمائها وعقلائها ، قصيرة لا تستحق ان يأبه لها الانسان، وليست جـــديرة بالاهتمام الممض المتعب ، فليقتنص الفرد فرص اللذة ، ما امكن ، وعلى اهون سبيل !...

هذا هو منطق الانانية الفردية ! وبـه يتوهم الفردانه يعيش لنفسه ، مضحيا بالسوى ، قرب منه ، او بعد ، هازئا بالمثل والقيم !.. وهو لوتأمل في حقيقة الواقع ، لوجد انه انما يضحي بذاتـــه وخلوده ، ويهزأ بكيانه

ووجوده ؛ ويتوهم فرديتـــه ممكنة التحقق في الانسان ؛ فيضل سواء السبيل ، ويقع فيما يتألم منه ، من قلق واضطراب وويلات ! الانسان ، انما هو انسان بمجتمعه ، ولا يتجاوز بفرديته مستوى الحيوان المتوحش ! ان فرديته ، لا تتحقق ، انسانية صحيحة ، الا بما يكتسبه من المجتمع ، بالتفاهم والتعاون والتضامن ، تحت راية القيم والمثل ؛ وبفاعلية التضحية بالانانية الفردية الحيوانية ، في سبيل ذاته الانسانية التي يمنحها المجتمع ، للحياة !...

هذا ما نود ان تتفهمه الاجيال الطالعـة ، اجيال الفتوة والشباب ، اذ عليها نعلق آمالنا ، كل آمالنا ، والا خسرنا مكاننا في سلم الحياة ! لهذا الف هذا الكتاب ، ولهذا اشعر بالغبطة تملأ نفسي عندما اعيد النظر فيه ، لاعده للطبعة الثانية ، ازيد فيـــه ما يزيد بعض النقاط ايضاحا ، وأصلح ما وقع ، في طبعهـــا ، من اخطاء ، ودّ زعيم النهضة الفكرية الحديثة في البلاد العربية ، في مقدمته الكريمة ، لو ان الطبعـــة الاولى تبرأت منها. فان اصبت ، فهي نعمة ترتاح لها نفسي ، والا ، فالعصمة لله .

اراد استاذنا الجليل ، الدكتور طه حسين باشا ، ان يشجع نهضـــة الشباب في البلاد العربية المتوثبة ، وهو باعثها الاول ، فرمق هذا البحث المتواضع بنظرة سمحه ، وبكلمة خيرة فياضة ، بض بها قلبه الكبير ؛ وهذه من افضاله الكثيرة المتوالية على الشباب ، وعلى من يعني بامرهم ، ويحاول ان يعمل ، ما امكن ، في السير بهم في سواء السبيل . انها منة تحفظها له الاجيال في استمرارها في خلود الحياة .

بيروت في ٢٨ شباط سنة ١٩٥٢

واصف باروديّ

كلمـــة

الدكتور طـه حسين بك

هذا كتاب شارك في تأليفه القلب والعقل جميعاً . بث فيه القلب قوة العاطفة ودقة الحس وصدق الشعور ، وأشاع فيه العقل صواب الرأي ونفاذ البصيرة وبعد النظر وحسن الاستقصاء . لم يكتبه صاحبه لانه أراد ان يكون له كتاب ، كما أن لغيره من المفكرين والمثقفين كتباً ، وانما كتبه لانه أحس حاجة ملحة إلى كتابته وضرورة ملزمة بتأليفه . وقد نشأ إحساسه بهذه الضرورة وتلك الحاجة من هذه العاطفة النبيلة الكريمة السامية التي يمتاز بها ذوو النفوس المتحضرة ، وهي عاطفة الحب والاخلاص للمواطنين . والمواطنون عند الاستاذ واصف البارودي ليسوا هم أبناء وطنه لبنان ، الذي تحصره حدوده الجغرافية والسياسية ، وإنما هم أبناء العالم العربي كله من الخليج الفارسي الى المحيط الاطلنطي ، أو الى بحر الظلمات كما كان القدماء يقولون. وأكاد اعتقد أن المواطنين عند الاستاذ واصف البارودي ليسوا هم أبناء هذا العالم العربي وحدهم ، وإنما هم أبناء الانسان في أقطار الارض كلها. فليس الاستاذ واصف البارودي أثراً ولا مستأثراً لنفسه وبني جنسه بالخير والعافية ، وإنما هو يحب أن تمتلىء الارض خيراً كلها ، وان يشيع في الناس من الثقة والامل ، ومن التضامن والتعاون والحب ، ما يجعل الحياة خليقة ان نرغب فيها ونحرص عليها ونتزيد منها.

والاستاذ واصف البارودي لا ينسى الماضي ، ولكنه لا يقصر جهده على الحاضر ، وإنما يفكر في المستقبل ، ويكاد لا يفكر إلا فيه ؛ كأنه قد وطن نفسه على ما ينبغي أن يوطن الرجال نفوسهم عليه من أن الحياة دولة بين الاجيال ، تنقلها الاجيال الناشئة التي تستقبل الحياة عن الاجيال المولية التي تستدبر الحياة. ولكنه لا يحب ان يكون توارث الحياة يسيراً سلبياً ، لا إيجاب فيه ، بحيث يلقي الآباء أعباءهم الى الابناء كما تلقوها عن اباءهم ، وبحيث يتلقى الابناء هذه الاعباء عن اباءهم ليحفظوها بين أيديهم وديعة ينقلونها الى أبنائهم كما هي ، وإنما يريد ألا ينقل جيل حياته الى الجيل الذي يليه إلا بعد أن يرقيها وينقيها ويصفيها ويضيف اليها من جهده وأمله ، ومن عقله وقلبه ومن يقينه وإيمانه . وهو يريد ان تتلقى الاجيال الناشئة عن الاجيال المولية أعباءها محبة لها مغتبطة بها مزمعة أن تزيد جمالها جمالاً وبهجتها بهجة ونقاءها نقاء .

وهكذا تتنقل الحضارة بين الاجيال ، يزيدها تتابع الازمان ازدهاراً وازدهاء ، حتى تبرأ من الظلمة ما استطاعت امور الناس أن تبرأ من الظلمة ، وحتى تأخذ من النور والاشراق أعظم ما تستطيع امور الناس أن تأخذ من النور والاشراق، فالشعور بالتبعة إذن هو الذي الهم الكاتب ودفعه الى الكتابة . وحب النظراء ، على اختلاف أمكنتهم وأزمنتهم ، هو الذي أثار قلب المؤلف وعقله الى الاشتراك في إنشاء هذه الفصول . وهو من أجل ذلك يتخذ الشباب موضوعاً لهذا الكتاب ، يتحدث عنه ويسوق الحديث اليهم ، ولا يكاد يتحدث الى الشيوخ والذين تقدمت بهم السن ، إلا بمقدار ما يذكرهم بتبعاتهم ، ويشعرهم بواجباتهم ، ويدعوهم الى أن يحملوا الامانة حق حملها ويؤدوها كأحسن ما ينبغي لها من الاداء .

والاستاذ واصف البارودي كما قلت دقيق الحس صادق الشعور نافذ البصيرة بعيد النظر وربما استجزت لنفسي أن اضيف الى ذلك ، راجياً ألا أؤذيه ولا أسوءه ، أن في مزاجه شيئاً من حدة ، فهو يرفق في حديثه ما وسعه الرفق ، ولكنه يعجز أحياناً عن أن يتقي العنف ، وخاصة إذا عرض ، وما اكثر ما يعرض ، لقصور الاجيال المعاصرة أو تقصيرها .

وللاستاذ واصف البارودي مذاهب طريفة في تصوير ما يريد أن يصوره مما يضيق به صدره ، ومما يتصل به أمله ، فهو مثلاً يفرق بين الحياة والمعيشة : فالحياة عنده تتصل بالنفس والقلب وبالعقل والذوق ، قبل كل شيء ، على حين تتصل المعيشة بهذه الحركات اليوميـــة التي يشترك فيها الانسان مع غيره من الحيوان . فالاكل والشرب والتماس القوت والحرص على ما يقوم الجسم معيشة ؛ والتفكير والذوق والاستمتاع بالادب والفن والجمال ، على اختلاف انحائه ، حياة . وليس يكفي عنده أن يعيش الناس بل يجب أن يحيوا . والذين يكتفون من دنياهم بالعيش ليسوا عنده أحياء ، وإنما هم عنده ما عند الشاعر أموات .

ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميت الاحيـــاء

ثم هو يفرق بعد ذلك أو من أجل ذلك بين الحضارة والمدنية : فالحضارة عنده تتصل بالحياة ، وهي صنوها ؛ والمدنية عنده تتصل بالمعيشة ، وهي صنوها أيضاً . فالذين يكتفون بالمعيشة ترضيهم المدنية التي تقومها المادة وتصرفها . والذين يطمحون إلى الحياة تسمو نفوسهم بالطبع إلى الحضارة التي تتأثر بالروح والمثل العليا أكثر مما تتأثر بهذه الاعراض الطارئة التي تعرض وتزول . والمثل الاعلى عنده إذن هو الحياة ، وصنوها الذي هو الحضارة ؛ وهو يكره من الاجيال انها تستغني بالمعيشة عن الحياة وتجتزىء

عن الحضارة بالمدنية. وهو يعلم أنه لا يستطيع ولا يستطيع غيره استدراك ما فات واصلاح ما فسد من أمر الاجيال التي تقدمت بها السن. ولكنه يحرص أشد الحرص وأقواه على أن يجنب الاجيال المقبلة ما تورطت فيه الاجيال المدبرة. ويحرص أشد الحرص وأقواه على أن يكون الشباب خيراً من الشيوخ، وعلى أن يكون الصبية خيراً من الشباب، وعلى أن الطفل الذي لم تتح له الحياة بعد خيراً من الصبية الذين ينشأون الآن. وهو من اجل هذا كله يكتب كتابه هذا للشباب وعن الشباب. والشباب عنده ليسوا هذه الاجيال التي نرى نشأتها الآن وإنما الاجيال المقبلة كلها. ففكرته إذن لاتكاد تنقضي ولاتكاد تحد، كما أن تعاقب الاجيال لايكاد ينقضي ولايكاد يحد. وهو لذلك يفكر في تقويم الشباب المعاصرين وإرشادهم ومعونتهم والنصح لهم. ولكنه يفكر في الصبية اكثر مما يفكر في الشباب وفي الاطفال الذين لم يولدوا بعد اكثر مما يفكر في الصبية. وهو لذلك يحاول ان يرسم خططاً في التربية التي تنتفع بها الاجيال على تتابع العصور. فأفقه كما ترى ليس محدوداً بزمان ولا بمكان. كما أن آفاق العلم والفن لا تحد بالزمان ولا بالمكان. وفي هذا الكتاب صورة صادقة للفن والعلم جميعاً، لأنه كما قلت في أول هـذا الحديث وحي من شعور القلب وخلاصة من تفكير العقل. وليس مذهبه في الجهل والجاهلية بأقل طرافة من مذهبه في الحياة والمعيشة وفي الحضارة والمدنية. فالجهل عنده كما هو عند غيره من الناس تضاؤل الحظ من المعرفـة، ولكن الجاهلية عنده، كما كانت عند القدماء، هي البعد عن الحضارة والاستسلام للغرائز والاهواء وطغيان المادة. فالمعرفة قد تعصم من الجهل، ولكنها قليلاً ما تعصم من الجاهلية. وما اكثر العلماء والمثقفين الجاهليين في هذه الايام التي تباهي بالمعرفـة

وازدهار العلوم . أولئك الذين يتبعون أهواءهم ، ويستجيبون لغرائزهم ، ولا يلائمون بين سيرتهم وبين ما ينبغي للحياة المتحضرة ، من استلهام الروح والسمو إلى المثل العليا والجد، في سبيل الكمال النفسي، جاهليون ليسوا من الحياة ولا من الحضارة من شيء، وإنما هم عبيد العيش والمدنية.

وليس أقل من هذا كله ، طرافة ، حديثه عن اليقظة الواعية واليقظة البلهاء ، وما اكثر ما في هذا السفر النفيس من طرافة تسر العقل وتمتع القلب وترضي الشعور ، ولعل الصدق والحب والاخلاص وسداد الرأي هي أخص ما يمتاز به هذا السفر القيم الممتع من الخصال . وكم كنت أود أن تبرأ طبعته الاولى من بعض الخطأ المطبعي الذي يشينه شيئاً ما . واكبر الظن أن طبع الكتاب في مصر ومؤلفه مستقر في وطنه لبنان هو مصدر هذا الخطأ القليل الضئيل .

أما بعد فهذا كتاب الشباب ، اليهم يتحدث ، وعنهم يتحدث ، فما أجدر الشباب أن يقرأوه ويفهموه ويذوقوه، وما أجدر وزارات المعارف في البلاد العربية أن تمكن الشباب من قراءته وفهمه وذوقه .

باريس سبتمبر سنة ١٩٤٩

طه حسين

مقدمة الطبعة الاولى

في صميم النفس وفي سريرة الحياة كلمات ، أود لو تصل الى الشباب النامي في بلاد العرب . ولعل ، في هذه المحاولة تمهيد للتعبير عنها ، تعبيراً واقعياً صادقاً .

قلت : انها محـــاولة ؛ وما أردت منها سوى تنبيه الشباب لنفسه ولواقعه، ليكون هو المعبر عن واقع الحياة، وعن حقيقتها ، بإبراز نفسه على سجيتها ، وإطلاق روحه من سجن المادة الطاغية ، دون أن يخل بالناموس .

انه الشباب ، وهو الأمل ! وانها الحياة ، والحيـاة تدفعنا بحوادثها القاسية ليقظة ، يجب أن تكون واعيـــة . ولا تكون واعية إلا بوعي الشباب .

قد أكون مصيبا فيما ذهبت اليه في هذه الرسالة، وقد أكون مخطئاً. وليست الاهمية في مظاهر الخطأ والصواب ، بل فيما يجب أن تثيره قضية الشباب من دروس وأبحاث ، نستمد مناهجها من واقع شبابنا ، ومن واقع مجتمعه ، وواقع البلاد التي يعيش فيها ؛ وتقتبس موادها مما يحتاجه الشباب في حياته ، فردية واجتماعية ، على ضوء العلم الصحيح ، وتطور المجتمع في التاريخ ، متجهين لما تهدف اليه الشعوب العربيـــة من أمان وآمال ومثل .

إننا نريد لأوطاننا شبابا واعياً ، يعرف كيف يتحمل التبعة في تربية نفسه وفي توجيهها ، ليصبح ، في رجولته ، قوياً ، يعرف كيف يحافظ على كيانه واستقلال بلاده .

مضى علينا زمن ، تطاول عهده ، ونحن نعيش في الماضي البعيد ، ونعمل للحاضر الموقت ، وقد آن لنا أن نحيا للمستقبل وفي المستقبل . الكوارث تتوالى ، أفلا تدفعنا للعمل بجد وتضحية وحكمة ؟

يجب أن نقرر اجتناب طريقة البكاء والشكوى والاستسلام ، وأن نتحرر من عادة القاء عبء التبعة على اكتاف غيرنا ... فلا يلتفت أحد لبكائنا ولندبنا المبادىء السامية يستباح حرمها ! . . لنتخذ الحق للقوة مبدأ ، والعمل على تفهم خطيئاتنا منزعاً ! ولنتدارك الحوادث ، قبل وقوعها ، بالقوة والحكمة ، لا بالخطب والاقوال ... فالاقوال والخطب لا تحل مشاكل الحياة ! ...

فإذا اتجهت هذه المحاولة الى الشباب ، وهو الدم الذي تتجدد به حياة الامم وتقوى ، فللعمل على تحقيق هـــذه الاهداف . وما هي إلا نفثة مصدور ، قد تتبعها نفثات ، نرجو أن تتحق بها مباهج وبسمات . !! ..

واصف البارودي

الفصل الأول

الحياة

أزمة الحياة و أزمة المعيشة

الشَّرق و الغرب

الحضارة و المدنية

١ ـ ازمة الحياة !

لا أظن أن ، في هذا العالم المضطرب ، واحداً ، لا يشعر بالازمة الخانقة ، أزمة الحياة ... ولا يذهبن الظن، بأحد من القراء، إلى أنني أقصد أزمة الغذاء أو الكساء أو المسكن ... فان هذه ، في نظري ، هي أزمة المعيشة ... وشتان بين الازمتين ... على ما بينهما من تلازم واتصال !..

أُعجبت ، ولا أزال أعجب، بجواب أتلقاه ، ويتلقاه الكثيرون ، من بعض الواعين، وعياً فطرياً ، عندما تسأل أحدهم عن حاله، فيجيبك بلهجة الساخر المتألم : « عايشين، والحمدلله !.. » يجيبك بذلك والابتسامة الصفراء الهازئة الحزينة مرتسمة على شفتيه ووجهه !.. وكأني بنظراته الحائرة ، وهو يثبتها في وجه السائل ، عندما يتخذ هذا الوضع الخاطف ، تتفحص عن تأثير هـذا الجواب في نفسه ... وتتساءل عما إذا كان قد أدرك ما يرمي اليه الجواب ، من معان، يعبر عنها لسان الحـال ... إن لم يفشها لسان المقال .

« عايشين، والحمد لله ! » تعبير عامي المظهر واللهجة ... ولكنه في أوج البلاغة في الدلالة على ما في النفس من ألم، وما في الشكوى من مرارة ... فكأني بهذا المجيب يقول : بئست حالة هي هذه التي لا نفكر فيها إلا بأسباب العيش ، من مأكل ومشرب وكساء ومأوى ، وبما قد يستتبع ذلك ، عند الاغنياء ، من مظاهر الزهو المادي ومن وسائل الترف !... وما دامت هذه هي البواعث التي تثير الهمم والعزائم، فنحن عائشون .. ولسنا بأحياء ! ..

نعم ، ان هذا المجيب الساخر يرى في الاكتفاء بالسعي للعيش ، شظفاً أو ترفاً ، موتاً للحياة الانسانية في المجتمع . ولا يهمه ، طبعاً ، أن يكون الاتجاه نحو العيش ومستلزماته سبباً لموت الحياة في انسانية الانسان ، أو أن يكون مسبباً عنه . فهو يتألم لنتيجة ظاهره ولواقع يراه كل يوم : يبحث عن الصفاء في الصلات ، والتعاضد في الاعمال ، والصبر على المكاره في الجهاد ، والتضحيـــة في سبيل مستقبل يهنأ فيه الابناء والاحفاد ... ويفتش عن الاخلاص في التفكير والشعور والارشاد ... فلا يجد لذلك ، ولا لغيره من مقومات الحيـــاة الانسانية أثراً ؛ وإنما هو يتعثر بالدجل والتدجيل ، وبالزمر والتطبيل ، والسباق في خداع الغير ... وباستخدام كلمات المثل العليا والقيم الروحية السامية ، في المصالح الفردية ، وفي سبيل الحصول على المال أو الجاه ، أو الشهرة أو الترف .. فلسان حاله يقول :

كل من في الوجود يطلب صيداً غير أن الشباك مختلفات

فيحمد الله على أنه يجد ما يأكل وما يلبس وما يأوي اليه ، ويقول : « عايشين ، والحمد لله » .

انها كلمة ، فيها ، على بساطتها ، كل الحقيقة ؛ فنحن عائشون ، لا نعمل لغير المعيشة وما يتعلق بها من لذات مادية ووهمية ... لها نكدح واليها نسعى . وندعي ، مع ذلك ، أننا أحياء ؟ ...

كلا ، لا تتحقق الحيـــاة في الانسان إلا بتحقق ما تقوم به إنسانية الانسان . فاذا قلنا عن الوحش المفترس : إنه حي ، كلما افترس ، فلأن حقيقة حياته إنما تثبت بذلك . أما الانسان فحقيقته تثبت بتحقق معاني الانسانيـــة فيه ... فلا يقال انه حي ، إلا إذا كان مظهراً لتلك المعاني

السامية : يعمل للحق ويتذوق الجمال ، ويرتاح للخير ، واليه يطمئن . وإلا فهو كائن يعمل لِيعيش ، ولا أثر للحياة الانسانية في نفسه ، وإن كان يظهر بصورة الانسان ... وكأني بالشاعر إنما أراد هذا عندما قال :

ليس من مات فاستراح بميت، إنما الميت ميت الاحيـــاء !..

وأموات الاحياء هم العائشون ، حسب تعبير ذلك الواعي بفطرته .

قد كثر بيننا عدد من يعيش ، دون أن يتمتع بالحياة ! وقد أصبحنا نخشى ، إذا لم يتدارك الوعي الصحيح المثقف أمرنا ، أن تعم بيننا هذه الحالة الهدامة ، فنخسر حقنا في تكوين أي وجود اجتماعي مجيد . بدأنا نشعر، ونحن نعمل لنعيش، أننا نخسر وجودنا قطعة قطعة ... ولا يبعث في نفوسنا شيئاً ، من التفاؤل والامل ، سوى انتباهنا ، وما نرجو أن ينتج عنه من التعلق بما بقي ، على الاقل ! .. يتراءى لنا اننا قد انتبهنا ؛ ولكن ، أهو انتباه صحيح ، تنبثق معه في نفوسنا مقومات الحياة ، أم هو انتباه ذاهل ، نخشى أن يعود بنا للغيبوبة ، بفعل مورفين المعيشة ولوازمها ، من لذات وترف ، فنستمر على الخسران ، وعلى التعييب والبكاء ، قانعين بتفسير الحوادث وشرحها ؟ ...

انني لا أخشى الاجنبي على كياننا، وإنما أخشى من نفسي على كياني . واعتقادي أنه ليس هناك قوة تستطيع سلب الحياة من امة تحرص عليها، ما دامت عاملة ضمن نطاق النواميس . فدود الخل ، كما يقول المثل السائر ، منه وفيه .

كدت اغالي في التشاؤم !... فمالي لا أذكر أن هذه الحالة أصبحت عامة في الكون ... وأن الناس ، في أعظم البلاد ، وأرقى الامم ،

تعمل اليوم للمعيشة والترف ... وأنهم في جميع العالم يشكون أزمة الحياة في إنسانية الانسان ؟!.. وعموم البلوي يخفف من وطأتها ، حسب رأي الكثيرين من الناس ! ؟ ؟ . .

ما الطف هذا المخدر، وما أشد خطره !.. نقول : فسدت الاخلاق ! فنجاب : هذه هي حالة العالم اليوم . وإذا شكونا التزييف والتدجيل ، الى نجيب أو أريب ، خبر العالم وطاف في أرجائه ، قال لك ، والسخرية تتدفق من أشداقه : كيف بك لو رأيت ما عند الغربيين من هـــذه البضاعة ! ... ثم يهز رأسه ، هزة الحصيف الحكيم، وتلمع في عينيه معاني الهزء والاستجهال ، ولا يتورع عن أن يقول : هذه هي حالة العصر ، كل يعمل لنفسه، ويغتنم فرص الحياة ليتمتع بها ، ولا قوة إلا للمال ... ولك أن تعمل ماتشاء للحصول عليه ، فتمتلك الحياة ... ان الاخلاق الفاضلة، والمبادىء السامية ، والمثل العليا ، إن هي إلا أزياء قديمة بالية ... ونحن يجب علينا أن نتجدد وأن نسير مع الركب ... وأن نترك ما كان عليه آباؤنا وأجدادنا ، من بساطة في التفكير ، وسذاجة في الشعور !. فالقول بالرحمة والوفاء والصفاء ، ... وما الى هنالك ، سذاجة ؛ وفيها كثير من إضاعة الوقت ... وهنا يودعك مستعجلاً ، ويبرهن عن براعته، في تزويق القول وسعة الاطلاع ، بكلمة أخيرة ، يحرك معها رأسه ويده ، مؤكداً لك أن الزمن زمن سيارات وصواريخ ، والعالم يسير بسرعة ، فيجب أن نسير معه بسرعته ...

وهكذا يمثل أفجع فصل من رواية أزمة الحياة !.. فكأنه قد كتب علينا أن نظل في ركاب الآخرين ، ولو برزت في حياتهم إمارات التقهقر والانحطاط !...

الشرق والغرب

منذ كان الشرق شرقاً ، ومنذ كان الغرب غرباً ، وهما على خلاف في حق السيطرة على العالم . فكلاهما يدعي هـذا الحق ، وكلاهما يعمل على تحقيقه . فكان طبيعياً أن يعمل كل منهما على دمج الآخر في كيانه ، لاستثماره واستعباده وابتذاذ ثروته . وكان سير الحضارة يشجع هـذا الوضع ، بانتقالها بينهما دواليك : فلا تصبح شرقية حتى تمسي غربية ، ... وهكذا ... ومتى استقرت في جهة ، استغل رجالها ما في الحضارة من قوى مادية ومعنوية لتحقيق اهدافهم في السيطرة والاستثمار . ولذلك قال كيبلينغ : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا .

استيقظ الشرق ، في العصر الحاضر ، بعد نوم عميق طويل ؛ فوجد الحضارة زاهية في الغرب، ومستقرة فيه . أخذ يكافح لاستبقاء ما بقي له ، إن لم يكن قادراً على استرجاع ما ضيع ، وهو نائم غافل !.. فاذا الغرب شديد المراس، يأخذ ولا يعطي، يمنع ولا يسمح، يعتمد على قوى جبارة ، يغذيها العلم وبوجهها الطمع ، يرى في الشرق وقاحة ان طالب بحق ، أو دافع عن نفسه ، ليقيها أية مضرة ، وشعاره : الحق للقوة ، وللضعيف الرسن !...

بدأ الشرق معركته بسلاح الاقوال والخطب، وبالمقالات والكتب؛ مهاجماً الغرب في شعاره، داعياً الى العدل والرحمة، والى إبطال هذا المبدأ: الحق للقوة، وللضعيف الرسن ... أخذ في درس الثقافة الغربية، لا ليرسم الخطط التي تقتضيها النهضة ومقاومة الاعتداء ؛ بل ليقتبس من بعض

الغربيين ، فلاسفة وحكماء ، أقوالاً ، يتخذها حجة في ضرورة هدم هذا المبدأ . وقد أدهشه هزء الغرب بطريقة كفاحه ؛ ولعل القوة وجدت في هذه الطريقة العقيمة ، يتبناها الشرق ، سذاجة ؛ فاتخذتها وسيلة سلبية للتمادي في الاعتداء ، مادامت الفرصة سانحة ، وما دام الشرق ، بعد يقظته ، تخدره هذه الاقوال الناعمة المغرية ، متوهما أن تنميق الاقوال وتزويقها يحلان مشاكل الحياة !.. ومشاكل الحياة لا تحل إلا بالاعمال المستنيرة بالقواعد العلمية الصحيحة ، والخبرة العملية الواضحة . أو بتعبير آخر : لا تحل إلا بالقوة ، معنوية أو مادية . ولدينا أمثلة واقعية ، كان الشرق مسرحاً لها ، في عصرنا الاخير ؛ نكتفي منها بذكر حركة مصطفى كمال - في تركيا ، تدليلاً على تأثير القوى المادية في تحرير الشعوب - وحركة غاندي - في الهند - للبرهان على تأثير القوى المعنوية . وهذه تتجلى في تكتل الشعوب ، حول فكرة صحيحة صميمة ، وبقيادة صالحة واحدة ، يفرض الشعب معها احترامه على الامم القوية ، مهما ضعف شأن القوة المادية لديه . فالمهم ، في تحرير الشعوب ، إرادة قوية حازمة واتجاه صادق نحو فكرة صحيحة ؛ والقوة عندئذ تأتي منقادة ، وتسعف مختارة .

هاجم الشرق مبدأ « الحق للقوة وللضعيف الرسن » ؛ وكأني به قد توهم أن هذا المبدأ غربي النشأة ، عارض على الحضارة الانسانية ؛ والحقيقة أنه مبدأ الحياة ، وناموس الحضارة ، منذ الازل .. فالحضارة والحياة ، في مظاهرهما الانسانية ، تكرهان الضعف وتحتقران الضعفاء ، لاسيما إذا كان هذا الضعف نتيجة للتفكك والتخاذل في الامم . فلا حياة لامة لا تتجلى قوتها في اتحاد المواطنين فيها ؛ ولا حق لوطن ، يُشغل أبناؤه ، بعضهم ببعض ، للذس والنكاية ، أو للحقد والانتقام . وهذه كلها من مظاهر أزمة الحياة في الامم .

عين حاكم جديد في منطقة من المناطق . فابتهج أناس، لخلاصهم من الحاكم السابق ، وحزن آخرون . وكان من مظاهر الابتهاج ، عند أحد المحبذين الفرحين ، أن دعا زوجته لتلحق به الى السطح ، ومعها صفيحة البترول ومنقل الرماد ، ليشعلها زينة تنير جميع الانحاء ! .. أبطأت عليه الزوجة، وهو مأخوذ بحماسه الشديد . فما كان منه إلاّ أن خلع ثيابه وأخذ يشعلها ، والزغاريد والهتافات تخرج من فمه بقوة وارتفاع . لاحظ ذلك الحماس أحدهم ، فلم يتمالك عن أن يسأله عن الاضرار التي لحقته من الحاكم السابق .. فإذا الرجل يجهل شخص الحاكم ، ولم تكن له به أدنى علاقة . فقال : لعل هناك قرابة أو صداقة تربطك بالجديد ؟ فاذا الجديد أبعد عنه من القديم ... إذن ، فما سبب هذا الحماس المتقد ؟ .. فابتسم المتحمس الابله ، وقال : نكاية بجاري ! ..

فبهذه الاخلاق ، وبأمثالها ، عندما استقرت في الشرق ، تحكم الغرب فيه . وبها ، وبأمثالها ، تحققت أزمة الحياة في أرجائه ، وانقلبت وبالاً عليه ! . .

وبهذه الاخلاق وبأمثالها ، في الغرب ، سبق وتحكم الشرق فيه . وبها وبأمثالها برزت أزمة الحياة في أنحائه ، واستقرت جهلاً وظلاماً وناراً ! . .

وبهذه الاخلاق وبأمثالها ، يخشى على الحضارة الانسانية من الانهيار ، اليوم . وبها وبأمثالها ، تبرز أزمة الحياة في العالم ... ولا يدري أحد أيان تتجه في التصفية ! .. ولا أين تسير ؟ ..

أنانية هوجاء ، تقضي على ما في إنسانية الانسان من حقائق ومبادىء وسمو ، فتستحكم الازمة ، ويفقد الانسان طمأنينة الحياة وراحة الضمير . ويصبح يعمل للمعيشة ، ولما يلازمها من ترف ، في الزهو وفي الاستمتاع ، فيحمد الله على العيش ، ويأسف على الحيـــاة ، ويقول : « عايشين ، والحمد لله » .

عمت أزمة الحياة اليوم الشرق والغرب معاً ، والقنبلة الذرية ، للافناء ، بالمرصاد .. فهي اليوم ، كالطوفان الذي هدد به نوح قومه .. ولولا بقية من مبادىء إنسانية ، تجعل أصحاب الأمر يحسبون للمستقبل حسابه ، لوقعت الواقعة وانحل كيان الحضارة ، وعاد الانسان إلى همجيته الاولى ، أو الى أشد منها ، الى أن تجد الحياة لنفسها مخرجاً ، أو يرتاح منها العالم !.. ومن يدري ؟ . . .

٢ — الحضارة والمدنية (١)

فازمة الحياة هي أزمة الحضارة ، وأزمة المعيشة هي أزمة المدنية . واسمح لنفسي ان أميز، هنا ،بين المدنية والحضارة ، من الوجهة الانسانية ، كما ميزت قبلها ، من هذه الوجهة ايضاً ، بين المعيشة والحياة .

---

(١) اننا نرى ان الحضارة الانسانية بدأت منذ ان انتقل الانسان من دوره الحيواني ، الى الدور الذي انبثقت فيه في نفسه عناصر وعيه لذاته الانسانية . ولعلها مأثرة للغة العربية ان تستعمل كلمة الحضارة ، وهي مصدر لحضر ، بمقابل البداوة ،على الاطلاق. ففسحت بذلك المجال لاستعمال كلمة المدنية لمن يتنعم بالمدن . فكأني بالحضارة ، وهي الحضور - المصدر الثاني لحضر - انما تعني حضور الذات الانسانية ، بانتقال الانسان من دور التوحش الحيواني ، الى الدور الانساني الذي بدأت فيه صفاته الانسانية بالبروز . ثم اخذت الحضارة تتقدم ، وتسمو ،بقدر بروز تلك الصفات، كمية وكيفية . وكانت المدنية مظهراً هاماً من مظاهر هذا التقدم ، على ما كانت عليه اللغة بالنظر للفكر . فالفكر اوجد اللغة ، ثم اخـــذ يتفاعل معها ، فينمو بنموها ، وتنمو بنموه ، مستكملا كلا منهما تحقيق كيانـه . وهكذا اوجدت الحضارة المدنية ، ثم اخذت تتفاعل معها ، ليستكمل كل منهما تحقيق كيانه . وكما ان اللغة تظل وسيلة للفكر ، ولا يجوز ان تصبح غاية بذاتها ، مهما تكاملت عناصرها ، فالمدنيـة تظل وسيلة لتقدم الحضارة ، ولا يجوز لها ان تصبح الانسان المتحضر غاية

ومن مآثر اللغة العربية ، ايضاً ،انها استعملت كلمة العيش بمعنى الحياة المختصة بالحيوان ، فيستقر بذلك ما اردناه من التفريق بين المعيشة والحياة ، بانسجامه مع سر اللغة ، لا سيما والحياة مصدر لحيي ، كالحياء . ففي الحياة الانسانية السليمة ، يجب ان يستحي الانسان من الشر ، ومن كل مظهر للتوحش ، وان لا يكتفي بالعيش وما يستلزمه من فاعليات ، مهما اغدقت عليها المدنية من تبرج وزينة . فالحياة تستلزم المعيشة ، على انها وسيلة . والحضارة تستلزم المدنية ، على انها وسيلة ، وحسب . والا انقلبت الاوضاع ، وعاد الانسان لغيبته الاولى ، لا سمح الله ! . . .

فالمدنية ، في نظري ، هي سكنى الانسان في المدن ، مع تفننه في العمران ، وسعيه لاستكمال اسباب معيشته ورفاهيته فيها .

اما الحضارة ، فهي الصفات والسجايا التي تمنح المجتمع كيانه الانساني الصحيح ، في جميع مظاهر الفكر والشعور ، وفي تذوق الجمال . فيكون المجتمع ، بذلك ، ميداناً فسيحاً لتحقق اسمى ما في الحق والخير والجمال من مبادىء ، ومن صور ومشاهد .

والمدنية عنصر اساسي في استكمال الحضارة الانسانية مظاهرها السامية ، وكيانها الراقي الكامل ، لما بين المعيشة والحياة الانسانية من تلازم . فاستكمال الانسان المتمدين لاسباب معيشته ورفاهيته يفسح للحياة مجال الانفتاح والانطلاق ، في عوالم الحق والخير والجمال ؛ فيتحقق تكامل الحضارة في المجتمع ، بتكامل تحقق الحياة الانسانية في افراده .

فالمدنية ، اذن ، وسيلة لاستكمال الحضارة . والخطر ينتاب الحضارة والحياة معاً ، كلما اتخذ الانسان مدنيته غاية بذاتها ؛ فيظهر البؤس في الحاجة ، والبؤس في الترف ؛ إذ البؤس ، على ما أعتقد ، انما هو يأس من الحياة ومن مثلها وقيم الروح فيها . فان كان سبب اليأس شدة الحاجة ، فهذا هو بؤس الحاجة ؛ وإذا كان السبب الترف ، أي تعلق القلب بالرفاهية وزهوها ، والمعيشه ولذاتها ، بحيث لا يهتز ولا يخفق إلا لها ، فهو بؤس الترف . وللبؤسين ، كليهما ، نتائج متشابهة : الضجر والملل ومحاولة التخلص ، منهما ، بامور تافهة ، تزيد الطين بلة ، كالاسترخاء والتقاعس والاستهتار ، والسعي وراء الفساد والافساد : القمار والسكر وما يلازمهما من رزائل ،

يتساوى فيها بائس الحاجة والبائس المترف ، على ما بين الاثنين من فرق من حيث القدرة والاستطاعة .

ومتى اشتدت وطأة البؤس ، على نوعيه ، في امة ما ، ظهرت اعراض الانحطاط ، وخشي عليها من الانهيار والفناء . وعلى هذين النوعين ، من البؤس ، تعتمد الامم القوية في استعباد الشعوب ؛ ولا تضعف الامم إلا بذلك ، إذ يصبح مبدأ « الغاية تبرر الواسطة » مسيطراً على النفوس ، ومشوّها . في تفهم بعض الحقائق السامية فيه ؛ فلا يجد البؤساء ، ولا سيما المترفون منهم ، أية ممانعة ، في نفوسهم المتهدمة المنحطة ، لخيانة امتهم والغـــدر بالمواطنين ، ما دام ذلك يؤدي إلى الحصول على المال ، او الجاه الذي يشبع الشهوات ، عند المترف ، ويسد الحاجة عند المعدم . وقد صدق من قال : « هذه المدنية مفسدة للانسانية » : أي هذه المدنية ، عـــلى الشكل الذي نفهمها به ، حين تصبح غاية الانسان ، في حياته ومجتمعه ؛ فيصير كائنا عائشاً ، لا انساناً حياً ؛ ويردد قول القائلين : عايشين والحمد لله ! . . . مستسلماً ! . . . لا متمرداً ! . . . ولا ساخراً ! . . .

فالويل لأمة ، تغريها مظاهر المدنية ، ويخدعها سرابها ! . . . فتقف عندها ، دون أي طموح الى بلوغ مسرات الحياة الصحيحة السامية ، في حضارة ، تمنح النفس الانسانية سموا قدسيا ، في معرفة الحق وحب الحقيقة ؛ ومجداً مرمديا ، في عمل الخير والدعوة اليه ؛ وروعة علوية ، في تذوق الجمـــال والاطمئنان لروائعه ! . . .

والحضارة ، إذا أدركتَ حقيقتها ، وعرفتَ كيف تسير في أرجائها ، لا تحرمك من مباهج المدنية ولذاتها ؛ وانما هي تنظمها ، بحيث تجعل مباهجها أشد أثراً في نفسك ، ولذائذها أكثر اتصالا بروحك . هي ترفعك إلى العلاء ، لتعيش إنساناً ، يتمتع ، حقيقة ، بمسرات الحياة ومباهجها ، عن وعي وادراك . اما المدنية المزيفة ، أي التي تكون غاية في ذاتها ، فانها تجذبك الى الاسفل ، لتعيش حيواناً ، يتوهم أنه يتمتع ؛ والواقع ان الهم والقلق يتأكلان نفسه . هذا عدا ما في عدم تنظيم المسرات ، وما في سوء اختيارها من تعرض لأوبئة وأمراض تنتاب النفس والجسد . ومن نعم الحضارة أنها تفسح للانسان مجال اختيار مسراته وملذاته ، بينما تفرضها المدنية عليه فرضا ؛ ولا تتحقق الحرية إلا بامكان الاختيار . . .

القلق ، هو أبرز حالة تستولي على الانسان في أزمات الحياة ، في الحضارات ؛ وما ذلك إلا لما في انسانية الانسان من ميل داخلي الى التكامل في النمو والتقدم . فهو يرتاح ، ما دام السير مستمراً ؛ فاذا عرض ما أوقف هذا السير ، أو أخره ، بدت أعراض القلق ، ووجدت جراثيم الهموم الى قلبه سبيلها ؛ فتراه شقيا يائساً ، على الرغم من استكمال أسباب المعيشة . لانه ، بفطرته ، يريد الحياة ، الحياة الانسانية ، مبعث المباهج الحرة ، والمسرات البريئة . فهو لا يرتاح لغيرها ، في الحقيقة ، اذ لاجلها خلق ، وبالوصول اليها أمر .

فالحضارة هي الهدف الاسمى ، لانها الجو الملائم الذي تستطيع فيه الروح البشرية الانطلاق ، والحياة الانسانية التحليق والجولان . فأين نحن منها اليوم ؟ . . . . ونحن ، كما سبق والمعنا ، في أزمة الحياة ؟ ومتى قلنا أزمة الحياة ، قلنا أزمة الحضارة ، أي أزمة إنسانية الانسان ؟ ! . . .

٣ – عود الى الشرق والغرب

فالحضارة الانسانية ، أنى كان استقرارها ، شرقاً أم غرباً ، تتطلب دائماً الاستزادة في التقدم والرقي . ومن نعم الله الكريم أنه لم يشأ أن يكون ، للتقدم وللرقي ، حداً معيناً ، ليظل للحضارة الانسانية معناها الاسمى ، ببقاء بواعث الاستزادة ، من خيرات الحياة ومباهجها ومسراتها ، مستمرة ، ما دام للحياة وجود . فبتقدم الحضارة ، وبرقيها ، تتنوع أسباب المسرات ، لا سيما المسرات النفسية ، وتتجدد . ومهما كانت اثار الهموم والاحزان ، فالحضارة الصحيحة تساعد الانسان ، لا على تحملها ، وحسب ، بل ، وعلى التلذذ بها ، حين يتخذها وسيلة للتوسع والتعمق فيما أدرك من أسرار الحياة ؛ تصهر نفسه في نارها ، فتصفى من الاجرام الغريبة عنها ، ويكتسب قوة نفسية جديدة ، يزداد بها سمواً وحزماً وإقداماً . وذلك خلافاً لما يتم للأمم ، في انحطاطها ، وفقدان آثار الحضارة في نفوس أبنائها ، أي في أزمة الحياة فيها . فان الهموم والاحزان تلاشيها ، وتهدم نفوس الافراد فيها .

فلا غرابة ، اذن ، إذا شعرت الانسانية ، في صميم وجدانها ، بضرورة الاستزادة في تقدم الحضارة التي تنعم بها . ولا غرابة اذا استولى القلق على نفوس الناس ، في العالم ، اذا وقفت في سبيل استمرارها العثرات ، وأصبحنا نشعر أننا نعود القهقرى ، مخدوعين بمظاهر مدنية ، نحاول أن نجد عندها ماء ، فلا نجد سوى السراب الخادع !...

بدأنا نشعر بأن الأمن والسلام العالميين ضروريان لاستقرار الحضارة ، ولاستمرارها على التقدم ، ولاشباع النفوس من خيراتها ومسراتها .

ولكن ، كيف يتحقق الامن والسلام ، مادام الشرق شرقاً والغرب غربا ؟ وما داما ، على رأي كيبلينغ ، لا يلتقيان ؟ ... او بتعبير اخر : ما دام هناك قوي يعتد بقوته ويهدد بها ، وقد يستخدمها دون رحمة ، ولا شفقة ، لتنفيذ مآربه . ومآربه لا تتجاوز حد إشباع نهم مظاهر المدنية . فيكون بذلك سبباً في تحكم الازمتين : أزمة الحياة في الفرد ، وأزمة الحضارة في العالم !... وما دام هنا ضعيف ، يتلهى بمقاومة أقوى ما في الحياة ، من أسرار ونواميس ، خوفا من بذل الجهد ، وفزعاً من التضحية ، وايثاراً للمعيشة مع الذل ، على الحياة المستمرة ، بإباء وكرامة !.. ضعيف ، يخشى أن يكون قويا ، لئلا يفقد شيئاً من ملذات العيش الموقت ! انه يستعطف الاقوياء ليكفوا عن مبدأ (الحق للقوة) ، وهو بذلك انما يغري الاقوياء باستعباده واستثمار جهوده . !...

فحالة الضعيف فرصة سانحة ، واضعف منه من لا يقتنص امثال هذه الفرص ! ... فوالله ، ان ضعف الضعيف اشد خطراً ، على السلم والحضارة والحياة ، من قوة الاقوياء ! ...

(الحق للقوة) ، لا تعني مطلقاً أن ما يفعله القوي ، هو حق دائماً . فالقوي قد يظلم ، فلا يكون على حق ، وقد يخطيء ، فلا يكون على حق ، واذا تكرر ظلمه وخطأه ، فقد قوته وبلي بمن ينتقم منه ! والتاريخ شاهد صادق على ذلك ! .. (الحق للقوة) ، تعني أن الحق قوي بذاته ، ويأبى ، لقوته ، أن يكون بجانب الضعفاء . كن قوياً ، تجد الحق معك !... ومن رحمة الله أنه جعل القوة في دائرة الامكان ، وأنه جعل منشأها النفس الانسانية .

القوى المادية ،لا فعل لها ، اذا كانت النفوس ضعيفة . والنفوس القوية ، اذا تكاتفت وتعاونت ، باخلاص ، خلقت القوة المادية خلقاً . فاذا فقد السلم ، في العالم ، فالذنب ذنب الضعفاء أكثر من الاقوياء . لان الضعف يُطمع .

لم يرو التاريخ خبراً يؤيد استعباد أمة ، مهما بلغت قوتها وعظم شأنها ، لامة اعتصم أفرادها بالمبادىء الانسانية السامية ، وتضامنوا ، اباة يأنفون الذل ، مهما صغر شأنها وقل عددها . واذا وقع انتصار حربي ، مصدره القوة المادية ، فالى حين ، يتحكم المنتصر فيها ، ولكنه لا يستطيع استعبادها ولا الاستقرار فيها . الامة الابية تفنى ولا تستعبد ! ومتى فضلت الفناء على قبول الاستعباد منحت لها الحياة ، حياة العزة والمجد. ان فرداً ،يأبى الخضوع، تعجز القوى عن إخضاعه .فما بالك بالامم ، إذا تضامن أفرادها، ونذروا أنفسهم للموت ؟ ...

ان السلم العالمي حق من حقوق انسانية الانسان ،لتستمر متصاعدة الى العلاء ، متسامية في الاجواء ، تتمتع بنعم الحياة ورفاهية الحضارة . انه حق لها ، فلتنله بقوتها ! فلا سلام في العالم ، ما دام فيه ضعف في بعض الجماعات والامم ! والضعف الذي أخشاه على السلم ، هو ضعف النفوس ، أكثر من ضعف السلاح . فالتفكك في الامم ، والتخاذل بين أفرادها ، هو الممر الذي يجتازه الاقوياء، لقهر الضعيف واستعباده . وضعف النفس، في الفرد ،هو السبيل القويم لاتخاذه سخريا . لنقم بتربية انسانية صحيحة ، ترفع من نفوس البشر ، فنتقرب الى السلم خطوات ، تتناسب مع نجاح

وسائل تلك التربية . وهذا ما يجب على من يعملون لاجـــل السلم ، اذا كانوا مخلصين ! . . .

لن يستقر سلم صحيح في العالم ، ولن تستمر الحضارة في التقدم ، اذا ظل الغرب قوياً والشرق ضعيفاً . فما بالك اذا استمر الغرب على مظالمه ، وانهارت قواه ، لان الظلم يهيء القوى ويهدمها ، وأصبح الكون للضعفاء ، يتشاحنون فيه مشاحنة الضعفاء ، ويتقاتلون مقاتلة البائسين القانطين ؟ . . فان العالم يصبح ، عندئذ ، والهمجية أطيب ، لنفسه ، من مدنيات زائفة ، وحضارات كاذبة جامدة ، لا روح فيها . فلا معيشة ولا حياة ، لان الانسان لا يفنى بفناء نوعه ، وانما هو يفنى بانطفاء شعلة الروح الانسانية في نفسه .

فليحذر الغرب تماديه في غرور قوته ! . . . وليحذر الشرق استسلامه لمخدرات ضعفه ! . . . وليعلم الشرق عامة ، والشرق العربي خاصة ، ان تحقيق السلم العالمي متوقف عـــلى وثبة الشرق واستكمال قوته ؛ وأن الحضارة الانسانية ، وهي لا تزال تنفعل بالروح التي نفثها فيها ، منذ القدم ، تنتظر منه العزم والهمة والاقدام ! . . .

٤ — رسالة الشرق العربي في العالم

ان منطقة الشرق العربي ، هي أجدر المناطق الجغرافية ، موقعاً ، لتأدية الرسالات العالمية. فهي في مركز وسط ، بين أقصى الشرق والغرب ، وكأني بها شرق وغرب ، في آن واحد . لذلك كانت دائماً ميداناً فسيحاً ، تتفاعل فيه الحضارات ، وتتلاقح ، لتخرج للعالم حدوداً مشتركة : في منازع التفكير ، وفي بواعث السلوك وتذوق الحياة . وتأثير ديانات هذا الشرق ، ومفكريه ، في جميع أنحاء العالم ، شرقاً وغرباً ، برهان واقعي ساطع ، يؤيد ما نذهب اليه ، من أهمية نتائج هذا التفاعل ، في تكوين فكرات انسانية كبرى ، يستطيع الجميع ، في الشرق وفي الغرب ، إدراكها وتحسسها . وهي فكرات ، تخفق لها قلوب البشر ، على اختلاف منازعهم ، واهوائهم ، وطرق حياتهم ، في المناطق المتباعدة .

لذلك كانت الرسالات الصادرة ، عن شرقنا ، انسانية عامة . وقد استطاعت ، بمبادئها الكبرى ، أن تغزو جميع البلاد ، لا لتكون وسائل استثمار أو تله أو تسلية أو . . . ، بل لتتغلغل في تلافيف الادمغة ، ولتستقر في اعماق الافئدة ، فتصبح في صميم بواعث التفكير ، والعمل ، والسلوك. وما كان لرسالات هذا الشرق العربي تأثيرها الفعال، في نفوس الناس ، على اختلاف مناطقهم ومنازعهم ، واختلاف التنوع في معيشتهم ومبادىء سلوكهم وبواعث تفكيرهم ، لو لا انها تتضمن ، في صميمها ، عناصر قوية من عناصر الحضارة الانسانية المثلى . وهي عناصر تسمو بها الحياة ، فتتحقق ذاتيتها ، وتنطلق، وتجول في اجواء الحق والخير والجمال .

في هذه الاجواء نعيمها ، واليها تتشوق في احـــوال الكبت والضغط والجمود . ويعبر ، عن ذلك الشوق الفؤادي ، ضنك الانسان ورعونته ، وجموده وضجره . . .

لا ترتاح النفس البشرية ، ولا تطمئن ، إلا إذا تحققت فيها مبـــادىء الحياة الانسانية ، في حضارتها. ومهما اختلفت صبغة الحضارة ، فانها تعتمد ، في صميم حقيقتها ، على عناصر اولية واحدة ، تبرز في مظاهر الحق والخير والجمال . وما تنوع الحضارات ، سوى صبغ ، يلونها ، بها ، تنوع مظاهر الحياة . وإذا تراءى لنا وجود فوارق ، اعمق من الاصطباغ ، فان ذلك يعود لاتجاهها، سماء ، أو ارضاً ، وعلى نسب مختلفة في القوة والضعف ، دون ان يصيب العناصر الاولية اي تغيير .

فمهما تعددت الحضارات ، ومهما تنوعت : من قديمة وحديثة ، هندية او فارسية ، يونانية أو عربية ، لاتينية او انكلوساكسونية ، سلافية او جرمانية .... ، فانها تعود كلها لحضارتين أساسيتين كبيرتين : الحضارة الشرقية والحضارة الغربية . والفرق بينهما يعود لتغلب الاتجاه : ففي الحضارة الشرقية يغلب الاتجاه الى السماء ؛ ولذلك يقال انها روحانية . وفي الحضارة الغربية ، يغلب الاتجاه نحو الارض ، فقيل انها مادية. والحقيقة أن كلا منهما يتجه إلى السماء والارض معاً . ولكن الفرق الحقيقي ، هو في تغلب انجذاب التوجه لاحدى الجهتين . فمن الخطأ ان نقول : ليس في الحضارة الغربية أية روحانية.. ومن الغلو ان ندعي تجرد الحضارة الشرقية من النزعة المادية . والحضارة الانسانية المثلى ، هي حضارة ، يجب ان يتم فيها توازن الاتجاه ، نحو السماء والارض ، دون افراط ، ولا تفريط .

افرط الشرق في الروحانيات ، حتى اصبحت ، في كثير من مظاهرها، رياء ودجلا وشعوذة ،افسدت العقائد ، وهدمت المبادىء ، فانهارت المثل العليا ،وتعطلت العبادة . وهذه مظاهر ، اصبحت طقوسا شكلية ، لا صلة بينها وبين القلوب . فلا غرو اذا اصبحت الحضارة ، فيه ، متداعية الاركان ، واهية الاسس . ولاغرابة اذا خسر بذلك امجادا ، اكتسبها ، في عهود ، لم يكن للافراط ، فيها ، الى نفسه سبيل .

وفرط الغرب ،في الروحانيات ، حتى انقلبت مادية والحادا. فاصبح الغرب خطرا على الحضارة ، وعلى الحياة الانسانية . ومما يزيد ،في الخطر، حالة الشرق في افراطه. فهو لا يستطيع التنصل من التبعة، ما دام ضعف الضعيف ، على ما سبق وقررنا ، اشد خطراً على الحضارة من قوة الاقوياء.

اما المادة ، او الارض ، فعلى النقيض: افرط الغرب في الاتجاه اليها ، وفرّط الشرق . فنشأ عن ذلك مغالاة الاول في قوته ، وخوف الثاني من الكفاح والمقاومة. فاستُعبد الضعيف ،ردحا من الزمن. ثم تصادم الاقوياء، واشتدت ازمة الحياة ، وعمت الكون ، غربا وشرقا ، واصبحت المعيشة هدفا ، وكثر من لا يحصل عليها . ازداد البؤس ، وارتبك العالم ، فانتبه الضعيف ، بل استيقظ ، وبدأت تباشير وعيه. عندئذ اخذ يحاول استعادة قواه ، وتجميع ما فرقته يد الازمان القاسية ، من شتات امره ومقومات حياته ، فازداد ضغط الازمة ، وعم الارتباك ، واضطربت النفوس ، وقد دوت صفارة الخطر ، تنذر بالشر المستطير !... اذا لم ينصف القوي الضعيف !...

فتأوه ضمير الكون على مدنية تهدد : بالانهيار، بعد ان اصبحت الحضارة

على شفا جرف هار !...

والنذير المباشر ، هو القنبلة الذرية ، وما يمت اليها بصلة ، من اسلحة فتاكة ، ووسائل مدمرة . ويزيد ، في قوة انذارهـــا ، ما تكاد تفقده النفوس من الوازع الانساني. ولولا خوف الناس ، بعضهم بعضا، لوقعت الواقعة ! ومن يدري متى تقع ؟ اقريب موعدهـــا أم بعيد ؟ ! ... أم هناك عوامل ، ستعمل على تركيز الحضارة ، وافساح المجال ، واسعا ، لوثبتها المنقذة ، فتحرر النفوس من اطماعها، ومن احقادها، وتضمن للعالم عدلا ، فطمأنينة وسلاما ؟ ... وهل يحفظ المدنيـــة سوى قوة الحضارة ، في معناها الصحيح ؟ ...

لنستمع قليلا إلى عالم غربي معاصر ، هو السير رتشارد لفنجستون ، في بحث له عن التربية الديموقراطية متحضرة، (١) ، حيث يقول :

« نعيش اليوم في عصر ، يموج بأعظم التغيرات الاجتماعية التي حدثت في عصور التاريخ . هذه هي الحقيقة المجردة ، سواء لاحظناها ، أو غفلت أعيننا عن رؤيتها ، وسواء أحببناها ، أو استنكرنا مظاهرها . إن نظاما جديدا تبزغ شمسه الآن، ويولد بين ظهرانينا، ونحن مستحدثوه ومنشئوه؛ أو على الاقل نحن حراسه والاوصياء عليه، الذين تقع على كواهلهم تبعات خلقه ، وصياغته في القالب الذي سوف يأخذه في مستقبل الايام .

« ولعل خير كلمة في الأعوام الأخيرة، تعبر عن أهم مظهر من المظاهر السياسية ، لهذا العصر الجديد ، هي التي فاه بها مستر هنري ولاس حين قال : « إن القرن العشرين هو قرن الرجل العادي » . ونرى بدء ظهور

(١) عن مجلة التربية الحديثة التي تصدر في القاهرة .

هذا القرن ، حينما وسعت دائرة حقوق الانتخاب ، حتى أصبحت تشمل الآن جميـــع المواطنين والمواطنات . ونشاهد هذه المظاهر كذلك في تطورات التشريع الاجتماعي الحديث . فلم نكتف في بريطانيا بمنح كل رجل وامرأة حق الانتخاب، بل نعمل ، في مواظبة واطراد ، على إنشاء ديموقراطية اقتصادية حقة ، فيها يتقارب الناس ، في الحرية الاقتصادية ومستوى المعيشة . — ديموقراطية تزول فيها أسباب الفقر بين الناس ، ويساهم الجميع في الشئون العامة ، ويتقاسمون معا الخدمات والأطايب التي تستطيع الدولة أن تقدمها لأبنائها .

« ولكن ربما يظن البعض اننا ، حينما نستكمل هذه الأمور ،نكون قد أنجزنا مهمتنا في خلق ديموقراطية طيبة . ولكننا نكون ، في الواقع ، قد خطونا فقط الخطوات الأولى في انشائها . فانّا حين ننتهي من انشاء ديموقراطية سياسيه ، يكون قد بقي علينا أن ننهض بواجب آخر أجل شأنا ، وهو أن نخلق حضارة ديموقراطيـة — تخلق لونا من الحضارة ، لم تظفر بعد به انجلترا ولا الولايات المتحدة . وسوف يحكم التاريخ ، لنا أو علينا ، إذا أصبنا نجاحا في تحقيق هذا الهدف، أو منينا بالهزيمة والاخفاق. وإن كان لا يزال أمامنا المجال واسعا حتى الآن لخلق هـــذه الحضارة الرفيعة المباركة .

« وقد نسائل أنفسنا ما الدور الذي سيضطلع به الرجل العادي في هذا القرن ؟ هل سيظفر بالمعارف ، ويتحلى بمناقب الذكاء والأخلاق التي تعينه على تكوين أحكام سليمة ، بصدد المعضلات السياسيه المعقدة التي

سوف تواجهه في الداخل ، وفي الخارج ؟ بل أهم من ذلك ، هـل يقدر على أن يقيم صرح حضارة عظيمة ؟ إن حضارتنا الحالية سوف تجبر على أن تتلاءم مع مصالحه ، وتتكيف بذوقه ورغائبـــه وكفايته ، وستسمو وستنخفض تبعا للمستوى الذي سوف يبلغه » . اهـ

فهذا مفكر غربي ، يرى أن خلق حضارة رفيعة، مباركة ، ضروري لحفظ الديموقراطية الاقتصادية . وكأني بالديموقراطية الاقتصادية هنا — تعني ما أردنا فهمه ، في بحث سابق ، من كلمة المدنيـــة ، وهي تعني بأمر المعيشة ، وتنظمها ، لتزيل أسباب البؤس والفقر . والفرق ، بيننا وبينه، أننا نرى أن الحضارة هي التي تضمن للمدنية الصحيحة استقرارها وتقدمها . فلا بد من أن يستبق المدنية ولو شيء من مبادىء الحضارة، ثم تتبادلان، الحضارة والمدنية ، التفاعل في التقدم والرقي. والا فما دامت الحضارة في أزمة ، فلا ضمان للمدنية ، ولا للديموقراطية ، مطلقا . وأزمة المعيشة ، اليوم ، منشؤها أزمة الحياة ، أي أزمة الحضارة . فالحضارة قـــد تنشأ بدوية ، وأكاد اعتقد أنهـا هكذا نشأت ، لترفع من نفوس العاملين ، فيقيمون مدنية صحيحة ، تعتمد عـــلى حضارة تتكامل معها . فالحضارة تسمو وتنحط ، وتتقدم وتتأخر ، بنسب متفاوتة ، وبحسب سيرهـــا ، تسير سائر مظاهر الحياة البشرية . فالحضارة ترد من القلب ، ويشترك في تحقيقها الذهن ؛ والمدنية تصدر عن الذهن ،ويساهم في اتمامها القلب . وقد تتشابه مظاهر المدنية ، في بلاد مختلفة . ولكن الخلاف ، في الصبغة ، يبرز فيما تنطوي عليه الحضارة ، من ثقافة ونزوع ، وشعور وبواعث .

أكثر ما تعتمد المدنية ، في تكونها ، على العلوم البحتة (Sciences exactes) ،

وهذه لا تختلف بين بلد وآخر ، فليس هناك بلد ، في العالم ، يشك، علميا، في أن زوايا المثلث تساوي زاويتين قائمتين ، مثلا . وأما الحضارة ، فانها تعتمد ، في أسسها ، على نواميس الحياة وعلومها وبواعثها ، والحياة لا تعرف استقرارا ثابتا ، ولا استمرارا متواصلا، مهما حاول الجبريون !... وإذا اعتمدت المدنية على بعض مبادىء علوم الحياة ، فلأمور تتعلق بالشكل ، أكثر مما تتعلق بالجوهر ، أو لأسباب تتعلق بالجسد ، كالمرض والصحة .

وما أبعد زمن يجب أن نقضيه بالانتظار ، حتى تتكون الديموقراطية الاقتصادية ، لنباشر خلق الحضارة !... ولاأدري : أفي الامكان خلق الديموقراطية الصحيحة ، دون أن تتهيأ لها حضارة قوية، في النفوس؟...

ثم إنني ألاحظ أن السير لفنجستون يفكر ، كغربي ، يرى أن رسالة أمته أن تقوم بكل هذه الأعمال العظيمة : خلق الديموقراطية ، وخلق الحضارة الرفيعة ، لتمن بها على العالم . وهنا يكمن الخطأ الاكبر الذي انطوى عليه التاريخ ، في أدواره المختلفة، فكان خطرا على السلام العالمي.

منذ القديم ، والسلام العالمي ينشده الانسان ، ويتمنى أن يهنأ بظلاله. وما من حضارة قامت ، على اختلاف درجات الحضارات ، الا واهتمت بأمر السلم . ولكن الخطأ الاكبر ، كان يتجلى ، في محاولة كل أمة متحضرة فرض حضارتها على العالم ، معتقدة ان التأثر بمبادىء حضارة

واحدة ، يضمن السلام. فكانت هذه المحاولات ، ولا تزال ، سببا رئيسيا في ايقاد نيران البغض والشحناء ، والفتن والحروب . (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة) .

ليثق السير لفنجستون ، وغيره من مفكري الغرب ، ان ليس للسلم استقرار ، ما دام الغرب على غروره هذا ، لا يأبه للشرق ، ولا يحسب لمعاونته ، في خلق الحضارة التي يريدها ، حسابا .

في الغرب علماء انسانيون ، يرون ضرورة التعاون بين الشرق والغرب ، ويعتقدون انه لا يجوز لأية حضارة ، مهما سمت ، ان تعمل بمبدأ دمج سائر الحضارات. بل الاولى ان يفسح المجال لنمو كل حضارة ، وفق اجوائها ، ويكتفي بقدر مشترك ، يجمع بين ابناء الحضارات المختلفة ؛ ولا ضير من بقاء كل منها على صبغته . وهذا هو الرأي الاصوب ، لا سيما والعناصر الاولية لجميع الحضارات واحدة . فكما قبل مبدأ الوحدة في الاختلاف ، في تكوين الامم ، فلا بد من ان يقبل المبدأ ذاته ، في تكوين الحضارة الانسانية. والعبرة للفكرات المشتركة الموحدة... فماهي، واين نجدها؟...

يتعذر الاهتداء اليها في الغرب، وفي اقصى الشرق؛ فهما قطبا الكون، في الحضارات . والفرق عظيم ، بين مظاهر الحضارة ، في كل منهما ، وكل يتعصب لحضارته ، او لمظاهر حضاراته المتطرفة .

ولمـــا كان إيجاد تلك الفكرات ، يجب ان يكون بطريق الانبثاق

الروحي ، بعد تفاعلات نفسية عميقة ، تؤثر فيها حياة ، تستقي من كلا المعينين ، وما يتفرع عنهما ؛ فان الشرق الادنى ، او الاوسط ، بصورة عامة ، والشرق العربي ، منه ، بصورة خاصة ، مدعو لتأدية هذه الرسالة . وقد سبق وبينا كيف ان رسالاته غزت ، وتغزو العالم ، منذ القديم ؛ والسر ، انما هو فيما تنطوي عليه هذه الرسالات من الفكرات المشتركة . وما نجده منها في الادب الغربي ، وفي فلسفته ، يعود ، في الاصل ، الى احد هذين الشرقين . فليس في مصلحة الغرب ، اذن ، ان يعرقل سير الشرق العربي ، وتقدمه ، اذا كان يرغب حقا في السلام . وان الشرق العربي ، الذي تدعوه الحياة للقيام بهذه الرسالة المقدسة ، هو الجدير بها ، اليوم ؛ وما الحوادث التي تنتابـــه ، ولا المصائب التي تنزل به ، سوى حوافز تستخدمها الحياة ، لايقاظه من سباته ، ودفعه لميادين العمل ، في ازمة خانقة ، تتخبط فيها الحياة .

استقرت الحضارة في الغرب ، مدة طويلة ، وازدهرت في احقاب متتالية ، بفضل جهود رجاله المخلصين . وقد سبق لها مثل هذا الازدهار في الشرق ، اقصاه وادناه ، وكان ازدهارها ، هنـــا وهناك ، بالقدر الذي ساعدت عليه إمكانات الحياة ، ودرجة تطور الروح الانسانية ، في نفوس بني الانسان . فكانت ، في تقدم ورقي ، من حيث المظاهر والاعراض ، ولكنها هي هي لم تتبدل ، من حيث الاسس والجوهر . فهي حضارة واحدة انسانية ، سواء اكان اشعاعها في المشرق ، ام في المغرب . صفاء في الروح ،

واطمئنان في النفس ، وتعاون بين الناس في المجتمع ، وتضحية بكل عزيز ، حتى بالحياة، في سبيل القيم الروحية والمثل العليا. فهي، في الحقيقة، سعي متواصل في سبيل تكامل انسانية الانسان ، في ذاته ، وفي مجتمعه.

ويجد المراقب لتطورات الحوادث ، في التاريخ ، ان ظاهرة حيوية جديدة تكاد تتحقق : هي ان الحضارة لن تشرق في الشرق ، لتغرب في الغرب؛ بل هناك وعي جديد، هيأت له المطبعة ، وانتشار المعرفة والعلوم والآداب ؛ ويحاول الغرب ، في وعيه هذا ، ان يستعيد نهضته ، وان يعود للسجايا ، والاخلاق ، التي تتحلى بها الشعوب في نهضاتها ؛ فينقذ نفسه من التي تبرز ، في عهود انحطاط الامم ؛ وقد بدت بوادرها بالظهور في انحائه . فهو – وقد تنبه ، لتلك الاخلاق الهدامة، اكثر مما تنبهنا لها نحن ، عندما ظهرت في ارجائنا ، في اوج ازدهار الحضارة عندنا – اخذ يخشاها ويعمل على إفناء جراثيمها الفتاكة . ولا يتمنى له الشرق، في وعيه هذا ، سوى النجاح .

فالغرب والشرق ، في حالة متقاربة ، في المقاومة : فالغرب يعمل ، على انقاذ ذاته ، من خطر جراثيم سجايا الانحطاط ، في اخلاقه ، خوفا من ان يعود لظلام القرون الوسطى . ونحن ، وقد تفتحت اعيننا للنور، بعد سبات عميق طويل ، اخذنا نحاول انقاذ ذاتنا ، من خطر تلك الجراثيم ، وقد رمتنا في اعماق ذلك الظلام . تجمعنا ، اليوم ، مصيبة واحدة : هي اشباح الانحطاط الرهيبة . فيجب ان توحد جهودنا آمال مشتركة ، في

خلق حضارة ، تليق بما وصل اليه الانسان من تفهم ورقي. فتتحقق فكرة السلام ، الهدف الاسمي لانسانية الانسان !وهي حضارة السمو في حياته !...

قلت ان الشرق يتمنى للغرب النجاح في استعادة نهضته ، لان الشرق سمح بعواطفه التي انبعثت عنها العناصر الاولى لتلك الحضارات . وهو ، مع ذلك ، حكيم ، يرى أن تتصل هذه الظاهرة – ظاهرة محاولة الغرب العودة لنهضته ، قبل أن يستغرق في النوم – بظاهرة ثانية ، اسمى مظهراً وأروع اثراً ، وهي تعاون الغرب والشرق على استكمال الحضارة نموها وازدهارها، فلا نعود لعهد الانتقال: فيستأثر بها الشرق لاستعباد الغرب، مثلا ، كما استعبد الغرب الشرق، ولايزال لاستعباده بعض الاثر . وهكذا يظل السلام العالمي مهدداً ، وتظل الحضارة نفسها بعيدة عن اوج اكتمالها . هذا ما تقضي به الحكمة ، اليوم ... فهل للغرب ان يدرك ذلك ، لا سيما وقد اصبحت مقدرات الحضارة ، على ما ألمع اليه لفنجستون ، بيد الرجل العادي ، اي تحت تصرف الجماهير ؟ . .

ومهما حاولنا تفهم الحالة وتحليلها ، فلن يقتنع الغرب بضرورة تبادل الاحترام والتعاون ، إذا لم يعمل الشرق عامة ، والشرق العربي خاصة ، على تحقيق ذاته الانسانية الرفيعة ، بالتكتل الصحيح ، وبالتضامن المخلص، وبالعمل المنتج ، ليبرز قوياً جباراً ، جديراً بالاجلال والاحترام . عندئذ تمد له الايدي للتعاون ، ويتحقق السلام . وقـــد بدت البوادر ، وهي مبشرة ! . . فنرجو أن يكون ما بعدها محققا لما نرجوه للانسانية من

تقدم ، وللحضارة من رقي ، وللسلام العالمي من استقرار واستمرار ، بزوال ازمتي المعيشة والحياة .

فعلى الشرق العربي تبعة عظمى، يجب ان يفكر فيها ، وان يتأمل في عواقب اهماله واستهتاره . ولن يقوم بما على عاتقه ، من تبعة انسانية ، إذا لم يجد الشباب ، فيه ، مجالاً فسيحاً للتفتح والانطلاق ، بحرية صحيحة ، تبعده عن فوضى يكاد يتخبط بها ، وعن تضييق ، لا يزال يشكو منه ، معللاً فوضويته ، او جموده!....

ان للشباب ، في الامم ، وضع خاص ، نفسياً وروحياً وخلقياً . وان للنمو الجسمي ، في هذا الدور ، تأثيره في السلوك والتصرف . فلا بد ، إذن ، من تحليل ادوار هذا النمو، ودراسة احوال ذاك الوضع ، لما لهما من تأثير عميق على الامم ، في سيرها ، وفي تحقيق اهدافها . وهذا ما نحاوله في الفصول التالية .

الفصل الثاني

الشباب في المجتمع

عمل الشباب وأثره في الامم

مم نخشى على الشباب ، والمستقبل له ؟

اليقظة الواعية ، واليقظة البلهاء

صلة الشباب بالاجيال

خلاصة الفصل الاول

استحكمت ازمة الحياة في العالم ، فتبعتها ازمة المعيشة . وزاد ، في شدة الازمتين ، تقدم مظاهر المدنية ، وتأخر الحضارة ، في عقائدها ومبادئها وقيمها الروحية والروحانية . غالى الناس في طلب الرخاء والرفاهية ، ووقفوا عند مظاهر المدنيـة ، فتوفرت اسباب البؤس بنوعيه : بؤس الحاجة وبؤس الترف . فدوى صوت النذير بالانهيار والانحطاط . ولن يجد العالم خلاصاً من الكارثة إلا بتعاون الشرق والغرب ، وبنهضة الشرق العربي بصورة خاصة . ان الشرق العربي مدعو ، اليوم ، للقيام برسالته الانسانية في الحيـــاة . ولن يستطيع ذلك ، إذا لم ينشأ الشباب ، فيه ، نشأة وعي صحيح ، وعزم جبار وثاب ؟ .. وهل تتم هذه النشأة ، نشأة الوعي والعزم والوثبة ، إلا بتفهم حقيقة الشباب ، وتحليل مشاكله ؟ .. وهل يتسنى لنا الفهم والتحليل ، لحياة شبابنا ، إذا لم نستعرض وضعه في مجتمعه ؟ ..

فما هو هذا الوضع ، وما هو تأثير الشباب في الامم ؟ ..

١ ـ عمل الشباب واثره في الامم

اسمح لي ، ايها القارىء العزيز ـ توضيحا لهذا البحث ـ ان اقص عليك اسطورة حلوة ، هي اسطورة النهر المسحور . انها اسطورة ، تستحث الشعور والبصيرة ، وتستثير التفكير والاعتبار . هي صورة تمثل اروع مظهر من مظاهر الحياة البشرية ، وتعبر ، اصدق التعبير ، عن ادق نوامیسها الخالدة ، واعمقها .

قال الراوي : اعتاد لقمان الحكيم ان يزور ، في فصل الفاكهة من كل سنة ، صديقاً له يدعى قيساً . وكان يقضي عند صديقه هذا اياماً حلوة، يشعر ، فيها ، انه في نعيم الخلد ، ذلك النعيم الابدي ، الذي وعد الله به عباده الصالحين .

ولم لا يشعر لقمان بهذا النعيم ؟ فدارة قيس الجميلة في بستان فسيح ، يجري في وسطه نهر رائع ، في روائه ، لما بذل من عناية في تنظيم سيره ، وحسن توجيهه ، وفي تزيين جانبيه بالازهار والرياحين ، والشجر الظليل .

وفي البستان : ما يشتهي المرء من فاكهة لذيذة ، وما تطمئن اليه النفس من ظل هنيء ، وخضرة تشع بنور البهاء والجلال، وازهار عطرة، زكية الرائحة ، مختلفة الالوان والتنسيق .

لم يكن لقيسنا هذا مورد ، يدر عليه المال الحلال ، سوى ما كانت تمنحه اشجار بستانه من ثمار يانعة لذيذة . وقد كان مورداً طيباً ، يكفيه ويفيض عن نفقاته ، على الرغم من رفاهيته وسخائه . لذلك كنت تراه ، والابتسامة لا تفارق ثغره ، وكان المرح جزءاً من نفسه المطمئنة الهادئة .

فلا عجب إذا سكنت نفس الحكيم الى تلك الظلال الحلوة الهانئة ، والمناظر الجميلة الفتانة ، والحياة المرحة الشائقة !... ولا غرابة إذا أنس بنضارة هذه القطعة من الارض الخصبة ،وبلطف صديقه وذوقه !... فنفس الحكيم حساسة، وروحه ، في رقة شعورها ، ترتاح لجمال الطبيعة وروائها ، وتطمئن للحياة ، تدب في ارجاء ارضها الخصبة الخيرة .

لذلك كان دائم الذكرى والحنين لهذه الحيـــاة ، عندما اضطرته ، للابتعاد عن الوطن ، سياحة علميـــة ، اعتاد القيام بها في اطراف العالم المعروف ، بين وقت وآخر ، شأن الحكماء ، في كل عصر ومصر .

استمرت سياحته هـذه ، وقد حالت بينه وبين الاستمتاع بالحياة الهانئة الهادئة ، في بستان صديقه ، مدة سنتين ، عاد بعدها الى وطنه ، يحدوه شوق خفي ، وذكريات ايام حلوة . فما حان موعد فصل الفاكهة ، حتى قصد صديقه ، يستحث الخطى ، لتقريب موعـــد حياته الممتلئة نعيما ، ومرحا ، واطمئنان نفس .

ولكن !.. لم يصل لقمان الى مقر نعيمه ، حتى استولت عليه الدهشة ، واستحوذ على نفسه الحزن والاسى ، لهول ما راى وغريب ما سمع . . .

مسكين قيس !.. فقد حلت به النقمة بعد النعمة ، واستبدلت الدار بأنسها وحشة ! رأى لقمان صديقه حزيناً كئيباً ، وسمعه يشكو إلى الله سوء حاله ! ناقماً على ذلك النهر الذي يجري في بستانه ، ملصقاً به كل ما اصابه من شقاء وفاقة وإحن !..

تألم الحكيم لحزن صديقه ، وهو المضياف الكريم الذي لا تفارق الابتسامة ثغره ! ورثى لشكواه ، وعهده به مقداماً نشيطا ، يهزأ بالكوارث ويسخر بالاحداث !.. وقد استغرب نقمة صديقه على ذلك النهر ، فقال : وما علاقة هذا النهر بمصابك ، يا قيس ؟ . .

فنظر اليه قيس شزراً ، وأطرق قليلا ، ثم تنهد ، وقال : اتذكر ، يا لقمان ، نضارة هذه الاشجار واخضرار أوراقها وتلون ازهارها ؟.. أنسيت لذة تلك الثمار اليانعة التي كنت تستطيب طعمها ، وتلتهمها بيديك وفمك وعينيك ؟ .. ألم تكن للحياة في هـــذا البستان قوة السحر ؟ ألم تكن تنتقل بساكنيه الى ما يشبه النعيم في جنة الخلد ؟ . .

قال الحكيم : وكيف أنسى ذلك ، ولم يحدوني الى العودة سوى تلك الذكريات الحلوة ؟ ! ... فمالي ارى اليوم جنتي كئيبة الوجه ، عارية ؟

من اقتلع هذه الاشجار المرتمية على الارض صرعى ؟.. وما سبب اصفرار أوراق ما بقي قائماً منها ؟ .. فأشار قيس الى النهر ! ..

ازداد استغراب لقمان، وبدت على وجهه امارات الدهشة والارتباك، وأخذ يتساءل قائلاً : وما شأن هذا النهر ؟ . . . فافترت شفتا قيس عن ابتسامة ، لم تكن ابتسامته المرحة المعروفة ، بل كانت ابتسامة صفراء حادة ، هازئة حاقدة ، وقال : « اسمع أيها الصديق ! لا شك عندي أن هذا البستان مسحور. ومستقر السحر فيه، هو هذا النهر المشؤوم. فان الجن والشياطين تسكنه ، والعفاريت تتصرف بسيره ! وقـــد رأيتها جميعاً ، بعيني ، في هاتين السنتين ! . .

« قد كان هذا النهر المسحور هادئاً خيراً يفيض على بستاني في الشتاء ، فيمنحه الطمي والري ؛ وكنت استخدم القنوات ، برفع السدود ، عند انقضاء الشتاء ، فترتوي الارض من مائه الجاري ، بانتظام وسكون ؛ فكان ذلك سبب ازدهار هذا البستان وروائه .

« ولا أدري : اي ذنب اغضب سكان هذا النهر ؟ ! . . او أية جريمة اقترفتها ، حتى آلمت ساحره ، فهيج علي جنه وشياطينه وعفاريته ؟.. إنه أخـــذ يطغو في هاتين السنتين طغياناً هائلا ، في فصل الشتاء ، ويفيض فيضانا صارخاً صاخبا . . . وكنت ارى الشياطين تخرج منه ، وتكسر الاغصان، وتقتلع الاشجار، وتذهب بالكثير منها، لتلقيه خارج البستان ! وقد هدمت عفاريت النهر وجنه ، هذه السنة ، دارتنا الحلوة التي كنت تطمئن اليها ، وتجد فيها الراحة والانس والسكون . . .

« ارتعت في السنة الماضية ، واستولى علي الرعب ، لهول ما شاهدت من اعمال شياطين النهر وجنه ! .. وقد كنت اراها واسمع اصواتها ..

ولو شئت لرويت لك عنها الشيء الكثير . . . فهجرت الدار ، في شتاء هذه السنة ، وكان ذلك سبباً لنجاتي من الموت . . . وليتني لم افعل . . ولم أنج . . فقد كان خيراً لي ان اكون من ساكني الارماس ، عن أن اشهد بأم عيني هـــذا البؤس والخراب . . . وهنا ترقرقت عيناه ، وفاضت بالدموع . وبعد استسلام قصير لعالم الذهول ، عاد متمما حديثه ، وهو يتجلد ، محاولاً امتلاك اعصابه ، وقال :

« كانت هذه حالة نهري المسحور ، في الشتائين الماضيين . اما حاله ، في سائر الفصول ، فانها على ما ترى : يشح بمائه ، فلا أجد وسيلة لارواء ما تبقى فيه من شجر ، او ما أزرعه من ازهار وخضر . ولو لم يضن علي ، في هذه الفصول ، بالماء ، لوجدت لنفسي من البؤس مخرجاً ، ولاستعضت عن خسائر الشتاء بأرباح سائر الفصول . أفلا تجد في هذا التناقض الواضح العجيب ، من الشح والفيضان ، ما يدل ، على فعل السحر ، وعمل الجن والشياطين ؟ ! . . »

هنا ، اخذ لقمان الحكيم يفكر ، باحثاً عن الاسباب والعلل . وكيف تريد منه ان يشارك قيساً اعتقاده بتأثير السحر ، وبفعل الجن والشياطين ، وهو فيلسوف عالم مدقق ، يرجع بالحوادث الى اسبابها ، باحثاً عن العلل ؟ .

تبين للقمان ، بعد البحث والتنقيب والتفكير ، أن لهذا النهر ، الذي ينعته صاحبه بالمسحور ، سواعد عدة ، كانت تغدق عليه من مائها النمير ، فتمده بالحياة . وقد تنبه الى هذه السواعد بعض الاغنياء ، من اصحاب الاراضي المجاورة لها ، فغيروا اتجاهها ، واستخدموها في ري اراضيهم . فكان ذلك سبباً في شح النهر بالمياه . وأما فيضان المياه ، في الشتاء ، فقد نشأ عن هجوم سيول أتية جرافة ، لم يكن لقيس ، ولا لنهره وبستانه ،

عهد بها . فهي غريبة عن تلك المنطقة ! وما جعلها تتحكم، في بستانه، سوى جهله ، وما اصابه من اضطراب ، بسبب شح نهره .

اوضح لقمان لصديقه تلك الاسباب والعلل، وأرشده لطريقة الوصول إلى حقه ، في إعادة مجاري السواعد إلى مجرى نهره . وعلمه كيفية حفظها من الضياع والاعتداء ، موجهاً نظره الى أهمية تنظيم مجاريها ، ومجاري تلك السيول الآتية ، واعانه على تحقيق ذلك ؛ فعاد إلى ذلك البستان زهوه وازدهاره ، وعاد لقيس مرحه ويساره . إذ أصبح يحسن التصرف بنهره ، وبسواعده ، ولا يخشى السيول الأتية ، وإنما اخذ يستفيد منها .

هنا استغرق لقمان — وهو حكيم ، لا يقف عند الظواهر المادية — في تأمل شاسع الآفاق ، وتفكير بعيد الاغوار والاعماق ! فانتقل من عالم الجماد والنبات ، إلى عالم الانسان ، وقال في نفسه : الا يجوز أن يمثل لنا هـــذا البستان الشعب في الامة ، وقيس حكومتها . والنهر حيويتها ، والسواعد شبابها؟ ..ثم ،الا يجوز أن نرى، في هذه السيول الأتية، الأغراب الاقوياء ، وهم لا يجدون ضعفاً في امة ، انصرف عنها شبانها ، إلا ويكتسحونها غزاة ، يسلبونها كل ما تملك من رزق وخيرات ؟.. هنا هز برأسه هزات خفيفة، تعبر عن اقتناع المرء بحقيقة من الحقائق ، بعد تفهمها تفهماً صحيحا ، وخاطب نفسه قائلا :

« يكفي ان يتجه الشباب ، في امة ، اتجاهاً يخالف مجرى حيويتها ، اي اهدافها ومثلها وتقاليدها وقيمها الروحية، حتى يصيبها ما اصاب ذلك البستان وصاحبه !! . . »

صدق لقمان ، فالامة بشبابها ! إذ به تتجدد حيويتها ! الشباب هو الدم الذي تتجدد به حيوية الامة ، وتقوى ، كما يتجدد ، بسواعده ، ماء النهر،

ويغزر ! ولا خير في امة، لا تستطيع الاعتماد على شبابها ! واننا في يقظتنا، اليوم ، وفي نهضتنا ، إنما نعتمد على وثبة الشباب المثقف الواعي فينا . فان انصرف عن واجباته نحو امته، وتلهى بمظاهر المدنية، ووقف عندها، فالويل له وللامة !.. الويل لامة لا يهتم شبابها إلا بأمر المعيشة والرفاهية ، ضاربين بما تقتضيه الحضارة الانسانية الصحيحة — من جهد وتضحية وايثار وحكمة وشجاعة - عرض الحائط .

٢ — المستقبل للشباب ، فمم نخشى عليه ؟

قال هدفريك يخاطب شباب قومه : « ان اهمال العناصر الاساسية للحياة الانسانية ، في سبيل الحصول على الضرورات الذاتية ، هو نقيصة اجتماعية ، تؤدي الى الشقاء . فلا يجوز أن نخسر مكاننا في سلم الحياة » . ونحن لا نريد أن نخسر مكاننا ! وبعزم الشباب فينا ، سنظل صاعدين الى العلاء ، مدركين : ان اهمال العناصر الاساسية للحضارة ، يؤدي الى خسران ذلك المركز . وحاشا لشبابنا الواعي ، ان يريد لامته التقهقر والانخزال ! .. انه يدرك أن ، في ذلك ، شقاءه ، وشقاء بنيه وأحفاده ، ان ابقى له الخصم بنين واحفاداً ! .. وفوق ذلك ... ذل الابد ! ..

حاشا لشبابنا الواعي، وهو الذي يستطيع ان يثب بأمته الى قمة المجد، ان يتلهى، او يهمل او يقصر !.. وكيف نخشى ان يكون جباناً مهملا ، وهو يدرك ، ادراكاً تاما ، بأن المستقبل له ؟ . .

نعم ، المستقبل لك ، ايها الشباب . . . لك غنمه وعليك غرمه ... فهل فكرت في مستقبلك ؟ وهل انت مدرك علاقته بالمثل العليا التي تقود خطاك وشعورك ، وتبعثك على التفكير ؟

هل سمعت ذلك المفكر الغربي يقول لشباب امته : « لا يجوز أن ندعي العلاقة بمثل عليا ، تكون ، في الحقيقة ، اجنبية عنا ؟ ... » انه خشي ، على امته ، ان تتصل بمثل عليا اجنبية عنها ، لئلا تفقد ذاتيتها . فهل يدرك شباب البلاد العربية مغزى هذا النهي الحكيم ؟ . . الا ندرك ذلك ، ونحن في إبان الوعي والنهضة ؟ . . وهل نجتنب الاخطاء ، ونسير باستقامة صحيحة ، وفي طريق مجدنا نحن ، لا في طريق مجد الاغيار ؟.. كل ذلك متعلق بك ، ايها الشباب ... إن وعيت حقيقتك ...

اننا نخاف عليك – وانت الامل والقوة ، ولك المستقبل والمجد – من الاغيار !.. ومنا نحن ، آباؤك وأقاربك وابناء عشيرتك !.. ومنك ، انت ، على نفسك !..

فاذا كنا نخاف ، على الشباب ، من المستثمرين النفعيين ، الذين لا يرون في الحياة سوى هدف واحد : هو المنفعة الذاتية ! . . واذا كنا نخاف ، على الشباب ، من اولئك الطماعين الاشرار ، الذين لا يهمهم سوى الوصول الى مآربهم الخاصة ، مبررين كل وسيلة ، مهما انحطت وسفلت !.. فلم لا نخـــاف على الشباب ، من الشباب نفسه ، إذا فسد وماع ، او استكان ؟ . .

وإذا كنا نخاف على الشباب من اولئك الذين تعودوا أن يطووا ، في ثنايا أردية كبريائهم وغطرستهم وانانيتهم ، كل اباء وكل كرامة وكل عطف صحيح ... وإذا كنا نخاف على الشباب من أولئك الذين تعودوا ان يضحوا ، في سبيل مصالحهم الخاصة ، كل مصلحة عامة ، تعود على الامة بالنفع والكرامة والعزة ... فلم لا نخاف على الشباب ، من الشباب نفسه ، إذا اصبح يرى الحياة بأعين أولئك الذين يهزأون به ، ويسخرونه لمآربهم

الذاتية ومصالحهم الخاصة : باسم الدين حيناً ، وباسم المصلحة العامة ، او باسم الوطن احياناً ، دون ان يدرك كيف يسير ؟.. او انه يدرك ذلك ، إدراكاً غامضا ، تقضي عليه خمرة امل ؟.. او إدراكاً صحيحا ، واضحا ، يعميه عنه قرص من الحلوى ؟ ..

نعم ، اننا نخاف على الشباب من مكر أولئك الأنانيين النفعيين المستثمرين ، ومن خداعهم ... ولكننا اكثر ما نكون خوفاً عليه ، من ان يمكر هو نفسه بنفسه ، فينخدع عن سلوك الطريق السوي ... فيعود بنفسه وبأمته القهقرى ، ويفقد مستقبلاً جميلاً ، ما زال يغذيه بتفكيره وشعوره واحلامه ...

سئل المغيرة بن شعبة عن عمر بن الخطاب ، فقال : « كان ، والله ، افضل من ان يَخدع ، واعقل من ان يُخدع ؛ وهو القائل : لست بخب ، والخب لا يخدعني » .

حذار ايها الشباب ! حذار ! .. انتبه لنفسك ولمستقبلك .. ولايكفي ان لا تَخدع الغير ، بل يجب ان لا تُخدع به ، إن كان خبا . . ولتكن نهضتك منبثقة عن يقظة واعية ؛ فالمستقبل لك . . . . وهو لك وحدك ! فلا تفرط به لمصلحة من لم يعد له مستقبل يرنو اليه . . لا تفرط بمستقبلك ، وبمستقبل ابنائك واحفادك ، في سبيل من افقدته مطامعه الذاتية ، الآنية ، عطف الابوة على الابناء .. فلم يعد يشعر ان لابنائه مستقبلا ! ..

وان احس بذلك ، فهو الجبان الذليل ، لا يقوى على تضحية شيء ، من وهم الفائدة الخاصة الحاضرة ، في سبيل فلذات كبده . . بل ، قد يكون الجبان الاحمق ، فينخدع ، او يخدع نفسه ، فيعتقد ان تأمين شيء

أدري ، كم هي المرات التي يجب أن نردد بها تلك الاقوال ، ليستيقظ شبابنا ، وهو العمدة ، في وثبات النهضة الصحيحة ! . . . فيقظة الشباب يقظة صحيحة ، هي التي تنقذ الأمة ! والشباب هو الذي يحررها ويدفعها قدما إلى الأمام ! . . . ولكن اليقظة لا تكون صحيحة ، ولا تؤتي نتائجها الطيبة ، إلا إذا كانت واعية ! . . . فما هي اليقظة الواعية ؟ . . .

٣ — اليقظة الواعية واليقظة البلهاء

قال أبو العلاء المعري :

يأتي ، على الخلق ، إصباح وإمساء ، وكلنا لصروف الدهر نساء !

فما أصدق أبا العلاء في قوله هذا ! ففي الاصباح والامساء سر الحياة ، في الاحياء ! وفي ظلام النوم ونور اليقظة ، يكمن سر الوجود ، بنواميسه وسننه ! . . .

هل يستسلم الانسان للنوم ، لو لاتعب الكفاح ، والجهاد ، في الحياة ؟ ولو لا تراخي التقاعس والكسل ، في بطالة الترف ، أو الفراغ ؟ . . . ولِمَ يسيطر النوم المظلم على نفوسنا ، مجازاً أو حقيقة ؟ . . . إلا يتم له ذلك بفعل السموم المخدرة ، او الجراثيم ؟ . . . أو بفعل تخمة الشره ، في المآكل والمشارب ، وفي غيرها ؟ . . .

وماذا نخشى ، اذا استمر النوم وطال أمده ؟ . . . ألا نخشى الفناء ، متى اتصل نومنا بالابدية ، وأصبح موتا صاعقا ، لا رجعة بعده ؟ . . .

واليقظة ، بعد النوم ، هل تستكمل وجودها اذا لم تنقلب لوعي صحيح ؟ . . . وهل يصبح الوعي صحيحا اذا لم تكن اليقظة ، يقظة واعية ، تتميز حقائق الاشياء ، وتتصل بالواقع ؟ . . .

وهل لهذا الوعي ، بعد اليقظة ، نتيجة ما ، اذا لم تتبعه نهضة العمل

المنتج ؟ .. وهي نهضة ، تستكمل بها الحياة مظاهرها ، لتمنح الاحياء كيانا ومجداً وسعادة ! . .

يذكر كل منا تلك الحالة التي تستولي على المرء ، عندما يفتح عينيه ، مستيقظا . ولكنه ، وقد غلبه النعاس ، يعود لاغماضهما ، مستسلما لنوم جديد . وإننا نقول ، لمن تتماوج حركات اليقظة والنوم ، في عينيه ، في مثل هذه الحالة : إن النوم لا يزال في عينيه . فهذه اليقظة ، هي اليقظة البلهاء . وفيها يظل المرء متصلا بعالم النوم والاحلام . انها يقظة غامضة مشوشة ، لا تتصل بأي وعي صحيح . لا يتأثر ، مَن هذه يقظته ، إلا بما في عالم الرؤى والمنامات والاحلام ، من أوهام ومين وسراب! .. فنعيذ شبابنا من شياطين اليقظة البلهاء ! ... واليقظة البلهاء خائنة . اذا استسلم اليها المرء ، اعادته لنوم عميق مظلم ، وحرمته من روعة جمال الوعي ، ومن نعمة نشاط النهضة ، ومن سعادة إنتاج العمل . . . وما يصدق على الفرد ، في هذا المعنى ، يصدق على المجموع ، وعلى الامم ! . . .

لا يشك أحد ، اليوم، في يقظة الشرق ، بصورة عامة ، ويقظة الشرق العربي ، بصورة خاصة ، بعد نوم عميق ، وهجوع طويل ، تفتحت بعده اعيننا للنور .

تفتحت أعيننا للنور ، ورأينا ما حولنا ، من مآتي الغرب ونتائج أعماله ، فدهشنا . ثم أخذنا بما دهشنا به ! . . .

أخذنا بما دهشنا به من مآتي الغرب . وأحسسنا بضرورة التعلم . فتعلم الكثيرون منا . زادنا نور العلم حدة في البصر ، فاخترقنا حجب الزمن ، واطلعنا على ما كان عليه أسلافنا القدماء ، من حكمة وتقدم ، ومن سؤدد ومجد . فدهشنا ، دهشة على دهشة . وأخذنا بما أدهشنا به في الزمان ، كما

المثقفة ، منخطفة ، في اعجابها ، نحو كل غريب ؟! وما اكثر اولئك الذين لا يحسنون الاصغاء إلا للاصوات الاجنبية ! ولا يعجبون إلا بها ! مهما اشتبهت بالضجيج ! . . .

أنا لست ممن لا يتذوقون الأصوات الأجنبية الحسنة الايقاع ، والاتساق والتلحين . ولست ممن لا يعجبون بها ؛ بل أنا ممن يتذوقونها ، ويعجبون بها ، ويعترفون لأصحابها بالفضل والمنة ، على الانسانية ، وعلى الحضارة ! . . ولكنني ، مع إعجابي الكبير ، بآثارهم ، وشعوري العميق ، بفضلهم ، أتذوق ، باعجاب وفخر وشكر ، ايقاع المواطنين وتلحينهم ، اذا أحسنوا ! . . .

فعلينا ان نتذوق كل جمال رائع ، وان نتفهم كل حكمة صادقة ، وأن نحترم كل عامل مخلص ، في أي مكان كان المصدر ، والى أية أمة انتسبوا ! فالحكمة ضالة المؤمن ، أينما وجدها التقطها ، ولا عداء في العلم ! ولكن ألا يحق لنا ، مع ذلك ، بل ألا يجب علينا ، ان يكون لكل جمال او حكمة او عمل ، يتصف بتلك الصفات ، ويصدر عن المواطنين ، من أبناء أمتنا ، ايا كان دينهم ومذهبهم الاجتماعي ، او السياسي ، او البلد الذي ينتسبون اليه ، تذوق خاص ، في نفوسنا ، وهزة متميزة ، في قلوبنا ؟! . إننا بتذوقنا لما في نفوس أبناء أمتنا ، وبتقديرنا لما ينتج مواطننا ، نحيا نحن ! . . . واننا بتذوقنا لما في نفوس الآخرين ، وبحصر تقديرنا بانتاج الاغيار ، وحسب ، نستسلم لهم ، فيحيون فينا ، وبنا ! . . . فلا غرابة اذا حرصوا على ابقائنا لقمة سائغة ، يلتهمونها متى شاؤا ! . . .

والفرق عظيم بين أمة تحيا في نفسها ، بنفسها . وبين أمة يحيا فيها ، وبها ، الآخرون ! . . .

ولا يعني ، قولنا هـذا ، أننا ندعو لتقدير أي إنتـاج وطني ، وكيفما اتفق تحققه ! فاننا نقـــع ، عندئذ ، في غرور ، أشد خطراً من الغرور التاريخي ، وأشد فتكا منه ، وهو الغرور الوطني . ونحن نحذر المواطنين منه ، لأنه يؤدي حتما لقلب الأوضاع ، ويفسد الاذواق ، حين نحاول ان نرى القبيح حسنا ، والشر خـــيرا ، والباطل حقا . فنصطنع التطبيل والتزمير ، ونطمئن للادعاء والتزييف ، باسم التشجيع حينا ، وباسم تبادل المنفعة حينا آخر . فيكثر التدجيل ، ويتأكل النفوس التحاسد !

اننا نريد تذوقا ، يرفع المستوى ، في المعيشة ، وفي الانتاج والابداع . ونرفض كل تزييف ، في التذوق او التشجيع والتقدير ، ينزل بناعن المستوى اللائق بالحضارة الانسانية ، والكرامة الوطنية ، وثقافة الفرد .

اننا ندعو ليقظة واعية ! ... وان يقظة تؤدي الى ما مر ، من انطواء أو غرور أو تحاسد ، او افساد للاذواق ، او قلب للاوضاع الطبيعية في الاشياء والاعمال والانتاج ، ان هي إلا يقظة بلهاء ، نعيذ أبناء العروبة ، والشباب منهم خاصة ، ولا سيما المثقفين ، من ويلاتها ! انها تشبه تلك التي يساور فيها المستيقظ ، وهـــو لا يزال في فراشه ، أحلام واحلام ، قد تدفعه للعودة الى سباته ، دون ان يعي لواقعه .

ونحن انما نريد لبلادنا العربية يقظة واعية ، نترك معهـــا الفراش ، ودفأه ، لنتصل بصميم الواقع ، على أي درجة كانت حرارة جوه . فلنتحسس حقائق الحياة ، أيا كانت الجهود والتضحيات التي نتعرض لها ! وبذلك ، وحسب ، نستطيـــع القيام بنهضة صحيحة مباركة ، كانت ، ولا تزال ، العنصر الفعال في تقدم الامم ورقيها ! من النهضة تنبثق القوة ؛ والقوة هي الباعثة على كل تقدم ورقي ، والشرط الاساسي في كل تطور

ولكن لن يتحقق فينا ، بعد اليوم ، قوله : « وكلنا لصروف الدهر نساء »! نعم ، لن ننسى صروف الدهر ، وماجرته علينا من ويلات ، لتفككنا وتقاعسنا ، ولاستسلامنا للدعة والترف .. . نعم ، لن ننسى ، ويجب أن لا ننسى ! . . . وكيف يجوز لنا النسيان ، ونحن نعرف ، بالتجربة والاختبار ، وبالدرس والتعلم ، ان الحياة ترقب أعمالنا وتصرفاتنا ، فتثيب من يحسن ، وتعاقب من يسيء ، متساهلا بحقوقه ، مستهترا بنواميس الحياة وسننها .

قلت ، وأعيد ، ان الحياة لا تخضع إلا لمن يخضع لنواميسها . ولنعلم ، متأكدين ، انها جد قاسية على من يجهل كنهها ، ويسير في ظلام الجهل ، وفي ضلال الطريق الملتوية المعوجة ؛ وهي أشد قسوة على من يهزأ بها ، ويتجاهل نواميسها ! هي سلم للمتيقظ ، وحرب عوان على من ينام ، متلهيا باحلامه ! . . .

هي الأيام ! ان جمحت ، عنادا ، أذلت كل جبار عنيد !
ننام ، ومقلة الاحداث يقظى ، ولوع الطيف بالركب الهجود ! . . .

نعم ، ان احداث الأيام يقظي ، وهي ، ان جمحت ، عنيدة قاسية ! فلنحذر ! . . . ولتكن يقظتنا واعية ! . . . وأعاذنا الله ، جلت قدرته ، من اليقظة البلهاء ! . . .

٤ — صلة الشباب والاجيال

الاستقلال عظيم رائع ! وهو المثل الأعلى للحيوية الانسانية الصافية ، في أوج سموها ! ولكنه ، كالزئبق رجراج مضطرب ؛ يفلت من أيدي الأفراد ، اذا حاولت امساكه بها ؛ ويحفظ ، بسهولة ، اذا وضع في خزائن ، محكمة التركيب والاقفال . وما الخزائن ، بالنسبة الى الاستقلال ، سوى الامـــة ، بتكتلها وتضامن أفرادها ، عن وعي صحيح ، وادراك تام ، لماضيها وحاضرها ، وللخطط التي تقتضيها حياتها ، في المستقبل ، الذي تضع تصاميمه ، وتهيء له عدته !

فـالاستقلال لا يحتكر ، ولا تحتكر مبادىء الحرية والتضحيـــة والاخلاص ، التي يستلزمها . لانها مثله ، رجراجه مضطربة ، تفلت في أيدي الافراد ، ولا تستقر الا في قلوب ، ترتبط بالمجتمع ، وفي قلوب الشباب خاصة ، لأنه هو المستقبل ! ...

الشباب لا يحيا وحده ، منعزلا عـن كل هيئة أخـرى ، فهو يحيا ، واقعيا ، مع جيل سبقه ، من مواطنيه ، ومن غير مواطنيه ؛ ونظريا مع أجيال أسبق مـن هؤلاء وهؤلاء ؛ كما يحيا ، واقعيا أو نظريا ، مع جيل يعاصر جيله ، من الاغراب عن وطنه .

فكل شاب على اتصال تام بجيله ، وبجيل سابق ؛ وكلما ازدادت ثقافته ، ونمي استعداده ، واتسع اطلاعـــه ، يصبح أكثر صلة باجيال متباعدة ، في القدم ، وفي المكان ، من مواطنين وأجانب . وعلى قوة تفاعله ، مع هذه الاجيال ، يتوقف ، واقعيا ، تحقيق كيانه الاجتماعي ، وتحقيق كيان أمته .

لها ضلع في تكوينه ؛ وانمـــا هو يصدر عن ما هو أصدق من الفكر ، وألطف من الشعور ، وأقوى من الارادة ، وأوسع مجالا منها ، جميعها!... انه يصدر عن الحياة، الحياة الانسانية، بمعناها الصحيح الأوسع ! ... تلك الحياة ، تتجاوز ، في سيرها وسلطانها ، حدود الفكر والشعور والارادة!..

ويعجبني ، هنا ، قول احد المفكرين ، اذ يقول : « لا يمكن للفكر أن يدرك كل ما تحويه الحياة ؛ فوجب أن يتفتح الذهن لكل جديـــد تمنحنا اياه الحياة ، والتجربة ».

نعم ، نريد لشبابنا أن يتفتح ذهنه لكل جـديد ، تمنحنا اياه الحياة والتجربة ، لينطلق في ميادين العمل ، انطلاقا حرا ، يرشده العقل ، عقل الحياة الطليقة ، ويقويه الاخلاص ، وتسدد خطاه الحكمة .

في مثل هذا الجو ، يحقق الشباب كيانه ، ويثبت وجوده ، ويحسن اختيار من يجب أن يتعاون معهم من جيل سابق ، واقعيا ، ومن الاجيال السابقة ، روحيا وفكريا . وهكذا يتصل بمـن يستطيع الاعتماد عليهم ، في تحرره . وبهذا الاتصال الوثيق ، الحر ، تتحقق ، في كيانه ، معاني العظمه في الامم ! والامر الذي نود هنا تأكيده ، هو هذا : من الخطأ الكبير أن يعتقد الشباب أنه يستطيع الاستغناء عن الاجيال السابقة ، من امته ! فنهضته منوطة بالمقدار الذي يوثق فيه هذه الصلة . وبحسن توفيقه في اختيار من ينقاد اليهم في تحرره وتنظيم حركاته . فليستمد الحكمة ، في ذلك ، من النور الذي تقذفـــه الحياة ، في قلبه ! ... فالتضامن الصحيح بين الراشدين ، في الجيل السابق ، وبـين الشباب في الجيل الطالع ، شرط أساسي في النهضة الصادقة . والا تذر الفوضى قرونها ، وتعكس النتائج .

وأخوف ما نخاف منه على الشباب الانخداع . وأشد . من هذا ، ما نخشاه عليه من الغرور ، سواء أكان غروراً بالنفس ، أم بمآتي السلف في التاريخ . ولله در شوقي القائل :

ودعوا التفاخر بالتراث ، وان غلا !
فالمجد كسب ، والزمان عصام !
ان الغرور ، اذا تملك امـــة ،
كالزهر، يخفي الموت ، وهو زؤام !

فحذار ! حذار ! ... من الانخداع ! ...
وحذار ! حذار ! ... من الغرور ! ...

فعلى الراشدين حسن تنظيم الشباب وتوجيهه، بنصح واخلاص وتضحية !

وعلى الشباب حسن الثقة بمن يختارهم للقيادة ! وعليهم حسن الاختبار، والانقياد ، مع التحرر ! ... فكيف يتم هذا التنظيم ومن يقوم به ؟ ...

قد آن لنا، الآن، أن نحاول بيان حقيقة الشباب، وتوضيح مشاكله ؛ لنستطيع ، على ضوء ذلك ، أن نرشده لتربية نفسه ، وان نساعـده على التفكير بكيانه وبمستقبله . فيزداد ما مر وضوحا ، وتتجلى وسائل القيام بتنظيم صحيح ، تحفظ معها الصلات ، بين الأجيال ، دون أن تكون مانعة من التفتح والانطلاق والتحرر ، ومن السير ، قدما ، الى الامام ، لتأدية رسالة الحياة ! ..

فمـــا هو الشباب ؟ وما هي مشاكله ؟ ...

الفصل الثالث

الشباب في حقيقته

ماهية الشباب ـــــ مشاكل الشباب

خلاصة ما تقدم

في تقدم مظاهر المدنية، وفي تأخر الحضارة، في قيمها، اشتد تأزم أزمتي الحياة والمعيشة ، وأصبح لزاماً على الشرق والغرب ان يتعاونا ؛ ووجب على الشرق العربي ، بصورة خاصة ، ان يفكر برسالته في الحياة ، وان يقوم بتحقيقها ، في نفسه ، وبنشرها : وهذا منوط بتنشئة الشباب اولا .

فالشباب وهو الدم الذي تتجدد به حياة الامة، وتقوى، يؤثر، تأثيراً قوياً، في سيرها وفي تقدمها . ونحن إذا كنا نخشى عليه مما يحيط به ، فان خوفنا على الشباب، من الشباب نفسه، اشد واقوى: فلا بد إذن من يقظة واعية تحفظه وتحميه من الانخداع . المستقبل للشباب ، ونهضته تؤسس على صلته بالاجيال ، وعلى درجة يقظته الواعية يتوقف حسن الاتصال بمن تقدمه، وبمن يعاصره . وبهذه اليقظة يحقق نهضة صحيحة تضمن له المستقبل الذي يرنو اليه . ولكن طريق الوصول ليست معبدة . فلا بد من سعي وعمل متواصلين ، والعقبات والصعوبات كثيرة ، فلا بد من تذليلها ، والمشاكل عديدة ، ولا بد من حلها .

فكيف تحل هذه المشاكل ، وكيف تذلل تلك الصعوبات ، وتزال العثرات ؟ .. على الشباب أن يقوم هو بهذه الاعمال ! فلا بد إذن من ان يربى تربية خاصة ، تعتمد على ادراك تكوينه ، جسمياً ونفسيا ، فيجب ان نحاول إدراكه إدراكا صحيحاً ، ما امكن ، قبل كل شيء : فما هو الشباب ؟ ... وما هي مشاكله ؟

١ ـ ماهية الشباب

لايزال البحث العلمي، في ماهية الشباب، محاولات، لان علوم الحياة، ومنها علم نفس الطفل وعلم نفس الشاب ، حديثة عهـــد في دائرة اهتمام العلماء . وعلم نفس الشباب احدثها عهداً .

فكأني بالانسان ، وقـــد شغلته الطبيعة ، وهو لا يحلم إلا بالسيطرة عليها ، عن نفسه . فما زال ، منذ فجر تاريخه ، بل منذ وجد على سطح الارض، يتطلع الى ما حوله، ويعمل باحثاً منقبا : يتعرف بالجماد والنبات والحيوان، لا للذة المعرفة، وحسب، بل ليتمكن من السيطرة ، على هذه الكائنات، ومن استثمارها، لمصلحته وفوائده. منها يتغذى، ومنها يكتسي، ومنها يبني المسكن ليبيت ويحتمي من اعدائه ، في الليل . وما زال يوالي البحث ، حتى وفق لاكتشاف الكثير من النواميس الطبيعية التي تسيطر على وجود هذه الاشياء ، وعلى نمو ماهو قابل للنمو منها. فاتخذ النواميس وسيلة ، لتثبيت سيطرته ، فأصبح سيد الكائنات . ولكن هذه الكائنات مادة ، وهو يسيطر عليها بقوة نفسه وروحه . ولا بد للمسيطر عليه من ان ينتقم ! فكيف تنتقم ؟ استمرت سيطرته بارزة، لا يعارضها معارض، حتى كان عصر الآلة . وقد سيطر عليها ايضاً ، ما دامت حركتها منوطة بقوته، اي مادام هو المحرك لها، مباشرة. ولكن مظاهر المادة قدتطورت، واصبحت تتحرك بالمادة مباشرة، بفضل البخار والكهرباء . عندئذ بدأت المادة تنتقم ، إذ عملت على تحويل الانسان لآلة. فأخذ يخسر من انسانيته بقدر تعلقه بآلته، وبانتاجها. هنا، بدأت الحضارة تتأخر، ومظاهر المدنية تتقدم، حتى شعر بأن سيطرته على المادة يكاد يفلت من يده ، فانتبه لنفسه، ووجد أنه سيطر على كل شيء ، إلا عليها ، وأنه في عدم امتلاكه لزمامها يخسر

التحكم في استثمار العالم واستغلاله ؛ فالمادة ، وقد اصبحت آلة مدمرة ، يستخدمها في مقاتلة اخيه الانسان ، ستفتك بالانسانية فتكا ماديا ، بعد ان بدأت تفتك به فتكاً معنويا ، بتهديم القوى النفسية والروحية (١) ، عناصر تكوّن حقيقة انسانية الانسان ، إذ بها يتميز عن سائر الكائنات ، وبها يسيطر ويسود !..

عندئذ انتقل الى دور جديد ، لم يمض عليه قرن بعد ، سمي بعصر وعي الانسان لذاته ، اي شعوره بكيانه النفسي والروحي . حاول تفهم تلك الذات ، فكانت علوم الحياة ، ومنها علوم النفس . وهذه العلوم ، على اختلافها وتعددها ، لا تزال في دور التكامل ، لا يصل العلماء الى افق من آفاقها ، حتى تظهر لهم آفـــاق جديدة ، اكثر بعداً واشد غموضاً وتعقداً .

ولعل ما وصل اليه من معرفة نفسه ، ومن محاولاته السيطرة عليها ، اخاف المادة الحرساء ، فخشيت ان ينقذ نفسه من براثنها ، ومن استعبادها له ، فتفطرت عن قوة اشد فتكا ، ألا وهي قوة الذرة ؛ ومن احدث آفاتها القنبلة الذرية ، التي ما زال الانسان ، في ارتباك وحيرة ، في امر السيطرة عليها .

---

(١) نرى لزاماً علينا ان نذكر هنا اننا نفرق بين القوى الروحية وبين القوى الروحانية : فالاولى تعني ، في نظرنا ، قوى الروح أو النفس فيما يتصل بهذا العالم الارضي وبشؤونه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والسلوكية . . . وبالمذاهب الفلسفية والعلمية والنزعات الادبية ، وغيرها مما يتعلق بقوى الفكر والشعور والارادة . . . والثانية انما هي ، على ما نرى ، تلك القوى ، ذاتها ، حينما تتصل بعوالم الغيب والسماء . وليست هذه من مواضيع مباحث هذا الكتاب .

فكان ان ضاعف جهوده في اكتشاف ما في نفسه من قوى، ليصل الى قوى خفية في نفسه، هو يعلم، علماً سابقا، انها تلاشي بفعلها كل ماتلوّح المادة به من وسائل التدمير والافناء ؛ فبهذه القوى تكتمل انسانيته، فلا يعود للحروب معنى، ويستقر السلام . وأي مفعول يبقى للمادة، ولقنبلتها الذرية ، إذا تحققت القيم الانسانية ، واستقر السلام ؟

الانسان اليوم في إبان دور وعيه . كان في الزمن الـــذي سبق هـذا ، اي في دور الصباء والولودية ، مشغولا بما حوله ، فأصبح اليوم مشغولا بنفسه ، يقوم على دراسة الحيـــاة فيها ، وعلى فهم اسرارها ونواميسها ، ليتسنى له السيطرة عليها . وبذلك يثبت سيطرته على العالم ، مادة وروحاً . لايسيطر الانسان إلا على ما يدرك كنهه، متفهما النواميس التي تسيره . لذلك قيل : « العالم لمن يراه » . ولا يملك نفسه من لا يرى ذاته بذاته .

فالدراسات التي يقوم بها علماء النفس، اليوم، انما هي دراسات تهدف الى انقاذ الحضارة، والانسانية من ازمتي الحياة والمعيشة. لذلك يعتقد العلماء ان علم النفس ، هو العلم الجدير بأن يساعد على وضع الخطط والتصاميم ، لانقاذ الحضارة من الزوال ، او التـــأخر والانحطاط . النفس ، هي مركز القيم ، فيجب ان نراها بعين البصيرة . ومتى رأيناها امتلكناها ، وبامتلاكها نحتفظ بالقيم ، اي بانسانيتنا . وانسانيتنا هي ملجأ الحضارة ، وحصنها الحصين .

رب قائل يقول : ولكن علم النفس قديم ! وقد بحث الانسان عن النفس منذ بدأ فلسفته ! هذا صحيح ، ولكن البحث كان حدسياً نظريا ، يعتمد على التأمل الذاتي ، وبعض التأملات في اعمال الغير . وقد انحصر

في دائرة ظواهر الملكات ، وهي دائرة ضيقة جداً . ولم يكن هناك اي بحث علمي . هذا عدا ان علم النفس الذي عرف ، قبل دور الوعي ، وفي اوائله ، هو علم نفس الرجل، وضمن تلك الدائرة . اما الآن فقد اصبحت الدراسة علميـــة تعتمد على التجربة والاختبار ، وعلى البحث العلمي والاستقراء والتجربة ، ويتناول ادوار الحياة جميعها .

ما زال العلمـاء يعتقدون ان الولد مختصر الرجل ، حتى رفع روسو صوته قائلا : الولد غير الرجل . وفي اواخر القرن التاسع عشر ادرك العلماء صحة نظرية روسو ، وبدأوا يدرسون نفسية الولد ، فوجدوا أن الفرق شاسعاً ، في تكوينه النفسي ، بينه وبين الرجل . وأدى البحث الى ان الولد صيرورة، اي انسان فيه الاستعدادات الكافية ليصير، يوما، رجلا . اما في دور الولودة ، فانه ليس برجل ، ولا بمختصره . وهكذا وُجد علم نفس الولد ، وانقلبت نظريات التربية، رأساً على عقب، وأسف الانسان لقرون مرت ، اهمل فيها نفسه ، واهتم بما حوله، وحسب ، فكاد يخسر ذاته. وها هو صوت سبنسر، لا تزال نسمعه، وهو يقول لمواطنيه، في انكلترا، ما معناه: « انكم تهتمون بخيولكم اكثر مما تهتمون بأبنائكم ! » وهو يخشى بذلك تأخر مواطنيه .

العلم يثبت ، اليوم ، ان الشاب ليس غير الرجل وحسب ، بل هو غير الولد ايضا . ليس الشاب رجلا صغيراً ، ولا ولداً كبيراً .

إذا كان الشاب غير الرجل ، وإذا كان غير الولد ، فما هو ، في سلم النمو ، في الحياة الانسانية ؟

قلنا ان الولد صيرورة ، اي انه كائن انساني فيه الاستعداد ليصير

رجلا ، يوماً ما . وتكوّن الرجولة فيه لا يتم في هذا الدور ، وانما يتم في دور الشباب . فالشباب هو الدور الذي تتكون فيه رجولة الرجال ، كما تتكون فيه انوثة النساء . فهو إذن دور الامكانات ، في تكوين المرأة والرجل . فلا يكتمل هـذا التكوين قبله ، ولا في اثنائه ، ولكن في اواخره . ومتى اكتمل ، ينتهي دور الشباب ويبـدأ دور الانوثة او الرجولة ، اي دور الرشد ، علمياً وشكليا . واقصد بقولي علميـاً ، اي طوعاً للتحديد العلمي ، وشكليا ، اي بحسب ظواهر الشكل الجسماني . وإلا فالشباب قد يستمر ، بمعناه ، الى ابعد من ذلك ، حتى انه قد يتصل بالشيخوخة ، ويظل له اثر ، في هذه المرحلة ، على ما سيأتي .

واكتمال تكون الرجولة في هـذا الدور ليس ضرورة حيوية ، اي بالنظر للحياة ونواميسها الخفية ، التي قد تتجاوز حدود العلم ، على ما سبق وبيناه ، عندما قلنا مع ذلك المفكر « انه يجب ان يكون الذهن متفتحاً لكل جديد تمنحنا إياه الحياة والتجربة . » لان الفكر لا يستطيع ان يدرك كل ما تحويه الحياة ! فان دائرة الحياة اوسع من دائرة العلم . ولو فرض واتسعت دائرة العلم الى القدر الذي عليه دائرة الحياة ، وهي لا نهائية الاتساع والامتداد ، يكمل العلم ، ويجمد العلماء . وعندئذ يخشى عليهم وعليه من الزوال ، ما دام البحث لم يعد صالحاً لاستخراج معرفة جديدة .

قلت : ليس من الضروري ، حيويا ، ان يتم تكون الرجولة في هذا الدور . وفي حالة عدم تكون الرجولة ، او الانوثة ، فيه ، يظل الانسان ولداً ، كل حياته ، وان احتفظ برعونة الشباب . والاحتفاظ بهذه الرعونة يعود بالانسان القهقرى ، الى دور الطفولة ، فيصبح رجـلاً طفلا ، اي رجلا ، هو بحكم الطفل ، بتفكيره وشعوره وإرادته . وما اكثر الرجال

الاطفال ! . . . ولعل الشاعر انما عنى هؤلاء بقوله :

لا يخدعنك ما في القوم من كبر ! جسم البغال ، واحلام العصافير !..

وما ذلك إلا لان تلك الامكانات لم تتحقق ، وهنا منشأ الاخطار في هذا الدور . لهذا السبب اخذ العلماء يهتمون به ، بصورة خاصة ، ماداموا يعملون لرفع مستوى الانسانية. فالواجب يقضي بان نجد الوسائل لتحقيق هذه الامكانات . وإلا ، فما الفائدة من وجود الرجال الاطفال ؟.. وأي خطر لا تتعرض له الامة ، إذا كثر امثال هؤلاء ، بين ابنائها ؟ . .

وكيف بك، إذا تمكن هؤلاء من قيادة الشعوب ، لفقد الرجال، او لقلتهم؟.. انهم لا يستطيعون التغلب على غيرهم من الاطفال، لاسيما إذا كان النظام برلمانيـــاً يعتمد على الاصوات في الانتخاب ، فيتساوى الرجال بالاطفال ، او الاطفال بالرجال ! . . . فما اصح قول ذلك الخطيب الذي صرخ في الناس قائلا : يا اشباه الرجال ، - ؟ . . . ولستم برجال ! . . . نعم ، قد يشبه الانسان الرجل ، ولا يكونه ! . . . وها هو العلم يؤيد ذلك . فليست القضية خيال اديب ، او تعبير خطيب ! وانما هي حقيقة علميـــة ، سأحاول زيادة توضيحها . فترجو ان نسير معاً في تفهم الحالة الآتية :

كثيراً ما يدهش الآباء ، وجميع الناس ، لتلك المفاجآت المحيرة ، التي تقع عند دور البلوغ : بينما يكون الولد هادئا ، وعلى شيء من الرصانـة والنضج ، في التفكير والشعور والارادة - وهو نضج كثيراً ما يذكر بنضج الرجال الكبار ، ويظهر عادة ، بين الثامنة والثالثة عشرة - فاذا نحن نفاجأ بهذا الولد ، الناضج نوعا ، وقد اختل توازن الحياة فيه، واصبح طفلاً صغيراً من جديد ، ولكن من نوع آخر .

تستمع الى ام هـــذا الفتى ، والى ابيه او ذويه ، فتسمع العبارات الآتية، او ما يقرب منها : انه لم يعد يحتمل !.. كان مطيعاً كالغنمة، فاذا هو، اليوم ، يتمرد كالوحش الكاسر !.. كان كثير الانتباه والدقة ، فاذا هو، اليوم، كثير الاضطراب ، يستسلم، احياناً، للذهول !.. كان متزناً، في تفكيره واعماله ! فما باله قد استولى عليه الطيش ، كالاطفال ؟ يناقض نفسه، في اقواله وفي اعماله، فلا يستقر على رأي ، ولا يستمر على عمل !.. كأني به خلق خلقاً جديداً . . . !

نعم ، انه خلق خلقاً جديداً ! .. وان شئت فقل : ولد ولادة ثانية ، ستعقبها ولادة ثالثة ، بعد هذا الدور القبيح الخطر ، دور التناقض ، دور الاضطراب . دور الطيش والذهول !.. اي دور البلوغ !..

مسكين الشاب الذي لا يجد ولياً يرحمه !.. فمن يسدد خطاه، بارشاده، بحكمة ولين وحزم ، في هذا الدور الخطر ، إذا فقد ، في وليه ، او في مربيه ، ما تستلزمه حالته هذه من رحمة وادراك ، وبعد نظر ؟ . .

فالشاب هنا عند مفترق الطرق ! . . . فاما ان يفسح له مجال التفتح والانطلاق، تفكيراً وشعوراً ونزوعا ، ضمن نظام علمي رحب، فتتكون الرجولة، فيه، تكوناً صحيحاً، يتناسب مع استعداداته الفطرية. واما ان يكبت ما يبرز من قواه النفسية، بالضغط والشدة. او أن يترك له الحبل على الغارب ، عن طريق التدليل والتدليع . فتنطوي نفسه، عندئذ، على احوال دور الصباء او الولودة ، دون ان تنتقل الى دور الرجولة المتزنة، لانكبات ما برز ، في نفسه ، من ميول وقوى وحيوية ونشاط ، وهي الصفات الجديرة بأن تجعل منه رجـــلاً حقا . وهكذا تتكون رجولة الاولاد ، مع جمود واسترخـــاء ، او مع تخنث وفساد ، حسب وضع

الاولياء والمربين . وكثيراً ما نشاهد من امثال هؤلاء الرجال الاولاد ، على ما مر . ويلاحظ ان الاولاد في نضجهم ، اي في الدور الاخير من الولودة ، يميلون كثيراً إلى معاشرة امثال هؤلاء الرجال ، وذلك بحكم التجانس طبعا . فتراهم يقتربون من الرجل البسيط الساذج الذي لم يخرج عن دور الولودة ، في حياته ، ويتحببون اليه .

فهذا الشباب ، الذي هو وسط بين الولودة والرجولة ، جدير بالعناية والدرس ! .. فمتى يبدأ ؟ ومتى ينتهي ؟

لا بد هنا من التنبيه الى مظهرين للشباب : شباب الجسم ، وشباب النفس او الروح . وهذان المظهران يجتمعان في زمن ، ويفترقان في زمن آخر ، على اختلاف في تفهم حقيقة الشباب ، عند علماء النفس ، وعند علماء الحياة .

فعلم الحياة يرى الشباب ، في اي كائن عضوي ، يمتد من الولادة الى اكتمال النمو الجسدي . او بتعبير آخر : يراه يمتد ما دام التمثيل يتفوق على الافراز ، في التغذية . وهذا طبيعي ، ما دام مفهوم الشباب ملازماً للنمو الجسماني ، وهـــذا النمو يبدأ حتما ، وحسب ظواهر الحياة ، مع الولادة . وادواره ، عند علماء الحيـــاة ، ثلاثة : دور الطفولة ، دور البلوغ ، دور الفتاء . فالشاب اول ما يكون طفلا ، ثم مراهقـــا ، ثم فتى .

اما علماء النفس ، فيرون الشباب يبدأ مع الولادة الثانية . وقد ألمعنا اليها ، وهو البلوغ ، اي الزمن الذي تبرز فيه مظاهر جديدة من الميول ، الجنسية وغيرها ، من قوى الحيوية والنشاط . والتبدل في مظاهر الحياة ، في هذا الدور ، امر يشاهده الجميع ، حتى انهم كثيراً ما ينتظرونه لينقذ

الولد من بعض الامراض. وهناك امراض، قد يعلن الطبيب انها ستستمر الى البلوغ ، فتظهر بوادر الشفاء بالطبيعة ، اي بتطور داخـــلي ، يطرأ على حيوية الانسان . وقد اختلف هؤلاء العلماء في زمن بدء الشباب، بين الثانية عشرة والثامنة عشرة. كما اختلفوا في نهايته، بين الرابعة والعشرين والثلاثين : والظاهر ان هذا يتعلق ببيئة الفرد ، وبجنسه ونظام حياته ، وبمحيطه الطبيعي . فانها كلها تؤثر في تعيين مبدأه ومنتهاه . ومهما يكن من امر هـــذا الخلاف ، فاننا نعرف شباب النفس بصفاته الخاصة به ، والمميزة له ، وابرزها التناقض والنزاع .

فالشاب كائن متناقض : فيه كثير من الكبر والغطرسة، وكثير من السماحة والتواضع . وعلى الرغم من سيطرة غريزة الاستقلال الذاتي عليه، تراه في بعض حالاته مستسلماً خانعا، ينقاد بسهولة، ويطيع دون تفكير . وإذا ظهر تفكيره مرتبكا مشوها ، فانك كثيراً ما تجد فيه بريقاً من التفكير الصافي ، قد يبلغ ، في الدقة والاتزان ، درجة تدهش الملاحظين لاطوار الشباب. ومع شجاعة الشاب، واقدامه، وقد يبلغ درجة المغامرة، تراه في بعض الحالات جباناً خائر العزيمة . ولا تكاد تسر من نشاطه، في عمله ، حتى يسوءك بتغلب الكسل والتقاعس عليه . وبينما يتراءى لك نجيباً ، يرتفع الى اسمى الاهداف والمثل، والى افضل القيم ، إذا هو ينزل إلى درك اردأ الحماقات والسخف، واسوإها. فهو مجموعة من الخير والشر. وهذا ما يدهش الآباء ، ويؤلمهم ، وكثيراً ما يلقي بهم في احضان اليأس والقنوط . ولكن ، قليلاً من التفكير ، ومن الملاحظة والاختبار، يعيد الى النفس الطمأنينة ، والامل .

لا أدعو هؤلاء الاولياء المتألمين الي تذكر احوالهم ، في هذا الدور ،

فقد يكون ذلك متعذراً ، على اكثرهم ! وقد يجيب احدهم قائلا : نريد لابنائنا احوالا خيراً من التي كنا عليها. وإذا كنا لم نوفق بمن يحسن تربيتنا، فاننا نريد ان نحسن تربية ابنائنا ! . . وقد نجاب ايضاً بأن آباءنا شددوا علينا آنئذ وأصلحونا ، ونحن لاعمالهم مقتدون . قد تكثر الاجوبة وتتنوع ، ولكن يندر ان نجد فيها ما يدل على ادراك طبيعة الشباب . ولذلك نرى من يفضل الشدة والكبت ، أو من يذهب مذهب التدليل والدلع . وكلا المذهبين يضر بالنشء ، وبصحة نموه وتكونه .

قلت : لا ادعو هؤلاء الاولياء الى تذكر احوالهم ، في ذلك الدور ! فأنا ادعوهم لملاحظة انفسهم الآن ، لا سيما إذا كانوا ممن تحققت فيهم الرجولة، على ما يدعون. ألا يجدون التناقض، في نفوسهم، الى يومهم هذا ؟ انهم يجدونه ، لاسيما إذا كانت رجولتهم في تكاملها . إذ المعروف، علمياً ، ان اكثر الرجال انسانية ، هم اكثرهم تناقضا ! . .

والفرق بين التناقض، في الشباب، وبينه، في الرجولة، انه في الرجال مركز متوازن . فالرجل الرجل ، إذا كان كريماً بماله ، فهو جد بخيل بكرامته . وإذا ثار على من يتعرض لاستقلاله وتمرد ، اياً كان هذا الانسان ، فانك تراه يخضع لابنه الصغير ، مثلا ، ولا يجرأ على ان يخالف له امراً ؛ وإذا عجز عن تلبية رغباته تألم . والشجاع الذي يضحي بحياته في سبيل مثله العليا ووطنه ، تراه جباناً عن القيام بأي عمل يسيء الى سمعته ، او يمس كرامته . . . الخ . فالتناقض واقعي الوجود في الرجال ، ولكنه ، على ما ابنّا ، مركز متوازن ، اي يعتمد على حكمة وضع الشيء في محله .

اما عند الشباب، فهذا التناقض مضطرب ، لا توازن فيه ؛ وظواهره

موقتة، ليس لها استمرار ولا استقرار. وان الشباب ليدهشك حين ينتقل، بسرعة غريبة، من تطرف الى تطرف معاكس، ومن افراط الى تفريط، لا سيما في الدور الاول من شبابه ، اي في دور البلوغ ، او دور الجنون إذا شئت ، أي جنون الشباب . وارى ان يطلق على هـذا الدور اسم دور الفتاء ، تمييزاً له عن الدور الثاني من الشباب ، حين يبـــدأ الشاب بالتقرب من الاتزان والتركيز ! وهما صفتان لا اثر لهما في دور الفتاء مطلقا .

ففي هذا الدور يسيطر على الفتى خيال حاد، وانفعال شديد، وتحمس مفرط . لذلك تراه في نزاع دائم مع من يحيط به . انه يريد ان يكيف محيطه حسب ميوله ونزوعه وتصرفاته ، ويأبى المحيط إلا ان يجتذبه اليه ، ويكيفه حسب تقاليده، وحسب ما اختار من انواع السلوك، وشتى العقائد، ومختلف الآراء والاوضاع . فهذا النزاع من ابرز المظاهر المميزة للشباب، ولا سيما في دوره الاول ، اي في دور الفتاء ، على حد قول الشاعر :

قد غدا الشيب، في المفارق، شاعا ! واكتسى الرأس من بياض قناعا !
ثم ولى الشباب ، إلا قليـــلا ! ثم يأبى القليل ، إلا النزاعا !

فشاعرنا هذا يعرفك الشباب بالنزاع ، ويستدل، بوجوده، على وجود بقية من الشباب ، على الرغم من مظاهر الشيخوخة . والحقيقة ان الفرق بين الشباب والشيخوخة يتلخص في ان الشباب ينازع ، لأنـــه مفعم بالآمال ، يتفاعل مع محيطه ، محاولا تكييفه حسب ما يتصور من احوال واصلاحات ، يأمل تحقيقها . اما الشيخ ، فقد فقد وثبات الامل ، فهو مستسلم، ينتظر يوم راحته الابدية ! وإذا غذاه امل، فهو امل نعيم الآخرة. فاذا بدرت بادرة نزاع في الشيخ ، مع محيطه ، نستدل بها على وجود شيء

من روح الشباب ، هو شعاع مشرق في نفسه القوية في شيخوخته . ولذلك اجاز بعضهم ان يمتد دور الشباب النفسي الى ما بعد الثلاثين ، حتى الشيخوخة ، فيظل التفاعل يفعل فعله ، ويظل الانسان في تطوره ، الى ان يفارق الحيـــاة ؛ وهؤلاء هم الرجال الافذاذ ، حقا ، وهؤلاء هم الذين يفتخر بالسير وراءهم ، والانضواء تحت لوائهم ، إذا كانوا مخلصين حقاً للمثل العليا ، والقيم الروحية . انهم يصلحون لقيادة الشباب الطالع ، ولارشاده . انهم يصلحون للقيادة في كهولتهم وشيخوختهم ، ولا يجوز للشباب الناهض ان يضيعهم ، بغروره ، او أن يخسر الاستفادة منهم . لان همـة الشباب وما تقتضيه ، من نزوع ونزاع ، لا تزال تنير جوانب قلوبهم اللدنة ، فتملأها بفيض انوار شمس الشباب ، وبروح التجدد فيه . فهنيئاً لامة يكثر فيها امثال هؤلاء ، لانها تجد القادة الصالحين ، لشباب متوثب متحمس ، يريد الصلاح والاصلاح ! .. وبذلك يتسنى للشباب ان يتسلم من الجيل السابق تبعات الحياة ، وإمكانات بناء المستقبل على أسس سليمة متينة ! . . ويحق لنا حينئذ ان نقول : بارك الله في ايد سلمت ، وفي ايد تسلمت ! . .

ولعل هذا هو الذي اراده غوته عندما قال : « يجب ان نعرض على الفتى لوحة رائعة من مشاهد الراشدين ، وهم يمارسون الفضائل . كما يجب ان نضع امام نظر الشيخ لوحـة الشباب ، ليتمكن كل منهما من التمتع بالنظر إلى الدائرة السرمدية . وهكذا ينتهي الانسان وهو في فعاليـــة الحياة ! » .

نعم يجب ان ينتهي الانسان ، وهو في فعالية الحياة ! ويؤيد ذلك ما ورد في الحديث الشريف : « خذ من شبابك لهرمك » .

فالشباب ، بروحه ونشاطه وعزيمته ومرحه ، يرافق الانسان في جميع ادوار الرجولة ، وفي هرمها ايضا ، إذا كانت الروح الانسانية الصحيحة قد تحققت في نفسه ، واكتملت رجولته . الشباب شعلة داخلية لا تطفأ ، مادام للانسان مثل اعلى في حياته ! وآفة الشباب في اليأس والقنوط ! ولا روعة لشباب لا يتطلع دائماً الى الامام ، حيث المستقبل ! فالشباب كله امل ... وهو ، في تحققه ، يكافح عن مثله العليا ، مهما كانت الآلام والاخطار . وإلا فهو شيخوخة في الشباب ، او بالاحرى هو الهرم بعجزه . فالشباب الذي ليس له مثل أعلى يكافح دونه ، هو كائن هرم ، في الحقيقة ؛ لذلك تراه وقد استولى عليه الخمول والجبن والاسترخاء والاستهتار . والشباب الحق تتجلى فيه القوة والبأس والمنعة ؛ ويتحلى من يحمل شعلته المقدسة ، بالمروءة والفعالية والنشاط والنجدة ؛ ومع طراوة العواطف ، نرى في مآتي الشباب إباء وعنفواناً وحماسة . وهو في صميم ذاته يميل الى التفتح والانبساط والانطلاق ؛ ولكن ميوله هذه كثيراً ما تتحول إلى زهو ومباهرة واعجاب ، قد تنقلب الى ضجيج لا معنى له .

وإذا كان الشباب متناقضاً في اتجاهاته وتصرفاته ، انفعالياً بشعوره ؛ ينازع ما يحيط به ، رغبة في تكييفه حسب رغبته ومشيئته . فان الاختبار العلمي قد اثبت ان الشاب يجد ، هو ذاته ، ما في نفسه من هذه الاحوال ، ويشعر انها موقتة ، وان عواطفه غير مكتملة . لذلك نراه ، في كثير من الاوقات ، يهتم اهتماماً صادقاً بأن يكون جديا ، في اقواله وفي اعماله ، ليركز هذا التناقض ، وليخضع انفعاله ، وما اليه من مظاهر ، لمبدأ الاتزان . وإذا كنت تراه يلهو ويلعب أحياناً ، فانه يتخذ في ذلك وضع من يحاول القيام بتمرين ، لا يفكر في العودة اليه .

وفي هذه المحاولات ، تبدر منه كثير من الهفوات ، فيتألم منها الآباء والاهل ، ويعتقدونه قـــد ارتمي في بؤرة الفساد . والفساد في نظرهم ، عادة ، كل ما يخالف مألوفهم وتفكيرهم وشعورهم . على ان الحقيقة هو ان هذا الشاب يتفاعل مع محيطه ، ويهيء نفسه لمستقبل يتبناه ؛ وقـــد يخالف ما عليه اولياؤه في بعض مظاهر الحياة . لذلك لا يجوز أن نعتبر كل ما يخالف مألوفهم ، من اتجاهاته وأعماله ، فساداً .

وهو قد يقع في بعض الهفوات ؛ ولا بد من ان يقع ، وفي الكثير منها . واقتراف الهفوات لا يعني الفساد دائما . فقد يكون من محاولاته في التجربة والتمرين ، للاختبار ، حتى تتحقق الامور في نفسه ، فيركز ما يظهر عليه من التشويش والارتباك ، في تناقضه ، ويوازن انفعالاته . وقد يكون السبب جهله بنتائج الامور . فلا مندوحة لنا من ان ننيره بتوضيح حقائق الاعمال ونتائجها .

ان الفساد لا يتحقق في نفس الشاب إلا إذا انصرف اليه بكليته ، وأصبح اصراره عليه عناداً ، بعد أن يستنير بحقائق الامور . وإلا فمادام لا يصر على فعله ، بل يفكر في تركه ، شاعراً انها حالات موقتة ، فلا يجوز الصاق تهمة الفساد به . وانما يعبر عن ذلك بالتشويش والارتباك ، بسبب الجهل ، او لعدم حصول القناعة النفسية . فلو فرضنا انه ارتكب هفوة السرقة ، مثلا ، فيجوز ان لا يكون مقتنعا ، في نفسه ، بحق ملكية الغير ، لاسيما إذا كان المسروق منه والده أو والدته . وهـذه هي الحالة الغالبة ، إذ يندر أن يجرأ الشاب على سرقة الغريب عنه ، إلا إذا كان سيء السلوك والتربية منذ طفولته . وقد يكون معتقداً أن ما يملك الوالد

او الوالدة هو له ، وان لا فرق بينه وبينهم . وربما يحجزون المال عنه خوفاً من اسرافه ، فحسب ... ولعله يفعل ذلك عن انفعال ، لحاجته الى المال ، دون اي تفكير في الامر ، او تصميم ، بالمعنى الصحيح .. او لغير ذلك من التعليلات التي تتفق مع سنه . علينا ان نحسن الظن ، وان نحذر التسرع باتهام الشاب بالفساد ، فان هذا التسرع قد يفسده . فالفساد ليس في طبعه ، والهفوات لا تفسر دائماً بالفساد ، وانما هي امكانات ، يخشى ان تتحقق ، اذا لم يحسن المربون توجيه الشباب ، كما نخشى ان يتحقق كثير من الامكانات على الوجه الذي لا نرغب فيه . وهنا مجال واسع للحذر وللحكمة . ويصح ان نتخذ من ما مر دليلاً على صحة رأي احد العلماء المربين ، في قوله : « إذا كان هناك موضوع غير معين ، تصلح لدراسته قاعدة غير معينة ، فهو الشباب . لانه ، ليس في اعماله عمل ، ولا في حالاته ، حالة – سواء اكانت جسمية ام نفسية ، على الاخص – قد اتخذت شكلاً معينا ... انه في سن التعيث والمحاولات » .

لهذا السبب ، يظهر الشاب كثير الذهول والاحلام . يريد ان يعين لمستقبله صورة واضحة ، فلا ينجح . فيحاول تصوير حالته ، لنفسه ، فلا يحصل على صورة واضحة . وكم تذهب ، بالآباء والاولياء ، الظنون في هذه الحالة ، والشاب المسكين بريء ، لانه مهموك بوضع الخطط والتصاميم لمستقبله ، وهو يحاول تفهم ذاته . لذلك تراه ، في هذه الحالة ، اشد حاجة الى مرشد عذير ، منه ، الى مراقب لوام ! .. انه اشد حاجة ، الى الرحمة والحنو ، منه ، الى الشدة والقسوة ! ..

وإذا بدرت منه بوادر تمرد ، فلا تحاول كبتها . ففي هذه البادرة كل الخير . الشاب متمرد بالضرورة ، وقد سبق وبينا مبدأ النزاع في نفسه .

وتمرده هـذا دليل بدء تحقق شخصيته . وبتحقق شخصيته يبدأ في نفسه التفاعل النفسي ، لتركيز متناقضاته ، وللحصول على الاتزان في تصرفاته وانفعالاته . انه الدور الذي يبـــدأ فيه بالشعور بكيانه ، كانسان ، وبذاتيته ، كانسان مستقل . ويصبح بمقدوره أن يقول فعلا : لا ! . . . ومتى قالها ، يجب ان تنفرج اسارير الوجه ، عند الاولياء والمربين . إذ بذلك يتهيأ ليكون رجلا .

اننا نرحب بروح التمرد تبرز في الشباب ! فهي التي تنقله الى الرجولة ، إذا أحسنا استعمالها .

وإذا رحبنا بروح التمرد ، فيجب ان نحذر العناد . والفرق بين التمرد والعناد بعيد المدى . فالتمرد يتحقق في امتناع الانسان عن الموافقة على ما لا يقتنع بصحته ؛ وفي امتناعه عن القيام بأي عمل لا تتحقق لديه فائدته ، وفي امتناعه عن الخضوع لأي انسان لا يحترمه .

واما العناد فهو امتناع الانسان عن ما مر في الاحوال المذكورة ، لا للاسباب ذاتها ، بل لأنه سبق وقال : لا ؛ فهو يقف عندهما ولو ثبت له انه على خطأ . والتمرد ، إذا تحول لعناد ، يصبح خطراً في تكون الرجولة في الشباب ، وهذا ما تجب ملاحظته .

فلا نكبت التمرد ، بل ننميه ونوجهه ، ونحـــذر انقلابه الى عناد . وهنا تتجلى اهمية تربية الفكر والشعور ، وضرورة تبادل الثقة بين الشباب والاولياء والمربين ، لنصل بالشباب الى درجـة القناعة ، في تفهم حقائق الامور والاحوال ؛ وفي ادراك معنى الانسجام بين الذات ، في مثلها ، وبين واقع الحياة وتطوراتها ، في ملابساتها للامكنة والازمان ؛ وفي

تذوق روعة هـذا الانسجام في تقدم حضارة الانسان ورقيها ، على ما سيأتي توضيحه في الفصل القادم : « الشباب في تربيته » .

لعل هـذه الفكرات العامة ، عن ماهية الشباب ، تساعدنا الآن على ان نتصور شيئاً من حقيقة هـذا الدور الغامض ، من ادوار الانسان في نموه . ولعلها صورة توضح لنـــا ، على ما بها من ابهام طبيعي ، توضيحاً نوعيا ، احوال الشباب في تناقضه وانفعاله ، وفي نزاعه وهفواته وتمرده ، وفي محاولاته وتمارينه ، وفي جـــده ولعبه . فتساعدنا مع كل ما مر في الفصول السابقة ، على تصور مشاكله .

فما هي هذه المشاكل ؟ . . .

٢ ـ مشاكل الشباب

مشاكل الشباب كثيرة ، في عددها ، معقدة ، في اشكالها ، عامضة ، في مظاهرها . وهي مشاكل تعرض كل يوم ، وتهز قلوب الشباب ومشاعرهم ، وتؤثر في نفوس الآباء وتحيرهم ، في كل حين .

وأول هذه المشاكل ، وأبرزها ، هي مشكلته في نفسه ، اي مشكلته في تكون ذاته ، وما فيها من تناقض وانفعال ونزوع ونزاع . انه كائن حي يريد أن يتجاوز حـدود ذاته ، فينتقل من الغموض الى الوضوح ، ومن الاضطراب والارتباك ، الى الهـــدوء والطمأنينة ، ومن الصخب والضجيج والطيش ، الى السكون والرصانة . وبكلمة واحدة ، يريد أن يتجاوز دور الطفولة الى دور الرجولة . انه يريد أن يصبح رجلا ! . . . كان هـذا الشاب في طفولته صيرورة . وهو الآن في دور إمكان تحقيق

هذه الصيرورة . انه يسمع صوتا داخليا ، صادراً من اعماق اعماق النفس ، يناديه ، ويدعوه لتحقيق ذاته رجلا ! وإلا فانه يفقد حقيقة انسانيته ، إذا اصبح جسمه كجسم الرجال ، وبقيت نفسه طفلة الى الابد ! . .

انه لن يصبح رجلاً إذا لم يكن نموه خاضعاً لناموس التكامل الكلي ، في نفسه ، اولا ، فتبرز نفسه كلها متكاملة ، دون ان تكبت اية قوة ، من قواه النفسية ، قوة اخرى ؛ ثم في تصوره للاشياء ، فلا يتصورها جزئيا ، فيصبح تذكره لها جزئياً ايضا . وفي كبت بعض القوى ، وفي التذكرات الجزئية ، تنشأ الاوهام ، وتتكون الخرافات والشعوذات وتكثر . وهذه كانت حالة الانسان البدائي ، حين كون من الجزء كلا ، فصدرت عنه الخرافات والشعوذات والاوهام ، فغرق في بحور الاحلام والاماني البعيدة التحقيق ، واصبحت لذته في غيبوبته !.. ومحاولة الصحو في هذه الحالة تثير الآلام النفسية ، وتبعث الحزن والانكماش . فما رأيك في انسان ، لا يلذ له إلا ان يغيب عن ذاته ؟ أتتصور لهذا الكائن الحي اي وجود انساني ، او أي كيان نفسي صحيح ؟ . . .

هكذا تظهر مشكلة الشباب النفسية ، لذاته ، وقد تكون فؤادية ، اي في اللاوعي ، بل هي فؤادية ، جزئياً ، ان لم تكن كليا . لذلك كان اثرها ، في ارتباكه واضطرابه ، اشد واقوى .

انه يريد ان يصبح رجلا !.. ولكنه لن يكونه إلا إذا تكاملت ذاته في بروزها ، وتحررت من اوهام الانسان البدائي ، اي من اوهام التصورات الجزئية ، وما ينتج عنها من احلام كاذبه وأمان خادعة . ولن يتم له ذلك إلا إذا اصبح يميز بين الاحلام والاوهام ، وبين الواقع والحقيقة . يجب ان يتصل بالواقع وبالحقيقة ! .. فمن يساعده على ذلك ؟

اهله وذووه ؟ . . . وهـــل هم اكثر اتصالا منه بالواقع وبالحقيقة ؟ ان يكن ذلك ، سهل الامر عليه ، وأصبح جوه العائلي مساعداً له على اصلاح تصوراته . وإلا ، فالمشكلة تزداد شدة ، وتستحكم ازمتها ، إذ تتخـــذ شكلاً جديداً باتصالها بالمحيط . انها تخرج عن ان تكون مشكلة ذاتية ، وحسب ، وتصبح ذات وجهين : وجه ذاتي داخلي ، حين كان بروزها ذاتياً في النفس ؛ ووجه خارجي ، لا علاقة للذات في تكوينه ، بل هو متكون في الخارج ، ويطفو على ذاتنا ، بتأثيره . فيصبح الشاب المسكين تجاه مشكلتين ، مشكلة في ذاته ، وفي تصوراته الجزئية ، بتأثير ما في نفسه من انفعال وطيش وتسرع ؛ ومشكلته في محيطه ، لأنه محيط غارق في عالم الوهم والخيال ، اي في عالم التصورات الجزئية . وهذه الحالة تشجع المشكلة الذاتية وتغذيها ، فيضطر الشاب ، بذلك ، لأن يتأخر عن ذاته ، عوضاً من ان يتجاوزها ، كما يجب . فتزداد مشكلته في نفسه تعقداً وغموضا ، وتستمر انسانيته ضحية الجهل ، او الجاهلية .

والجهل اقل خطراً على الانسان من الجاهلية . والفرق بينهما ، هو أن الجهل بذاته شيء بسيط ، وهو عدم المعرفـة ؛ والجاهل يعرف عادة جهله ، فلا يمتنع عن ارشاد العلماء .

اما الجاهلي ، فهو الذي ينقاد لانفعاله ويخضع لهواه ؛ وقد يكون متعلماً وذكيا ، ولكن لا صلة بين تصرفاته وبين معرفته ، إلا بمقدار ما تطاوع معرفته انفعاله . يستولي على نفسه الغضب والانفعال ، فإذا غضب أو انفعل ، فلا تسل عما يفعل ! انه قد يرتكب في هذه الحالة جناية القتل ! ولا يذهبن بك الظن الى ان عمله هذا يدخل في باب الشجاعة ؛ فانه لايكاد

يفعل حتى يندم . وهو، في اقدامه الجاهلي هذا ، اجبن من ان يشترك في معركة حربية ، غرضها الدفاع عن الوطن وحماية الذمار . لا يؤثر في نفسه شرف المقصد ، وانما هو الانفعال ونزوات النفس ؛ وكثيراً ما تكون لأسباب تافهة او غير شريفة . ولا يندر أن نجد بيننا القوالين ، من ادباء وعلماء ، من الذين يحسنون القول ، ولكنهم في اعمالهم للهوى والانفعال يخضعون . هم في تصرفاتهم عبيد لنزوات نفوسهم ، مهما حقرت وتفهت . يكلمك في المثل العليا ، حتى يذهلك ، ثم تراه يحارب المثل نفسها لفائدة ، كثيراً ما تكون احقر منه . وهذا ما عناه القول المأثور : اعوذ بالله من عالم اللسان جاهل القلب ! . . .

هذه صورة مصغرة عن جاهليتنا اليوم ، ونحن في عصر العلم والنور ، والثقافة والتحرير ! . . وتصدق هذه على الامم ، كما تصدق على الافراد . ألا نشاهد ، كل يوم ، أعمالا تدل على ان امماً تفتخر بثقافتها العاليـــة ، وحضارتها السامية ، تتصرف مع غيرها تصرف انفعال ، استجابة لمصلحة مادية ، او تلبية لمطامع في التوسع والإستعمار، ضاربة ، بكل ما في المثل العليا ، التي تدعمها ، من سمو ، عرض الحائط ؟ . . انها جاهلية ، يا اخي ! قلها ولا تخف ! . . الانسانية اليوم في جاهلية عمياء ، يزيدها عمى ما تفتخر به من علوم وثقافة ! . . بل قل من علوم ومعارف وادعاء للثقافة ! . . ان الثقافة الصحيحة لا تلتقي مع الجاهلية مطلقا ؛ ان الثقافة الصحيحة انما تتحقق في اثرها في النفوس ، وفي مظاهرها في المجتمع ، وفي العلاقات بين الامم .

ان الانسانية اليوم في جاهلية ، اشرف منها جاهلية العـــرب قبل

الاسلام وأنبل . لأن تلك الجاهلية كانت تحافظ على العهود والمواثيق ؛ وكان الناس ، فيها ، يحترمون ذاتهم ، باحترام اقوالهم . اما اليوم ، فالشاطر النجيب من يتقن فن خداع الناس ، ولو كانوا مواطنيه ، أو اهله وذويه ؛ ويتمرن على الكذب ، ولو على نفسه ؛ ويحسن الاحتيال ، ولو على الاصدقاء والعيال .

وجاهلية العرب ، مع ما فيها من هذه الصفات النبيلة . كانت جاهلية ايضا ، لأنها كانت تصدر عن الانفعال ، وتستجيب لنزوات النفس وأنانية الافراد . ولذلك كانت سيئاتها اكثر من حسناتها . فجاءت رسالة الاسلام ، وعملت على تعديلها ، فانقلب العرب الانفعاليون الانانيون ، انسانيين ، يرفعون لواء الحضارة عاليا ، وينشرونها في العالم .

والبشرية اليوم بحاجة لرسالة انسانية ، تنتقل بها من جاهليتها الحاضرة الى حضارة صحيحة ، كثيراً ما يفكر بها المفكرون ، واليها يتجه العلماء الانسانيون في ابحاثهم ؛ وهذه هي الرسالة التي سبق وقلنا انه على الشرق العربي ، بجميع عناصره — مسيحياً ومسلما — القيام بأعبائها . وقد سبق له ان قام بهذا العبء ، في تاريخه ، خير قيام .

والقضية في الرسالات هي نقل امة ، او امم ، من حالة الجاهلية التي ألمعنا اليها ، الى حالة التركيز والاتزان .

لذلك ، لا نكون قد خرجنا عن موضوعنا ، في محاولة توسعنا قليلاً في بحث الجاهلية وحقيقتها . فإن مشكلة الشباب الاساسية ، هي في مشكلة جاهليته في نفسه — تصرفات تخضع للانفعال ، واعمال ، هي استجابات لنزوات النفس — وفي مشكلة حلها ، لينتقل بوثوق الى الرجولة

الحقة ، او الانوثة الصحيحة : اي الى حالتي التركيز والاتزان ، في المراة الرصينة والرجل الرزين .

ومن هنا تنشأ مشاكله المتعددة المتنوعة مع مجتمعه ، ومع ما يحيط به من جماد ونبات وحيوان . هي مشاكله في نزاعه مع هؤلاء جميعا ! . . . انه يريد تكييف كل الوجود حسب تصوراته وأهوائه ، ولكن الوجود لا يستجيب . انه يشعر ، في قرارة نفسه ، ان اشكال الحياة القديمة ، لا تتلاءم مع حاجـــات نفسه الداخلية . وحوله اناس ، يحيطون به ، وهم شديدو المحافظة على القديم ، لأنه قديم !... هذه هي حاله بين اهله وذويه وعشرائه ، ومربيه ورؤسائه ... فهل يكون من ذلك كله سوى مشاكل تتوالى ولا تتناهى ؟.. وقد يكون مصيبا ، وقد يكون مخطئا ! فكيف يستكشف خطأه ، ومن يساعده على ذلك ؟ .. وتتلخص المشاكل كلها ، هنا ، بمشكلة واحـــدة كبرى ، ألا وهي تفاعله مع محيطه ، ومجتمعه ، وكيفية تكونه وفقاً لما يقتضيه المجتمع في حاجاته وأهدافه وآماله ، ولما تستلزمه حياته الخاصة من تصرفات وسلوك وأعمال ، ولما يستوجبه التقدم والرقي من تجدد وتطور ، في التفكير والشعور ، وفي أساليب العمل . فكيف يجب أن يتم هذا التكييف تطوريا ، لا ثوريا ؟ هـذا ما سنجيب عليه في الفصل القادم .

والمهم الآن ان نستعرض المشاكل اجمالا ، فنجدها فيما ذكرنا آنفا ، وفيما سبق ذكره في الفصلين السابقين من ازمات في المعيشة وفي الحياة ، وفي المدنية وفي الحضارة ، وفي المجتمع ، فيتعرض الشاب ، بطبيعة وضعه ، للتفكير في حـــل مشكلة معيشته ، واختيار العمل الذي يتلاءم مع

استعداده ، ويهيء له العيش الهنيء الشريف . فهل تتاح له الفرص ليحل هذه المشكلة ، على ضوء نور نفسيته ، وحسب قواه الجسمية والفكرية والخلقية ، وميله الشخصي الى ما يحب بفطرته من الاعمال ، ام يجبر على اختيار ما يفضله ابوه أو امه ، أو ذووه ؟ ! ولعله يضطر لاختيار ما لا يتلاءم مع أهليته ، لأن الوسائل المؤدية لارضاء استعداداته مفقودة . وهو قد رأى النور في مجتمع لا يهتم بأمر الشباب ، ولا بأمر مستقبلهم ، ولو بقسط صغير من القدر الذي يهتم به ، بعض الذوات ، بأمر ارضاء ميولهم في تربية الخيول ، أو الكلاب ، أو الهررة ! ...

غريب امر رجالاتنا اليوم ! فإنهم على ثرائهم وثقافتهم ، وعلى ما يفتخرون به من ادعاء الحمية الوطنية ، والثقافة الانسانية ، والاخلاص للمثل والقيم ؛ وعلى الرغم من كثرة ما يبحثون بهذه المواضيع ويكتبون ، يجعلون أمر تربية النشء وتوجيه الشباب على هامش مناهجهم في الحياة . هذا ، إذا أعاروها اهتمامهم وعنايتهم . وعندئذ ، يكون الاهتمام منحصراً في أمر التعليم ، وبأساليبه التقليدية . إذا أولعنا بكلب ، أو هرة ، أو عصفور ، فإنك ترى المولع بها ، فينا ، يهتم بدرس كل ما يتعلق بموضوع ولعه ، باحثاً منقباً عن أحدث الوسائل ، وأنجع الطرق لايصاله ، في نموه وشكل تصرفه ، في حركاته ، الى أوج الكمال في استعداداته النوعية .

أما النشء ، وأما الشباب ، فوا أسفاه ! . . . فلا يفكر أحد في اصلاحه ، حسب احوال المستقبل الذي ينتظره . ولا في صلاحه ، في العمل الذي يليق به أن يختـــاره ؛ ولولا نور الفطرة في نفس الشاب ، يساعده في كثير من الاحيان على مواقع الخطى ، لظل جماداً لا يتحرك ،

أو آلة تسير حسب إرادة محركها، وحسب ! مسكين نشؤنا ! وهو أجدر ما يكون بالرحمة والشفقة ، عندما يصبح في دور شبابه !... فانه لم يوفق لأن يولع به من بيدهم القدرة على انقاذه من براثن الارتباك والاضطراب، والضلال والفساد ، ولعهم بالكلب أو الهر ، أو كولعهم بالنبات ، ازهاره وأثماره ! . . .

فهذه الاحوال، وأمثالها ، من اشد بواعث المشاكل في المجتمع عامة ، وفي الشباب خاصة .

فما بالك إذا ضممت اليها مشاكل الحب ، وما تحاك حوله من أضاليل !.. ومشاكل العشراء والاصدقاء ، وما يستتبعها من قال وقيل !.. ومشاكل المدارس ، وما في انظمتها من تضييق أو استهار !.. ومشاكل الاساتذة، وما قد يكون في طرقهم من تعقيد ، يهدد قلب الشباب بالانهيار ! . . . وما بالك بالمناهج ، وما فيها من حشو المواد التي لا صلة لها بحياة الشاب ، إلا بما قد تفرض من حاجته اليها في المستقبل ، ومن يدري ؟ . . . وأي مشكلة ، اشد وطأة على النفس ، من أن يحاول الشاب تكوين مستقبله، في حاضره ، فيعيش في غير زمنه . انه قلب للأوضاع ! .. ضحيته شباب الانسان ، إذا لم يكن في الشاب تمرد نفسي ، يهزأ بالشهادة ، وهي تزيد الطين بلة ، في مشاكل المدرسة . انها تريد أن يعيش الشاب حياته ، في نضارة شبابه ، لأجل هذه الورقة !.. فيجب أن تكون قصده في مسيره، ويجب ان يعتمد عليها ، في تحقيق مستقبله ! ... أواه ! على شباب يعيش للشهادة !... فانه عندها ستقف جهوده ، وبها سيحصر مستقبله !... ولا يستطيع الانسان إلا ان يأسف على امة ، يضيع شباب نشئها في مثل هذه السفاسف ! . . .

دعوا الشباب ينمو نموه الطبيعي الحر ، في تكوّن حياته الشخصية ! ولتكن دروسه ومناهجها ، وامتحاناته وشهاداتها ، مساعدة له على هـذا التكوّن الذاتي . ان هذا التكوّن كان شرطاً اساسياً في وجود العلوم العقلية . فهي نفسها لم تتكون إلا بالنمو الطبيعي الحر . فما بالنا نطالب الشباب بأن ينمو للعلم ، على غير الطريقة التي نمى بها العلم نفسه ؟ . . . أنفعل ذلك ، وندعي حب ابنائنا الذين نعقد عليهم كل الآمال ؟ . . .

ثم هل نستغرب ، بعد أن أدركنا مجمل المشاكل التي يتعرض لسوء تأثيراتها الشباب ، أن نجد في نفسه هذه الارتباكات ، والاضطرابات ؟ وهي ارتباكات واضطرابات قد تؤثر ، على صحته ، فتظهر عليه بسببها أعراض عصبية ، قـد تتحول الى هستريا أو نوراستني ، في الشابات وفي الشبان ، لكثرة ما تتراكم في نفوسهم من هموم ، تهز الاعصاب ، من شدة القلق ؟ ! .

ومما لاشك فيه ، ان الشاب ، كما سبق وأوضحنا ، في بدء هذا البحث ، هو بذاته مشكلة مشاكله النفسية ، لأنه يضع مشاكله في قلبه . فما اشبهه ، في هذه الحالة ، بذلك القرد الذي يصاد ، على طريقة الزنوج . فإن هؤلاء يستخدمون في إمساك القرود ، سالمة ، طريقة فذة ، يطبقونها على الشكل الآتي : يعلقون ، بأغصان الاشجار التي يأتيها القرود ، اكياساً من الجلد ملأى بالارز ، الطعام المفضل عندها . وهم لا يتركون ، في الكيس ، سوى فتحة صغيرة ، متناسبة مع حجم يد القرد . فإذا جاء هذا ، مد يده ، في الكيس ، وملأ قبضته بالارز . تتجمع قبضته هـذه ، ويتعذر عليه اخراجها ، فيبدو عليه الاضطراب والارتباك ، ويعبر عنها بالصراخ الشديد المتواصل . فيأتي الزنجي ، ويقبض عليه متلبساً بجريمته .

وهكذا يتمكن الزنجي من القبض على القرد ، لأنه لم يشأ ان يترك الارز ، ليتخلص منه ، وينقذ نفسه . كما انه لم يدرك انه كان بامكانه ان يقلب الكيس ، فيأكل الارز بسهولة .

وهذه هي حالة الشباب : إن مشاكلهم تملأ قلوبهم ، فيتعذر عليهم التنفس بملء رئتيهم ، فتظهر عليهم أعراض الامراض النفسية ، ويمكنون الحياة من القائهم في أسرها . ولو أنهم فكروا فيها ، وتروا في تفهم اسباب اضطرابهم ، لوجـــدوا مجالات واسعة للتخلص من ضغطها على نفوسهم ، وللتحرر من اسرها ، بنشاطهم وحيويتهم . وما عليهم إلا ان يخرجوا هذه المشاكل من قلوبهم ، ليضعوها أمام اعينهم ، وبذلك يواجهون الحياة ، وجهاً لوجه .

وهكذا ، فاننا مع اعتقادنا بالتبعة تلقى ، على المجتمع ورجاله ، في تنشئة الشباب ، نرى من الانصاف ان نقول للشباب : ان قسماً كبيراً من هذه التبعة تلقى على عاتقك انت ، فتدبر أمرك ! . . .

ولوضع التبعات في مواضعها ، في امر تربية الشباب وتوجيهه ، خصصنا ما بقي من فصول هذا الكتاب .

الفصل الرابع

الشباب في تربيته

ادعاء وغـــــــرور لِمَ نطالب بحرية التربية

الحرية والفوضى الثقة في التربية

الفؤاد

خلاصة ما تقدم

ازمة الحياة اشد وطأة على الانسانية والامم من ازمة المعيشة، وهذه، في الحقيقة، من نتائج تلك. فكل ظاهرة من ظواهر الحياة، انما تتصل بانسانية الانسان، اي بالحضارة التي ترتكز على التفكير والشعور والنزوع، في صميم نفسه المنسجمة مع المجتمع القريب - الوطن - والمتباعد بالامتداد - الانسانية - او البشرية، مع ما يتعلق بها من الكائنات، حية او جامدة، طبيعية او صناعية. وإذا صلحت المدنية وسيلة تساعد الحضارة على التحقق والتقدم والارتقاء، فانها لا تصلح غرضاً بذاتها، إذ بذلك تفقد الحضارة ذاتها في نفس الانسان، فتتوارى انسانيته وتستعبده المادة، منتقمة من استعباده لها.

وليس هناك ما ينقذ الانسانية من ويلات سيطرة المدنية، في نزعاتها المادية المختلفة، كاليقظة الواعية، في الامم عامة، وفي شبابها بنوع خاص. والنفس البشرية تستيقظ، بفطرتها، كلما انتبهت للنوائب، أو كلما اشتد ألمها من ويلاتها. ولكن قد تكون اليقظة بلهاء، فتعيدها الى النوم والاستسلام. وإذا علقنا آمالنا على يقظة الشباب، فللشعلة المتقدة في داخل ذاته. وهي شعلة مباركة تشع حماساً واقداماً ونهضة، إذا تكوّن الشباب تكوناً صحيحا.

وهنا تبرز المشكلة، في اوجها، حين تصبح مشكلة الشباب. فالشباب امكانات يجب ان تتحقق، هي بذاتها، اولا، لتتكون الرجولة الصادقة في الفتيان، والانوثة الصحيحة في الفتيات. ولتحقيق هذه الامكانات

مشاكل عديدة ، يجدها الشاب في نفسه ، وفي مجتمعه . وأهمها تلك التي يجدها في نفسه : من تناقض واضطراب وانفعال وارتباك ، حالات يتعلق بأمر تركيزها واتزانها حقيقة ذلك التكوّن ، وصحـــة الاتجاه . فكيف يتم ذلك للشباب ؟ ! . .

١ ــ ادعاء وغرور

ندعي ، نحن الآباء ، ويشاركنا ، في هـذا الادعاء ، رفيقات حياتنا الامهات ، وقد يدعمنا فيه من حولنا من ابناء جيلنا ، او ممن سبقه ، من العشراء والاصدقاء والمربين : ندعي جميعنا ، بقوة ، وربما باصرار ، ان الحياة ، والكيان الاجتماعي ، وطبيعة الوجود ، تنيط بنا امر تربية ابنائنا على الوجـــه الذي نختار . وإذا تواضعنا ، قلنا : على الشكل الذي نراه موافقاً لمصلحتهم ، ولتأمـــين مستقبل زاهر لهم . واذا ازددنا تواضعا ، قلنا : على ما يقتضيه استعدادهم . وقد نجد تعبيراً ، او تعابير متعددة ، غير ما ذكرنا ، وربما كان بعضها اروع سبكا ، في قولنا مثلا : نربيهم لنعدهم للحياة ... او الطف دلالة ، حين نصرح : ان تربيتنا لهم انما هي لتوجيههم في الطريق المستقيم ، مقررين بأن التربية توجيه ، وكفى ... ! ونحن في كل ذلك ، إنما نعبر عن حقيقة واحدة ، هي : ادعاؤنا اننا نحن نربي ابناءنا . وهنا يبرز فينا غرور الانسان بنفسه ، إذ يعتقد انه يستطيع السيطرة على الحياة الانسانية ، في تكونها واتجاهها وسيرها . وهو لو استطاع ذلك ، لملك حق البقاء على ترفـــه ، وهو يحبه حباً جما ، ولما استطاعت الحياة ان تميد به الارض وتعيده الى همجيته ، على الرغم من مدنيته ، لتنتقم منه انتقامها الرهيب ، ليعي ، أو ليفنى ! . . وما ذلك إلا

لأنه خالف نواميسها ! وما اشد فتكها بمن يخالف النواميس !.. وناموس النواميس ، في كيان الحياة ، هو : الحرية والانطلاق ! وكل من يحاول تقييد حريتها ، والضغط على وثبات انطلاقها ، يتعرض حكماً لانتقامها . وهكذا ، هي تنتقم ، اليوم ، من انسانية ، يتفننن قويها في الضغط على من يرى فيه الضعف ليسلبه حقوقه ويستعبده .

نعم ، ان الحياة تنتقم ، حين ترى الاحياء يتجاهلون نواميسها ، او يهملونها . انها تنتقم ، ما دام الانسان ، يهزأ بكيانه الانساني ، ويسخر بنواميس الحياة المقدسة ... وانها ستظل مستمرة على التشدد في انتقامها ، ما نسي الانسان نفسه ، بتنامي كيانه الانساني ، المميز له عن سائر الكائنات ! وأمارة ذلك : اهمال التضحية في سبل المثل العليا . وهذه التضحية هي أقدس ناموس من نواميس الحياة ، التي يتميز بها الانسان ، في كيانه الخاص ، وفي تكونه الذاتي .

لايشعر الحجر ، ولا الحمار ، في أن يضحي بحياته في سبيل الحق والاستقلال ، والحرية والكرامة . إذ كيان كل منهما يقوم على أنه عنصر فردي في الطبيعة . فهو قطعة من المادة ، وحسب . ولذلك ، فانه يستخدم قسراً ، ويستثمر قهراً ، دون ان يكون له اي حق في اعتراض او مقاومة .

أما الانسان ، فقد خلق حراً ، على حد قول عمر : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ؟ » وهو لا يستطيع حماية حريته إلا بقوته ، واستعداده للتضحية بحياته ، في سبيلها . ليس الانسان عنصراً فردياً في الطبيعة ، وانما هو كيان اجتماعي في عـــالم الوجود الروحي . خلق ليسود ، لا ليستعبد . وليس من شأنه الانساني ان يسخّر أو يستثمر . فلا يحق له ان يتنازل عن انسانيته ، ليصبح قطعة من المادة ، وإلا انتقمت

منه الحياة ! . . وانما كانت التضحية أقدس النواميس ، لانها بهـا يتحقق ناموس النوامس ، ألا وهو مبدأ الحرية والانطلاق ! . .

وما يصدق على المجتمع الانساني ، في المظاهر المختلفة لحياته ، يصدق عليه ، في مظهر تربية النشء فيه ، ولا سيما في تربية الشباب ؛ لأنه مجموعة إمكانات ، يجب أن تتحقق على الوجه المتفق مع حريته وانطلاقه ، في مجتمعه المحدود ، أولاً ، ثم في المجتمع الانساني ، المترامي الاطراف . ولا بد من الالماع هنا الى أن ما يقصد من الحرية والانطلاق ، لا يتفق مطلقاً مع ما يفهم من الفوضى والانفلات ، على ما سيأتي .

فادعاؤنا أننا نستطيع أن نربي أبناءنا ، كما نشاء ، غرور ، يتعارض مع ناموس الحرية الانسانية وانطلاق حيويتها ، ومع ما تقتضيه ذاتيتها من تبدل وتطور ؛ إذ هي في استمرارها في السير لا تستقر على حال . ولذلك قال الاقدمون : « عودوا أبناءكم غير ما تعودتموه ، فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » وكأني بهم يقولون : دعوهم يتعودون ، بإرشادكم وإشرافكم ما يقتضيه تبدل الزمن من عادات يحتفظون بها بكيانهم ؛ وثقوا بوحي الحياة في نفوسهم ، ما دامت الحياة فيهم حرة منطلقة ؛ وإلا فان هـذه الحياة ، اذا قيدت في حريتها ، وأوقفت وثبـات إنطلاقها ، تخمل ، أو يستولى عليها العناد ؛ فـــلا تعود جديرة بالثقة في وحيها ، وتشذ وتعق الآباء والأمة ، وتعق نفسها .

٢ ــ لم نطالب بحرية التربية ؟

اذا طالبنـا بحرية التربية ، في النشء ، ولا سيما في الشباب ، فلأننا نخشى على أبنائنا من إنتقام الحيـاة منهم ، اذا حاولنا التحكم في تربيتهم

وفي تقرير مصيرهم. قال دركايم : « لانستطيع تربية أبنائنا كما نشاء ؛ واذا حاولنا ذلك ، تنتقم الحياة منهم » . واضم الى ذلك : ومنا ... ! ...

نعم ، تنتقم الحياة منا ومن أبنائنا ، إذا دفعنا الغرور لتحقيق ما ندعيه من استطاعتنا لتربيتهم كما نشاء، ولتوجيههم الوجهة التي نختارها لهم . إذ بذلك تشع في نفوسهم روح تواكلية ، تضعف معها عزائمهم وهممهم ، وتخيب آمالنا .

الولد هو الوارث ، وبه يحاول الوالد الخلود في هذا العالم . فلا غرو اذا أحبه حباً جماً ! ولا عجب اذا تعلق به ! ولكن الأمر الغريب ، هو أن يصبح هذا التعلق إفتتاناً ، ينقلب ، معه ، ذلك الحب الأبوي ، الى حب أعمى . فينشأ الولد، وروح الاتكال على غيره مسيطرة على نفسه . ويتكون الشاب ، في إمكاناته ، تكونا خاطئا ، تضعف معه النفس ، أو تشذ ، فينهار ما شيدناه في نفوسنا من آمال وأمان ، علقناها عليهم ، وفننسب اليهم العقوق ! . . . ولا أدري من هو أشد عقوقاً : أهو ذلك الولد الوكل ، أم هو ذلك الوالد الذي لم يترك لابنه حرية الانطلاق ، فجعله يثق بما يقوم به والده من أعمال ، لا بما يجب أن يقوم به هو نفسه من جهود ، ولا بما يجب أن يرسم من خطط ، ويهيء لنفسه من مشاريع؟

والشواهد على ذلك كثيرة : فمن ذا الذي لا يعرف الكثيرين من اولئك الأبناء الذين يصبحون رجالا ، ويكادون لا يحسنون عملية شراء حاجياتهم من الاسواق ؟ ان آباءهم لم يفسحوا لهم مجالا للقيام بشراء ما يلزمهم ، اما توفيراً لجهودهم ، أو خشية من هفواتهم. وانني أعرف رجلاً، أصبح جداً لاحفاد ، وهو لا يزال يرتبك عند ما يقوم بأي عمل يضطر للقيام به بنفسه ، ويخجل من الدفاع عن رأيه في أي مجتمع وجد فيه .

انه لم يتعود ذلك في صغره ، وهـــو لا يفتأ يفخر بنشاط أبيه وذكائه ، آسفاً على فقده ، إذ فقد بموته خير من كان يتكل عليه ! ... ومع هذا ، فهو ، في أحوال ارتباكه ، كثيراً ما ينحي باللائمة على أبيه ، لانه عودة الاعتماد على الغير ! . . . ولا تهمني هنا لهجة التباهي الذي يذكر بها تاريخ حياته مع أبيه ، ليعلمك أنه تربى في الدلال والنعيم. إذ المهم ان نبين ان هذا الرجل ، هو من اولئك الرجال الاطفال ، وقد مر ذكرهم في فصل سابق . وإنه ، مع ثروته ، يعيش عاجزاً مسلوب الحرية والكرامة . انه اتكالي ، لا يشعر بأن له كيانا مستقلا ، أو وجـــوداً متحققاً ! انه من الهمل ! ... لا راعي له ، في نفسه ، ولا في الخارج . تتحكم فيه الاهواء والوساوس ، ويظل شاعرا بالعجز عن القيام بأود نفسه ، محتاجاً لمساعدة الآخرين في أبسط حاجاته . فلا عجب اذا أصبح سخرية الساخرين ! ...

إن نفس هذا المخلوق، وأمثاله، مكبوتة، لم تسنح لها فرصة للانطلاق! وحريته مقيدة ، بما يسيطر على نفسه من ظواهر العجز والارتباك ! لذلك تراه يفرح فرح الاطفال ، ويجرد حردهم . ومـا أصدق العامة في مثلهم هذا : « بنت الشاطره نايطه » . ويقصدون بكلمة « نايطه » ، الخامـــلة البليدة. وما يصدق على البنت ، يصدق على الابن . ومن الخطأ ان نجنب الولد ، مهما أحببناه ، بذل الجهد ، فنحترز من تعريضه للخيبة باقتراف الهفوات . فيكبر قليل الخبرة ، سريع العطب، تتكسر نفسه ، وقـــد تتبدد وتتلاشى ، لاقل اصطدام . إن حبـــا ، يحمي الشاب ، من التعب والجهد ، هو حب كاذب ، أو سموه ! وان عطفا ، يفقد الشباب شعورهم بالتبعة ، في مكافحة مصاعب الحياة ، هو عطف خلب ، أو مزيف ! . . .

اذا أرادت الحكمة الالهية أن نكون السبب المباشر لوجود أبنائنا ،

فانها لم تسمح لنا ان نقوم بخلقهم ، ولا بتكوينهم . فالله هو الخالق ، وهو المكوّن ، فلنترك لمخلوقاته الحق في التكوُّن . وفقا لما أودعه فيهم من قوى واستعدادات ، ولما اراده لهم ، في حاضرهم وفي مستقبلهم ، من تفاعل - في داخل نفوسهم ، أو مع من وما يحيط بهم - ومن كيفيات ، وامتداد واستمرار .

ان الله يغار على من خلق حراً ، وهو الانسان ، ويأبى عليه ان يعتمد على غيره ، أو ان يتكل على أي كائن سواه . والاتكال على الله معناه ، في حقيقة التكوين الازلي ، الانصراف عن ما سواه . اذ في اتكالك على غير خالقك تستبعد ، وفي اتكالك عليه تتحرر ، وتحقق إستقلالك في نفسك وفي مجتمعك . ولا يتحقق اتكالك على الله ، إلا باتكالك ما أودع فيك من قوى واستعداد . فتعمل ، لانك واثق بأن الله لم يخلقك عبثاً ، فلا يعقل ان يهمل فيك وسائل العمل . « اعقل وتوكل » ! هكذا قال نبي العرب ! أي اتخذ لاي عمل وسائله . ثق ان الله اكرم من ان يدعوك لعمل لم يمنحك وسائل تحقيقه . فاذا دعا الانسان الى تحقيق كماله الانساني ، في نفسه ، فانه قد أودع في هذه النفس ما يسيرها نحو هـــذا الكمال . فاتكل على الله فيما أودعه فيك ، وانصرف عن الاغيار في اتكالك ، تكن عبدالله المحض ! ومن كان عبداً لله ، فهو الحر الذي لا يستعبده أي مخلوق ، حتى ولا نفسه . تعس عبد نفسه ! تعس عبد أي مخلوق مثله ، فكيف بعبد من هو أدنى منه ؟ . . . والسعادة لا تضمن إلا لعبد الله ، لانها لا تكون إلا لمن يتمتع بارادته وحريته ، وهـــذه هي ارادة الله الخالق الحكيم .

لا يجوز مطلقاً ان تكون صلاتنا مع غيرنا ، مهما قرب منا أو بعد ،

صلة اتكال . ففي الاتكالية الزوال والهلاك ! . . . وانما تكون تعاوناً وتعاضداً في قطع طريق الحياة . وهكذا يجب ان تكون الصلات بين الاجيال ، السابقة والطالعة . وهكذا يجب ان تكون الصلة ، بين الآباء والمربين وبين الابناء والقاصرين . تعاون وتساند ، يمنح فيه الاقوى كل ما عنده من وسائل في القوى ، ونتائج في الاختبار ، ليستطيع الجيل الطالع ان ينمو ، ولا سيما في شبابه ، نموا طبيعيا ، يشعر معه بأنه كائن حر يتمتع بإرادته . ولا تخش ، أيها الوالد الشفوق ، أي عقوق قد يصدر عن ابنك ، اذا احترمت حريته . فان من ينشأ حراً ، لا يجـــد العقوق الى نفسه سبيلاً ! . . .

وانت ، ايها الشباب ، تحرر في نفسك ، وفي صلاتك ، مـا وسعك التحرر ! ولا تخش فية الغلو والمغالاة ، ما دام تحررك يعتمد على تفكير مستنير اصيل ، يستمد قوته من عقيدة مدركة راسخة ، وايمان صحيح فاهم . والخطر ، كل الخطر ، ان يكون تحررك نزعات وهم أو هوس !.. فانتبه ، واحذر شياطين الانفعال ، وثورة الغضب ! . . .

٣ — الحرية والفوضى

نخشى وقد ذهبنا بعيداً في تأييد الحريه ، دفاعاً عن التربية الحرة في الشباب ، ان يشتبه علينا الامر ، فلا نفرق بين الحرية والفوضى . فالحرية فضيلة بين نقيصتين متناقضتين ، هما : الطغيان والفوضى .

فالطغيان مغالاة الفرد في حريته الفردية لدرجة يجيز لنفسه ، معها ، التعدي على حرية الآخرين ؛ وقد يظهر الطغيان في المجتمعات ، فيضغط الاقوى فيها على الاضعف ، مستثمراً أو مستعمرا ، فيفرط في تأييد حرية

أبناء مجتمعه ، منفردين أو مجتمعين ، على حساب غيرهم من الشعوب والامم . وهو لا يتورع عن سلب سائر الشعوب حريتهم ، ليتمتع وحده ، وهو الاقوى ، بمرافق العالم وخيراته . وان ترك شيئا ، فانما يتركه ، إحسانا ، على ان يسلب من الحرية ، بقدر ما يمنح من الخيرات ، أو اكثر ! . . .

فالطغيان مظهر افراط في السيطرة على الغير : سيطرة فرد على شعب ، أو طبقة على طبقة اخرى أو طبقات . أو سيطرة أمة على غيرها من الشعوب والامم . او سيطرة مجموعة من الامم ، على مجموعة اخرى ، كسيطرة الغرب على الشرق ، مثلا . فانك تجد ، في كل هذه المظاهر للطغيان ، سيطرة السلطة ، ومحاولتها التمتع وحدها بالحرية . على حساب الآخرين ، من التابعين لها ، افرادا ، او شعوبا ، او طبقات .

وهذا إفراط في سيطرة السلطة ، يقابله تفريط فيها ، يقول به الفوضويون . ففي الفوضى محاولة ازالة السلطات ، وافراط في حرية الافراد . فلا حاكم ولا محكوم ، ولا شريعة ولا نظام ، إلا ما يستوحيه الفرد من ضميره . والصلات بين الافراد مبنية على الحرية المطلقة . وهو نظام خيالي لا ينسجم مع حقيقة الواقع ، وانما هو سبيل معبد للطغيان ، ما دام للقوة اثرها في العالم . واثرها باق لا يزول إلا بزوال العالم . ولا يعقل ان تكون لفرد حرية ، لا تتقيد بحرية الآخرين ، في المجتمع . وإلا فمن يحفظ لجميع الافراد ، في المجتمع ، حريتهم ، اذا لم يكن لسلطة النظام سيطرته ؟ . .

والحرية نظام وسط ، يقبل بمبدأ السلطة ، على ان تكون حامية للحرية ، تعم جميع الافراد . فتفسح لهم ، جميعا ، في الحياة : مجالا واسعا للفرص المتكافئة . وتقاوم الفوضى والطغيان ، بلا هوادة . فالنظام الحر ،

وهو النظام الديموقراطي في صميم حقيقته ، لا يتم ، إلا بتربية حرة ، تنطلق فيها النفس على سجيتها ، فتتفتح براعم ازهارها ، ناشرة عطرها الذكي في جميع الارجاء .

قال برونشويك : « يظهر ان الانسان متجه في مثله الأعلى اتجاهين متعاكسين : الأول يدفعه للتحرر من الأنظمة والشرائع ، والثاني يحرره بالأنظمة والشرائع » .

وارى انه يريد بالاول الفوضويين الذين يعملون على التحرر ، او بتعبير أصح ، على الانفلات من كل نظام او قانون ؛ وبالثاني الديموقراطية الصحيحة ، وهي ترمي الى تحرير الناس ، بطريق التنظيم الحر ، وباحترام الشرائع والانظمة ، احتراما ، يبعثه ، في الانسان ، ما يتمتع به من حرية وانطلاق .

فالمواطن ، في هذا التنظيم الديموقراطي الحر ، يحترم الشرائع والانظمة ، لا بطريق القسر والقهر ، او التحكم والتغرير ، بل عن ادراك وفهم واقتناع . انه يطيع ، ولكن بملء حريته ! وهذه هي الحرية الصحيحة ، لا الحرية التي تدعيها الفوضى ، وليس لها نظام ينير لها السبيل . لذلك ، كانت الديموقراطية : في صميم حقيقتها ، مثل الانسان الاعلى ، في انسانيته . واذا دعونا للتربية الحرة ، فانما ندعو في الحقيقة الى تثبيت كيان المثل الاعلى ، لتستحق الانسانية الطمأنينة والسلام .

فنحن ، في تربية الشباب ، ديموقراطيون : تجنب مبدأ طغيان الآباء والمربين ، وسيطرتهم السيطرة المطلقة على سير الشاب وتفتحه ؛ كما نحارب ، في الشباب ، مبدأ الفوضى ، وهو يؤدي الى خلع سلطات المربين والآباء . فالخطر ماثل في الحالتين :

ففي الحالة الاولى ، وهي حالة الطغيان ، اي الحالة التي يعمل فيها المربي على تربية الشاب كما يشاء هو ، لا كما تقتضيه حريته ووثبات انطلاقه واستعداداته ، يتعرض الشاب لاحد خطرين : الكبت ، او العناد .

فاذا كبتت نفسه ، خملت ، فتخمد شعلة الشباب فيها ، ويعود طفلا ساذجاً ، على خبث كمين . وقد تستولى عليه بعض الامراض النفسية ، فيفقد توازنه الى الابد .

اما العناد ، فقد يؤدي به الى العقوق . ومن يجرأ على عقوق والديه ، او مربيه ، يضعف الامل في نجاحه ، وفي حصول الخير على يديه .

وفي الحالة الثانية ، اي حالة الفوضى ، يخلع الشاب سلطان كل سلطة ، فيخشى عليه من الضلال . فهو لا يستطيع الاهتداء لسواء السبيل ، لقلة خبرته وضعف معرفته . انه بحاجة لمن يسدد خطاه ، بإرشاده وبتوسيع مداركه . والمفروض في مرشده ان يكون محبا ومخلصا ، ذا معرفة ، واطلاع وخبرة ، بأمور الحياة . فمن اخلص له من والديه ؟ . . . ومن أعرف بامور الحياة التي يهيأ لها منهما ومن مربيه ؟ . . . اذا ابى الشاب إلا ان يسير فوضويا في سلوكه ، دون ان يسترشد ، يتعرض ، حكما ، لما تعرض اليه في الحالة الاولى من كبت وعناد : يعترضه في سيره صعوبات تزيد في تضليله ، فيرتطم ، ويقع في مشاكل ، لا يعرف كيف يتدبر أمره فيها . فتنكبت وثبات انطلاقه . ولعله من الصواب ان نسمي كبته هذا كبت الحيرة ، فيعيش محتارا ، فاقد التوازن ، ويصبح عدو المجتمع ، يشاغب دون وعي صحيح ، وهو اقرب للشر ، منه للخير .

وقد ينتج ضلاله ، في فوضويته ، عنادا ، في نفسه ، هو اشد خطرا

من العناد الاول ، وابعد اثرا ! انه قد ينقلب ، في حالته هذه ، لمرض نفسي ، يتدرج به ، في السير في طرق الامراض العصبية ، حتى الجنون ، على انواعه ، لا سيما اذا تورط ، في حالته هذه ، ببعض الامراض الجسمية الفتاكة ، نتيجة لفساد في السلوك أو افراط في بعض العادات الشاذة . فيزداد في حياته ظلاما على ظلام ، وتصبح نفسه مختنقة ، في ليل حالك من اليأس والندم ، وخوف سوء المصير .

وكيفما كانت النتائج ، فان مظاهر الكبت والعناد كثيرة ومتنوعة . وانها ، في هذه الحالة ، اشد تأثيرا في النفس من الحالة السابقة . الضغط ، في الحالة السابقة ، ضغط طغيان ، مصدره الخارج ، ويؤمل ان يتدارك نشاط الشاب الداخلي ، وحيويته ، كثيرا من ويلاته . امـــا والمصدر داخلي ، في الحالة الثانية — حالة الفوضى — فمن يجيره فيها من طغيان نفسه على نفسه ؟ ... ومن ينقذه من ويلات ، هو مسببها ، اذا لم يمتلك زمام امره ، ويسترشد بمن هم اكثر منه ادراكا لحوادث الايام ؟ . . .

اننا لا نقول بقول من يعتقد ان الشاب كالشمع ، نستطيع اعطاءه الشكل الذي نريد . كما اننا لا نوافق من يريده فوضويا ، في تربية نفسه . وانما نرى ان الشاب هو الذي يربي نفسه ، ويحقق رجولته ، بما منحه الله من قوى داخلية ، ومن حيوية وثابة . ولكنه بحاجة كبرى للارشاد والتنوير ، ليرى طرق السير واضحة . وأولى الناس ، بذلك ، من هو احب الناس اليهم ، ممن يدركون نواميس الحياة بعد اختبار وبحث ودرس فليس لنا ، كآباء ، وكمربين ، ان ندعي اكثر من استطاعتنا . وهذه تنحصر بامكان مساعدتنا للشباب ، فنتعاون معه ، في تربيته لنفسه . ولا نستطيع مساعدته ، ولا ينجح هو في تربيته لنفسه ، الا اذا ارتكزت

عزيمتنا ، وحيويته ونشاطه ، على الثقة المتبادلة بينه وبين مربيه . الثقة اصل أولي من أُصول التربية ، وهي مبدأ اساسي في تربية الشباب .

٤ — الثقة في التربية

لا اعرف عملا يشترك فيه اثنان ، او اكثر ، ويقدر له النجاح ، الا اذا اعتمد على الثقة المتبادلة بين القائمين به . ولا يشذ عن هذه القاعدة اى عمل تجاري او صناعي او اجتماعي او خيري . . . او غير ذلك . حتى ان الالعاب ، على اختلاف انواعها ، تحتاج ، في انتظامها ، وفي الحصول على مسراتها وفوائدها ، الى الثقة المتبادلة بين اللاعبين .

هذه حقيقة اجتماعية واقعية ، لا يعقل ان يخرج عليها الشباب ، ومن يقوم على تربيتهم من الاولياء والمربين . والخروج عليها ، هو خروج على الحياة ، في نواميسها . فلا نستغربن اذن فشل المربين ، وخيبتهم ، اذا لم ينجحوا في تحقيق مبدأ الثقة بينهم وبين من يعنون بأمر تربيته من الشباب .

واذا قلنا بالثقة ، فانما نقول بثقة متبادلة ، تتحقق في المظاهر الآتية :

(ا) ثقة المربي بنفسه .

(ب) ثقة المربي بمن يعني بتربيته .

(ج) ثقة الشاب المتربي بنفسه .

(د) ثقة الشاب المتربي بمن يساعده على تربيته لنفسه .

(ه) ثقة المربين والشباب بامكانات التربية .

أ — ثقة المربي بنفسه :

لا بد من الالماع ، هنا ، الى ان كل ما يحيط بالولد وبالشاب ، من مظاهر طبيعية واجتماعية وسياسية . . . يؤثر في تربيته . فيمكن اعتبار

كل هذه الكائنات مربية ، وفقا لما ذهب اليه بعض الفلاسفة والمتصوفين . ولكن ، هل التأثير في تربية النشء ، هو بذاته ، من مقومات وجود كل هذه الكائنات ؟ . . طبعا ، لا ! فليست البحار في اتساعها ، ولا الجبال في ارتفاعها ، ولا الحكومة في تنظيمها ، ولا ما يجري حول الولد من حوادث صالحة او طالحة ... الخ ، وسائل قصد ، او يقصد من وجودها تربية النشء . فهي تؤثر في تربيته ، دون ان يكون لهذه التأثيرات اي صلة بوجوها .

وذلك بخلاف المربين ، من اولياء ومعلمين . فان فكرة التربية مقصودة ، في الصفة التي يكتسبونها ، عند ما يصبحون آباء او اولياء او مربين — معلمين او اساتذة — . فالثقة بالنفس ، كمرب ، انما تتعلق بهؤلاء

قلنا يجب ان يثق المربي بنفسه ، اولا ، سواء اكان وليا او استاذا . فكيف تتحقق هذه الثقة ، وما هي عناصرها ؟ . . تتركب فكرة ثقة المربي بنفسه من عناصر متعددة ، جماعها عنصران : عاطفته نحو من يربي ، ومعرفته باحواله ، وبما يجب ان يلقن من مواد علمية وفكرات مثقفة .

اما العنصر العاطفي ، فيقضي بأن يثق المربي بانطواء نفسه على حب من يقوم بتربيته ، حبا صحيحا مجردا ، وعلى العطف عليه بصدق واخلاص . ورب معترض يقول : اذا صح شكنا في تحقق هذا العنصر ، في نفوس المعلمين والاساتذة ، فهل يصح شكنا ، في تحققه في نفوس الآباء والامهات ؟ نعم ! ان الواقع يؤيد صحة هذا الشك . وان اكثر المشاكل ، بين الشباب وبين ذويهم ، انما تنتج عن عدم تحقق هذا العنصر العاطفي في نفوس الآباء والامهات . انهم يحبون ابناءهم حبا جما ، ولا شك ، وانهم يؤثرونهم على انفسهم ، وهذا صحيح ! ولكن هذا الحب قد يشوبه شيء من الرغبة في

الزهو بالولد ، لذكائه او نشاطه او جماله ...، فلا يكون الحب صحيحا، وقد يشوهه شيء من الانانية ، فيعتقد الوالدان انهما انما يربيان ولدهما ليكون عونا لهما في المستقبل ، او ليقوم بحفظ الثروة، او استمرار العمل الذي عليه مدار معيشتهما او اثرائهما... الخ..، فلا يكون الحب مجرداً. وفي كلتا الحالتين يميل الوالدان لتربية ولدهما على ما يشتهيان ، اشباعاً لرغبتهما ، او استجابة للانانية في نفسيهما ، فتنشأ المشاكل في كل وقت تتعارض وثبات انطلاقه مع ما يريدان .

ان الوالدين ، مع حبهما الشديد للولد ، يعتقدان ، في هاتين الحالتين، انهما انما كانا سبب وجود الولد ، ليكون لهما ، يتصرفان به كما يشاآن . وهنا يبرز منشأ كثير من الاخطاء في تربية الشباب . فالولد ليس لوالديه، ولا لاي انسان غيرهما ، ولا هو عبد لهما ، ولا لغيرهما من المربين . ردد الناس ، وما زالوا يرددون قولهم : « من علمني حرفاً كنت له عبداً » . هذه عقلية قدم عهدها ، وانها لا تتفق مع ما صارت عليه الاذهان من تفتح ، ومع ما القي في قلوب المستنيرين من البشر من أنوار العلم والاختبار . فالولد كائن حر مستقل ! هكذا ولد ، وهكذا يجب ان ينشأ ليصبح رجلا حراً مستقلا ، يتحقق به ، وبأمثاله ، استقلال وطنه استقلالا صحيحاً لا شائبة فيه ، وحرية اخوانه ، من المواطنين ، على الوجه الذي يضمن انقاذهم من الطغيان ، ويجنبهم الفوضى .

واننا لا نخشى ، مع اتجاهنا هذا في تحرير الشباب ، اي عقوق من قبله . وانما ينشأ العقوق من تحكم انانية الآباء في ابنائهم . ولا يكون المتحرر ، كما سبق وبينا ، عاقاً لاي انسان ساعده على تحرره . فليطمئن زملائي الآباء ، ولنحب جميعا ابناءنا حبا صحيحا مجردا، نحقق معه حريتهم،

ونسهل به انطلاقهم . ولن نجد في رجولة هؤلاء الشباب إلا دلائل عرفان الجميل . فالشباب خير ، طيب وكريم ، ولن يكون ، في تحقق رجولته ، إلا خـــيراً ، طيبا وكريما . وانني من الذين يثقون بمن نحرر ونحفظ كرامته ، مهما قل احساننا المادي اليه ، اكثر ممن نخضع ونستعبد ، مهما كثر منا اليه الاحسان .

اذكر أن والداً كان قـد جاءني ، قبل فحص البكالوريا بأيام ، ومعه ولده وكثير من كتب التوصية . ثم بدأ يتذلل امامي ، بشكل مفجع ، لأعطف على ابنه في الفحص . فلم استطع إلا مواربته ، آملاً لابنه النجاح . وقد كانت دهشتي عظيمة عندما اعلن نجاح الشاب بتفوق . جاءني ، مساء يوم اعلان النتائج ، مع ابنه شاكراً ، وخيلاء الزهو بارز على تقاطيع وجهه . فلم املك من ان اعلن له ان نجاح ابنه كان بتفوق ، ودون ان يحتاج لاية مساعدة . وانه علينا ان نشكر هذا الشاب النجيب ، لا ان نحمله عبء شكره لنا . وما كدت اتمم عبارتي ، حتى رأيت الدمع يترقرق في مآقي الشاب ، وقد هرع يقبل يدي بحرارة ، اشعاراً بتقديره لجميلي ، وقد انقذت كرامته ! .. والمدهش ، في الامر أن مظاهر الزهو انتقلت من الاب الى الابن ، لأن الاب كان يفضل ان يقال : ان ابنه نجح بنفوذ ابيه ، لا بجهده وذكائه . (وهـذا دليل ما قررنا سابقا عن نتائج الحب المشوب بالرغبة في الزهو ، وعلى شكل يعاكس مثالنا السابق . وللزهو اشكال تتعدد ، وحماقات تتنوع) . انه والد يجب ان يتخذ فلذة كبده وسيلة لزهوه ، ولو ضحى في سبيل ذلك بكرامته ، وهو حشاشة قلبه !.. ولا تستغربن ذلك ، يا قارئي العزيز ، فأنا اعرف الكثيرين من امثال هذا الوالد . وإذا ذكرت حادثة ، فانما اذكرها للتمثيل ، لا للحصر ، وغرضي

ان نتبين اصول مشاكل الشباب ، وهو الذي نعلق عليه الامل، مع نفسه ومع غيره ، ولاسيما مع والديه ، وان نصل الى المبادىء التي نحسن معها معاونته على تربية نفسه .

وانني احب ان اؤكد للوالدين انني اجد ، في كل فرصة ، وقد مضى على حادثة هـذا الشاب ما يقارب الخمس عشرة سنة ، في امارات عرفان الجميل ، من ذاك الشاب، ومن غيره ممن ساعدتني الظروف على مساعدتهم في تحقيق حريتهم وحفظ كرامتهم ، ما يشجعني على نشر هذا المبـــدأ والدعوة اليه . احفظ للشباب كرامته ، يعرف لك جميلك في رجولته ! لان الشاب خير ، طيب وكريم ، في شبابه وفي رجولته .

هذا فيما يتعلق بضرورة الحب الصحيح المجرد ، وبحسن نتائجه . واما العطف الصادق المخلص ، مع الغيرة على مصالح الشاب وحـــده ، فإنه ضروري ايضا في تربية الشباب . وكما ان الحب قـد يكون مشوبا بحب الزهـــو ، او مشوها بالانانية ، فالعطف قد يشوبه التزييف ، وقـــد يشوهه التضليل

فأم حنون ، تقف مانعة ابنها الحبيب من أي عمل يستلزم جهـــداً ، خوفاً عليه من التعب والانزعاج ؛ وأب شفوق ، يخشى على ابنه من القيام ببعض المغامرات التي تستلزمها وثبات شبابه ، ان هما إلا من اشد العثرات موانـــع من تحقق امكانات الرجولة في الشباب . وليس ذلك العطف ، يتواريان وراءه ، سوى عطف مزيف ، يضلل الشباب ، فـلا يهتدى معه الى سواء السبيل . فكيف اذا رافق ذلك تدليع وتدليل ، لا ينتج عنهما سوى ارتخاء اعصاب الشاب ، وخمود شعلة وثباته ، فينطوي عـلى نفسه المكبوتة ، أو يتمرد ، لدرجة العناد ، ان بقي له في اعصابه قوة .

يقول المثل العامي : « الزائد اخو الناقص » وهذا صحيح . فنحن لا نريدها تربية شدة و قسوة ، ولا نرغب فيها تدليلا وتدليعا. « فخير الانماط هو النمط الاوسط » .

فعلى المربي ، اذن ، لا سيما اذا كان ابا أو أما ، ان يثق ، قبل كل شيء ، بعاطفته نحو الشباب ، فيحبه حبا صحيحا مجردا ، أي بعيدا عن تأثير انانيته . ويعطف عليه بصدق وإخلاص ، متجنبا التزييف والتضليل ، في عطفه . وعليه ان يحقق العنصر الثاني في ثقته بنفسه ، وهو عنصر معرفته بأحوال الشباب ، وبما يجب ان يلقن من علم وفكرات .

وقد يتبادر الى الذهن ان ضرورة تحقق عنصر المعرفة مختص بالاساتذة وحسب ، لأنهم هم الذين يهيأون لتربية النشء . فبهم وحدهم يتعلق أمر تركيز التربية على المعرفة والعلم والفكرات . لا نشك ، هنا ، في ان اكثر هذا العبء ، يقع على عاتق الاساتذة . فهم المفروض فيهم انهم يستطيعون ان يدرسوا احوال الشباب ، ومظاهر نفوسهم ومشاكلهم ، وطرق حلها . وهم الذين يظن فيهم القدرة على تلقين العلوم ، وتوضيح فكرات السلوك. والخطأ الاكبر ، في تربية الشباب ، انما ينشأ عن وضعه في دائرة نفوذ من لا يحسن هذه المعرفة ، ولا تلك الدراسات ، من الاساتذة. فهؤلاء هم المسؤولون ، بالدرجة الاولى ، عن تثقيف الولد تثقيفا ينسجم مع استعداداته النفسية ، عامة ، والذهنية ، خاصة. ولا يستطيع تحقيق هذا الانسجام استاذ ، يجهل القوى النفسية والذهنية ، في طلابه وتلامذته . ويخون مسلكه ، ووطنه ، أي استاذ يتعرض لتربية الشباب وهو غير واثق من معرفته بهم ، وبما يجب أن يلقنوا من علم وفكرات .

واذا القينا التبعة ، جلها ، على عاتق الاساتذة ، في تحقيق عنصر المعرفة

في ثقة المربي بنفسه ، فاننا لم نفكر مطلقا في تنحية الوالدين عنها . فهما ، وان فرض انهما على ثقافة علمية ضعيفة ، او معدومة ، يستطيعان الاعتماد على خبرة الحياة والتجارب ، وقد تعرضا لها ، في تنوير الأبناء . وان هذه الاختبارات ، وأمثالها ، هي التي تتكون منها اصول العلوم التي ينعم بها المثقفون، علميا . والثقافة ، في نظرنا ، على نوعين : الثقافة العلمية ، وهي التي تساعد، عادة ومبدئيا، المدارس المعروفة، على تكوينها، بطرقها الخاصة، وعلى اختلاف درجاتها . والثقافة الاختبارية ، وهي التي تكونها مدرسة الحياة والعمل . وخير ثقافة هي تلك التي تجمع بين الثقافتين . ومهما كان الأمر ، فللثقافة الاختبارية العملية اهميتها وقو تأثيرها في تربية الشباب . ولا نعدم حولنا نساء ورجالا ، لم ينلهم حظ التعلم في المدارس ، فنشأوا اميين ، لا يقرأون ولا يكتبون . ومع ذلك لا يندر بينهم من تنفجر الحكمة العملية على لسانه ، نتيجة لجهاده في حياة العمل ، ولاختباراته المتكررة في مختبر الحياة .

ان أنس شيئا ، فلن أنسى يوما سمعت فيه ، وانا في سيارة عمومية ، رفيقين أميين ، يتحادثان ويتشاكيان على مسمع مني . وكان احدهما يشكو من تقييد الاستيراد ، بل من منعه ، بسبب الحرب . فما لبث ان عبر عن ألمه بقوله مخاطبا صديقه : « يا خيا ، والله ما حلوه الدنيَ إلا اذا كان الانسان حر ما عليه آمر إلا لمن بضر » ومعناه بالعربي الفصيح : « والله يا أخي ، ليس لهذه الدنيا أي جمال اذا لم يكن الانسان فيها حرا ، ليس عليه آمر الا اذا اضر » . فأخذت بتعبيره البليغ ، مع فقده بعض عناصر الفصاحة ، وتأملته ، فاذا انا اجده ابلغ ماسمعت في بيان حقيقة الديموقراطية ، وسيادة الشعب .

ان للثقافة العملية ، في نفس المرء ، تأثيرا جديرا بالاهتمام الكلي . انه قد يتجاوز ، في عمقه ، وفي فهم الحياة ، وفي التعبير عنها ، ما يصل اليه المكتفي بثقافة الشهادات . لا سيما اذا كان العامل في حقل الحياة ذكيا ، نشيطا ، ومخلصا في عمله . وليست العبارة السابقة وحيدة فيما نسمع من هؤلاء العاملين ممن تثقفهم الحياة ، ويهذبهم اختبار العمل ، في حقولها . قد تكون من ابلغ ما سمعت ، ولكنها ليست كل ما سمعت ، ولا اقله فائدة . فقد سمعت كثيرا ، ووعيت من ذلك كثيرا ، وافدت مما سمعت فوائد جمة . ولا اظنني الوحيد بين من انتبهوا لثقافة الحياة ، واستفادوا منها . فلمَ نحرم الشباب من الارتواء من مياه معينها العذب الصافي ، وهي مياه لم يداخلها كدر التصنع والتمويه ، ولا التزييف ؟ ... فليثق الوالد ، ولتثق الأم ، وعلى وعي منهما ، ومهما ضعفت ثقافتهما ، عن طريق الشهادات بمعرفتهما بالحياة . والا فيخشى ان تصبح عقدة شعور النقص ، فيهما ، سببا يحرم ابنهما الشاب من نتائج اختبار الحياة وتجربتها .

وليثق كل منهما بأنه قادر على ادراك الكثير من كنه نفسية الشباب ، في الأبناء ؛ وان هذا الكثير ، وان قل عند البعض ، يظل اكثر صفاء في رونقه ، وأصدق تعبيراً عن الحقيقة . انه يصدر عن عاطفة حب الآباء وعطف الامهات ! : . .

يعجبني هنا مثل عامي يقول : « يا حمايه كنت كنة » ! . . ومعناه بالعربي الفصيح : « أيتها الحماة ، قد كنت كنة » ! وقصة الحماة والكنة مستمرة ، لا يجهلها احد . وانما أراد العامة ، في هذا المثل ، تقريع الحماة ، اذ تسيء معاملة كنتها . انهم اتخذوا سبيلا قويماً بتذكيرها بحالتها عند ما كانت في الوضع ذاته . فلم لا تذكر الألم الذي كان يلازم نفسها ، لسوء

معاملة حماتها لها ؟ أفلا يليق بها ، وقد خبرت سوء تأثير الظلم والاساءة ، في النفس ، ان ترتدع عن اعـــادة تمثيل ذلك الدور المفجع ، في رواية الحيـاة ؟ ... ولكن الجهل ، أو الغيرة ، أو غـير ذلك من الصفات أو الغرائز ، قد تبعث في نفس الحماة عاطفة الانتقام لنفسها ، فتحاول الانتقام من حماتها ، بكنتها .

ليسمح لنا القارىء الكريم أن نستمد من هذه الطريقة العامية ، في الاستدلال والبحث ، مادة لبحثنا . ولا غضاضة علينا اذا تبعنا العامة في هذا المنطق الفطري السليم ، وقلنا للآباء والأمهات : انكم مررتم في هذا الدور ، دور الشباب ؛ وقليل من التأمـل المجرد المستند الى الانصاف من النفس ، والى العدل في الشباب ، يؤدي بكم الى تفهم حقيقة الشباب ، والى انصافه . واذا كنتم ممن يعتقدون وقوع بعض الاساآت نحوهم من أمهاتهم أو من آبائهم ، فلا تتخذوا من صفة الاستعلاء ، بالابوة ، وسيلة للانتقام ، من آبائكم ، بأبنائكم ! ... لا يجوز للوالد ان يقول : كان أبي شديداً قاسيا عليّ ، فلأكن شديداً قاسيا مع أبنائي ! وليكن برا بأبيه ، فلا ينظر لقسوته بمنظار أسود . فقد كان في زمن غير زمنه ، وقد عرف الولد من الحياة ما لم يعرفه أبوه ! وليثق أن أباه كان مخلصا في حبه وعطفه ، لانه أب ؛ ولكنه لم يكن يستطيع التفريق بين الحب المجرد وبين الحب المغرض ، او الاعمى . انه لم يكن في حالة تجعله يميز بين العطف المزيف المموه ، وبين العطف الصادق . فكن انت مخلصا لابنك ، وسر مع الزمن ! ..

ان جو الحياة ، اليوم ، يسمح للمربين ، من أولياء واساتذة ، بأن يحسنوا التمييز ؛ واتجاه المصالح يشجعهم على اختيار الانسب ؛ وتيقظ الايام يجعلهم واعين لما اختبروا ، اذا شاؤوا وتأملوا بإخلاص وروية .

فلا عجب اذا طالبناهم ، واذا طالبنا الآباء خاصة بأن يثقوا بأنفسهم ، عاطفة ومعرفة ، كل حسب ثقافته ووعيه ، ليفيدوا الشباب بأقصى ما يمكن . وسيكون هذا وفيرا وجزيل النفع ، ما دام الاخلاص والصدق ، والتفكير الصحيح ، روّاد هؤلاء المربين ؛ وما داموا يثقون بمن يعنون بتربيته من الشباب :

ب - ثقة المربي بمن يعنى بتربيته :

الولد صيرورة . وثقة المربي به ، هي ثقة بالغرائز الانسانية ، وبالقوى الفطرية ، في كيان طفولته وصبوته . هي ثقة بالنشاط الطبيعي ، وبفعاليته ، في نفسية ، لها تركيبها الخاص وكيانها المستقل . انها ثقة بالمظاهر التي تميز الولد عن الشاب ، وعن الرجل . والثقة بكل هذه المظاهر ، والنشاط والقوى والغرائز ، تعني انتظار تعاونها وتفاعلها ، كلها ، في تهيئة اسباب ما تنتظره من انقلاب الولد رجلا يوما .

اما الشباب ، فانه امكانات ، يجب ان يتحقق الاصلح منها ، لتتحقق الرجولة التي قامت النفس بتهيئتها في دور الولودة ، أي الطفولة والصبوة . فاذا كانت الولودة دور التهيئة والتحضير ، فالشباب هو دور التحقق . وكل شاب لم تتحقق امكانات شبابه رجولة ، أضاع أمل الافتخار بها ، على حد قول الشاعر :

اذا بلغ الفتى عشرين حولا ، ولم يفخر ، فليس له فخار ! ...

والرجولة لا تتحقق الا نتيجة لما يتم ، بين المتناقضات ، من تفاعل ، يذكي لهيبه شتى الانفعالات . لذلك كان الانفعال الذي نشكو منه ، في الشباب ، عنصراً أساسيا في تكون الرجولة فيه ، لما له من أثر في تركيز الفكرات في الفؤاد ، على ماسيأتي . وهذا الانفعال قد يصبح خطراً قويا ،

يبعد الشاب عن الرجولة الحقة . وقد يعيده لطفولة مشوشة ، اذا تركز على الترهات والسخف، وعلى الفكرات الصبيانية ، وهي لا تزال تجتذبه اليها في هذا الدور . قد يصبح الانفعال ، في هذه الحالة ، عنادا، فيشتد الخطر . وقد ينقلب الشاب ساخراً بالمثل العليا ، وبكل تفكير سام، أو فكرات كبيرة ، فيظل ولداً ساخراً لا يعرف الاتزان، وينهار مستسلماً لدواعي الفساد .

لا بد هنا من توضيح ما نفهم بالفساد . قررنا سابقاً ان الهفوات لا تخيفنا، لانها لا تعني، في نظرنا، وفي غالب الاحيان، سوى التمرن ومحاولة الاختبار . فاذا توالت في نوعها ، واقترنت بالانفعال العنادي ، أصبحت فسادا ، نخشى ان يستقر في نفس الشاب ، فيزمن ، ويستعصى على المربين شفاؤه . وانما يحصل ذلك لسببين متعاكسين : الافراط في الحزم ، لدرجة الشدة والعنف والقسوة . أو التفريط به ، لدرجة الضعف والاستسلام ، متلونين بألوان التدليع والتدليل .

في هاتين الحالتين ، الناتجتين عن الافراط والتفريط في الحزم ، نعبر، في الواقع ، عن عدم ثقتنا بطبيعة الشباب . فنغالي بتداخلنا في تربيته ، بباعث الحب المصطنع ، فنخرج عن العطف الصادق ، متكلفين العنف والقسوة ، بوحي من عطف نموه . وقد نتداخل بباعث الحب الخادع ، والعطف المزيف ، فنلقي له الحبل على غاربه ، خوفاً من أن يتألم . فنتناسى بذلك فضل الالم في تكوين الرجال، اذا أثر في النفس، في الوقت الملائم ، وعند حدود تستلزمها الضرورة .

فما هي هذه الحدود ، ومتى يحين الوقت الملائم ؟ . . هذا ما يتعذر الوصول اليه ! . . . وكيف نستطيع سبر غور حياة انسانية ، في حالة

انفعال ، يذكي تفاعل المتناقضات فيها ، لتتركز وتستقر ؟ . . . إذا قرر العلماء ان العلم قـــد يعجز عن تقدير حركة سريعة في الطبيعة ، فكيف نستطيع نحن ان نحاول تقدير الحركات السريعة في الحياة ؟ وفي حيـــاة مضطربة مشوشة ؟ ! . . بل كيف نستطيع ان نقرر حالة الفساد فيها ، بشكل قاطع ، ونحن مسوقون ، في كثير من الاحوال ، لاعتقاد الفساد في كل ما يخالف ما اطمأنت اليه نفوسنا ؟ . .

لا شك ، اننا مضطرون لان نكون واثقين بمن نربي من الشباب ، إذا كان الاخلاص ، في الحب ، والصدق ، في العطف ، رائدين لنا في تربيتهم . فالشباب رحب وخير ! وفي وثبات الحياة فيه كثير من الحكمة . فلنثق بوحي الحياة في الشباب ! . .

جاءني ، يوما ، صديق عزيز ، وكانت امارات الألم والغضب ظاهرة في تقطيب وجهه . وما ان جلس ، حتى كاشفني بدخيلة نفسه . فإذا هو يشكو إلي سوء سلوك ابنه . وكان دليله الوحيد توالي تأخره في المجيء الى البيت ليلا . زاد في سوء ظنه ، مقوياً دليله ، حالة ابنه عندما كان يسأله عن سبب تأخره ، او عن المكان الذي جاء منه : قد كان يحمر وجه الشاب ، عند استماعه لأسئلة ابيه ، فيجيب عليها بكلام مبهم ، فيه كثير من الغموض ، وشيء من التحدي . فكيف لا يسيء بابنه الظن ؟ وكيف لا تذهب به الاوهام مذاهبها ؟ . . ولدى التحقيق ، ثبتت لي براءة الشاب ، ثبوتاً أقنع الوالد : فهو يقضي السهرة مع رفقاء له ، وكلهم مهذبون ، في المنازل ، وبطريقة التناوب . فيذاكرون دروسهم حينا ، ويتلهون بالالعاب البريئة حيناً آخر .

لم تكن للسهرة ، في داره ، نوبتها ، لانه كان يخشى أباه الشديد ،

وامه التي تكره الضيوف . وما كشفت لوالديه هـــذه الحقيقة ، مبيناً الاخطار التي قد تنتج عن هذا الوضع، والشاب في حالة كبت، حتى قرر الوالدان ان يفسحا لابنهما مجال قضاء السهرة في الدار ، عند حلول نوبته ، مع اكرام ضيوفه اكراماً تقر له عينه . وقد كان لهـذه الثقة ، يتبادلها الشاب ووالداه ، اثرها الطيب ، وقـد ارتاحوا له جميعا ، وتبدلت حالة الشاب، متحسنة في كثير من مظاهر سلوكه في البيت .

فلا تذهبن بنا الظنون والاوهام، مذاهبها السيئة، كلما لاحظنا ارتباكا في اجوبة الشاب ، او غموضا ؛ ومهما احمر لذلك وجهه ! .. فهذا لا يعني دائماً انه كان مقترفا ذنبا ، او متلبسا بجريمة ! انه قـد يكون في الدور الذي تتفتح في نفسه زهرات روح الاستقلال، ونسمات الحرية ، وبسمات الاعتداد بالنفس ؛ فتنتعش في نفسه ذاتية «الانا» . وتبعث في تلك النفس وثبة انطلاق ، يتولد عنها امتناع اباء ، يجعل النفس تتألم لأي تدخل في شؤونها الخاصة ، أيا كان هذا المتدخل . في هذه الحال ، يترفع الشاب عن ان يكون مراقبا، لانه يحاول ان يتجاوز نفسه، بتحريرها، وتوطيد دعائم استقلالها . فساعده ايها الوالد الحنون ، وثق به ، معتمداً على ما تتفجر عنه نفسه ، في هذا التفتح والانطلاق ، من مروءة ونخوة وشهامة .

لنذهب في تأويل حوادث الشباب مذهب التفاؤل؛ فالشباب امل !.. ليثق كل مرب ان في نفس كل شاب ، بحكم توثب روح الشباب فيها ، رغبة اكيدة، وميلا عميقا لان يتجاوز نفسه ، سعيا وراء الاشتراك ، مع غيره ، في اسمى الاعمـال التي تؤدي لرفع مستوى النوع البشري عامة ، ومجتمعه الوطني بصورة خاصة . في هذا الـــدور تبرز في النفس ميول لتحقيق صفات جديدة ، في مقدمتها الشعور بالتبعة وبوجوب تحملها ،

وبضرورة التعاون وتجنب الاستئثار. فيتخلى الشاب، تدريجيا، عن الكثير من نزعاته الفردية، ولاسيما الصبيانية منها، ليندمج في المجتمع. فلاعجب إذا ضحى بالقسم الاكبر من وقته، مجتمعا برفاقه الشباب، ليتعاون معهم على تحقيق هذه الصفات، وعلى رسم خططٍ لمستقبلٍ، اصبح يرنو لتحقيقه، حسب مثل عليا يكونها في نفسه، بعد أن تيقظ فيها شعوره بالتبعة.

ان انسانيته في حالة التحقق، في هذا الدور؛ فلنثق بروحه السمحة المرحة، ولنفسح لها مجال العمل الحر؛ ولندعها تنطلق، لتنبثق عنها انبل الصفات. انها إذا كبتت، في حال التفتح والتوثب، يسيطر عليها الخمول والانقباض والفتور، وتثور ثورة هوجاء، تنتهي بالعناد والفساد.

لا تخدع، ايها المربي، باستكانة الشاب وخضوعه وهدوئه! فليس في هذه المظاهر ما يبشر بالنهضه، ولا ببوادرها، في الفرد، او في المجتمع. واستمع لعالم مفكر يقول: «ان الاولاد الوديعين الهادئين، الذين يقبلون ما عليه المجتمع من تفكير ونزوع، دون مقاومة، يكونون في المستقبل نماذج لطبقتهم ومحيطهم. فيخسرون في ذهنهم ذلك البريق الالهي، مصدر الابداع، الذي يغني الارث العالمي».

ان الشباب بحاجة الى الارشاد والتدريب والتوجيه. ولكنه، وهو في دور التحرر، وتحقيق استقلال الذات، يأبى ان يكون تدريبه امراً مقتضبا، او نهيا جافا، او بشكل الضغط والقسوة. وإذا اجبر على الخضوع لهذه المظاهر، تلاشت ذاتيته، وانهارت شخصيته وانسانيته. انما يؤثر في نفسه ما يثبت لديه من اخلاص مربيه وعطفه الصادق. انه يرتاح لثقة المربين به، فيطيع مختاراً، لا خضوعا، وينفذ ما يؤمر به، عن ادراك وروية. عندئذ، وبفضل الثقة، يفعل التنبيه الحكيم فعله،

لاسيما إذا جاء في الوقت المناسب .

انه ، في هذه الحال ، لا يقبل ارشادك وتدريبك ، وحسب ؛ بل قد يتحمل قسوتك في النصح ، ويرتاح لها ، ما دمت لا تمس كرامته وعزة نفسه ، وما زلت تضرب على وتر مصلحته ، لا على وتر مصلحتك ، وما تنتظر منه في المستقبل . اضرب دائماً على وتر الغيرة على مصلحته هو ، وعلى مستقبله .

ثق بالشباب ! . . . فقد تؤثر ثقتك به تأثيراً ، يجعله يبكي أمامك إذا احسنت نصحه ! . . . انه قد يبكي ، لا تألماً مما تقول ، بل خوفاً من ان يخسر ثقتك به ! . يؤلمه ، إذا كنت حكيما ، حازما ومخلصا ، ان يفقد تلك الثقة . فكن الحكيم الحليم الذي لا يرى في الهفوة فساداً ، ولا في الغلطة داعيا لعدم الثقة بحسن الطوية وصدق النوايا ! . .

انك بمنحه ثقتك تمنحه القوة . لذلك تراه شاعراً بالحاجة اليها ، يتألم لفقدها . فما اروعه مشهداً ، يتألم فيه الشاب خوفا من ان يخسر ثقة مربيه ! وما اشد ملاءمة هذا الوضع لتأثير كلماتك في نفسه ! . . . وما اجملها ثقة تنبثق منها ثقته بنفسه ! . . .

ج — ثقة الشاب المتربي بنفسه :

قلت الشاب المتربّي ، ولم اقل المربّى ؛ لأن المربى ينمو بفعل غيره . واما المتربي ، فينمو بفعل ذاته . الانسان كائن حي . والكائن الحي يمتاز بنموه الذاتي في الطبيعة . فهل يخرج الانسان ، وهو اسمى الكائنات الحية ، نمواً ، عن هذه القاعدة ؟ . . فمن الخطأ الاعتقاد ، وهـــذه فكرة نسمح لأنفسنا بأن نرددها مرة اخرى ، اننا نستطيع تربية اي كائن حي ، اي

تنميته ، في مميزاته . فهو ينمو بذاته ، ونحن نساعده ونهيء له الاسباب والوسائل ، ضمن دائرة امكاناتنا ، وما قـــد يرشدنا اليه العلم الصحيح والاختبار الصادق . فليس من المعقول ان يعتمد الشاب – وهو في دور وعيه الانساني، وعلى الرغم مما يسيطر عليه من انفعال وتنازع وتناقض – على الغير في تربيته ؛ وليس من الانصاف أن يلقي التبعة ، في سلوكه ، حسنا او قبيحا ، على امه وأبيه ، أو على مربيه . ان كان لهؤلاء قسطهم في التبعة ، من حيث المساعدة والتسهيل واختصار الوقت ، بفضل الحكمة في ارشادهم ، وفي تهيئة الوسائل ، فليس له ان يتعلل بهم ، إذا اضل السبيل . فقد أودعه الله قوى حيوية ، جسميا ونفسيا ، ومنحه نشاطا ذاتيا ، وحباه بعقل لا يخطىء ، إذا لم يخدع الانسان نفسه ، ولم يعمل على تضليلها . وما وثبات انطلاقه ، في حياته ، سوى وحي لتلك القوى والنشاط والعقل ، وقد اودعها الخالق فيه .

يرى العلمـاء ، على ما سبق بيانه ، ان النمو الحر الطبيعي للحياة ، وللشخصية الانسانية ، هو شرط اولي لوجود العلوم العقلية . فأجدر به ان يكون شرطا اوليا لوجود انسانية الانسان ، ولتحقيقها ! ..

ولا فرق عندي – في قولنا : ثقة الشاب المتربي بنفسه – في ان تعلق الجار والمجرور ، وهما « بنفسه » ، بكلمة المتربي ، او بكلمة ثقة . بل قد اردت تعليقهما بالكلمتين معا . وهـــذا هو التنازع ، في اصطلاح النحاة . وكان بامكاني ان اقول : ثقة الشاب بنفسه وتربيته لها . او تربية الشاب لنفسه وثقته بها . وانما فضلت الابقاء على التنازع ، احياء لهـــذا التعبير العربي ، وللمشاكلة مع جونا الذي نعيش فيه ، في هذا البحث ، وهو جو يزدحم فيه تنازع الشباب مع نفسه ، ومع بيئته ، في تقاليدها وتفكيرها

وسلوكها ، ومع مدرسته، في مناهجها وفحوصها وكتبها، ومع من تقدم وتأخر من المفكرين والقادة والجماهير . انه تنازع متصل الحلقات ، في نفس الشاب النامية، وعليه نعتمد في تركيز المتناقضات، واتزان الاعمال، وتعديل الانفعال . ان هذا التنازع ، هو الذي يثير شعلة الحيـــاة في الشباب ! فتتقد نفسه ناراً ، تصهر ذاتيته ، فتحرق المواد الغريبـــة عن انسانيته ، ليصبح معدنا انسانيا صافيا ! ورحم الله المعري ، القائل :

ان الشبيبة نار ، ان اردت بها
امراً ، فبادره ! إن الدهر مطفئها !..

وانمـــا يراد بها امر تحقيق الرجولة في الشباب . فليبادر الشباب الى بلوغ هدفه ! وإذا بلغه ، وتحققت فيه الرجولة، فلن يطفىء الله تلك النار المقدسة ! . . بل تظل متقدة في نفسه ، طول حياته ! . . وما انعم حياة تنيرها شعلة نار الشباب الدائم ! . . . وإلا فإنه يصح فيه ، لا سمح الله ، قول السري الرفاء :

شباب المرء ثوب مستعار ؛ وايام الصبى ابـداً قصار !

اعاذ الله جيلنا الطالع من أن يكون شبابه ثوبا مستعارا ، ومن أن تكون أيام الصبى ، فيه ، قصاراً ! .. اننا نريد له شبابا دائما ، تحرق ناره كل بدعـــة سيئة ، وكل تفكير رجعي ، يدعو للتقهقر والتراجع ، وكل شعور بالضعف والاستكانة والاستسلام ، وكل روح خبيثة ، فينا ، تدفعنا لتحمل الاذى والذل ومرارة الاستعباد، حرصا على ملذات الترف الوقتية الخادعة ! . . . انا نريدها حياة نمو حر ، لا وقفة لاستمراره ! ولا نريدها معيشة أكل وشرب ومتاع ! إننا نريدها حياة رحبة خيرة ، تعم الجميع ببركتها ونعيمها ؛ لا معيشة ضيقة شحيحة ، يترف فيها البعض ، ويجوع

الآخرون ؛ فيستعبد الناس الناس ، ويسوق بعضهم بعضاً من البطون ، وبحبال الاوهام ! . . .

فاعمل على ان يكون شبابك شباباً دائما ، في تحقيق رجولتك ! ولا تخش الحياة ، ولا تخف من متاعبها ! . . ففي هذه المتاعب انقاذك ! وما خلق الانسان إلا ليسعى ، ولا سعي إلا بالتعب ! . . . لم يخلق الانسان للترف والكسل والخمول ، وإنما خلق للعمل والجد والمجد ! . . ولا يتم لك ذلك بغير الارتياح للتعب في اعمـــال ، تكتنفها الحكمة والكرامة والنشاط ، في نطاق صالحك الذاتي والمصلحة العامة ، في المجتمع ، وفي كل ما هو انساني ووطني . وانما تتناسب شدة التعب مع سمو المطالب . وما أصدق ابن نباته السعدي في قوله :

سعى رجال ، فنالوا قـــدر سعيهم .
لم يأت رزق ، بلا سعي ولا طلب ! . .
حسن التأني مفاتيح الغنى ، وعـــلى
قدر المطالب ، تلقى شدة التعب !

ومن لم يعرف كيف يحقق ، في نفسه ، مسرات الحياة السامية ، ولا كيف يتذوق روائع جمالها ، عاش في ضنك الملل والضجر ، وتحت ضغط آلام الرذيلة واوبائها ! . . فانتبه ، ايها الشاب ، لما يجب ان تختاره لنفسك في دور التهاب نار شبابك ، في حياتك ! . . فعلى انتباهك هذا ، وعلى ما تختار في تكوين نفسك ، يتعلق مستقبلك وهنائك ، وسعادتك ، او اضطرابك وشقاؤك ، في مستقبل تسير اليه حتما ، أردت أم لم ترد . . . فسعادتك وهنائك بين يديك ! . . .

قال دي فيني : « ليست الحياة العظيمة سوى حلم للشباب ، تحقق في

الكهولة » . وهذه حقيقة واقعية ، يؤيدها التحليل النفسي لكل ما تعيه الذاكرة، من مظاهر حياة الانسان الواقعية . فكل مايتذكر الانسان، من وقائعها الاصيلة ، انما تكون في اول الامر انتظاراً ، اي صورة او فكرة ينتظر الانسان تحقيقها ، وقد يتمناه ، ثم تصبح واقعا ، يتلمسه ، وقد يتذوقـــه بفرح أو ألم ، ليستقر بعدها ذكرى ، تدخل على القلب السرور والانبساط والرجاء ، او الألم والندم والقنوط . وما عدا ذلك، من الذكريات ، اعراض ، ليس لها تأثير جوهري ، في حياة الانسان . وهكذا ، فان دور الانتظار ، في حياة الانسان ، وفي مجمل ما يتعلق به تكوين رجولته ، انما يكون في دور الشباب ، لتصبح احلامـــه حقيقة واقعيـــة في الكهولة ، وتنقلب ، بعدها ، ذكريات حلوة ، تنسج منها الشيخوخة قميص سعادتها ، او ذكريات مرة ، تكتوي الشيخوخة بنار آلامها . وما اشد آلام الندم ، لاسيما في دور من أدوار الحياة، يعجز فيه الانسان عن تدارك ما فات ، أو ارجاع ما قد تلف !

لا تذهبن بك الظنون والاوهام، ايها الشاب النامي، فتعتقد أن شباباً يكون عـــدواً للعمل ، يتبع مبدأ اقل جهد ممكن ، خوفاً من التعب ، يستطيع الادعاء بأنه سيوطد لوطنه مستقبله ، محققاً تركيز دعائم استقلاله وكرامته ومجده ، وتقويتها !.. لا تذهبن بك الظنون والاوهام، فتخدع بأقوال من يقولون : إن المبادىء السامية، والمثل العليا، هي من الانسجة القديمة التي لا تتلاءم ، بألوانها وأشكالها ، مع حيـــاة العصر الحاضر . لا يستطيع شباب، يهمل المبادىء السامية، ويحتقر العمل، ان يحتفظ بكيانه الذاتي ، كانسان ، في الكهولة ، ولا ان يساهم ، في توطيد مستقبل وطنه، أية مساهمة !..

قد يخدعك بعض المترفين ، الفاسدين المفسدين ، فيقول لك : « دع الحياة تسير ، فانك اضعف من ان تؤثر في توجيهها ! . . . ما لك ولهذه العلوم والنظريات ، وما تجديك محاولتك تفهم الحياة ؟ فنحن اعجز من ان ندرك سرها !.. كن عملياً واعمل على ربح الدراهم ، بأية وسيلة كانت ، لتستطيع انفاقه كما تشاء !.. مؤكداً لك ان هذا هو كل ما في الحياة من معنى ومتاع . فما الاخلاق ، ولا المبادىء ، سوى كلمات جوفاء ، حشرها بعض الناس ، في الكتب ، وستظل باقية ، فيها ، إلى الابد !.. » .

أدعوك في هذا الموقف ، وانت امام فاسد مترف كهذا ، الى التأمل والدرس والتفكير ، قبل ان تتأثر بقوله . والق على نفسك هذه الاسئلة : هل هذا المدعي للفهم سعيد ؟... ام ان كلماته ، هذه ، تنم ، في الحقيقة ، عما في نفسه من آلام ، اوقعته فيها سموم الضجر والملل ، لأنه لايحيا انسانا ، وإنما يعيش حيوانا ؟ . . ثم ارجع الى تاريخ الامم ، وحقق في ادوارها ، وحاول ان تستخرج أسعد أدوارها منها ! . . أتراه دوراً سادت فيه المبادىء ، أم أُهملت ؟ . . . أتستطيع امة ان تحتفظ بكيانها ، وتنعم بالامجاد ، تلو الامجاد ، دون ان يكون لمبادىء التضحية والشجاعة والتضامن والادراك لحقائق الحياة ، ولغيرها من المبادىء السامية والفضائل ، اثرها في تكونها الاجتماعي ؟ . . . وهل يسعد انسان يسخر بمبادىء الثبات والاستمرار والاباء ، وبغيرها ، من مبادىء تكوّن انسانية الانسان وفضائلها ؟ ...

ولا يغرنك ما قد يريده هذا المترف الفاسد ، او الجائع القانط ، مما قد ينبهك اليه من أحوال بعض الناس ، في الامم الكبيرة الراقية ، أو مما يصدر عن هذه الامم من تصرفات ، لا تتلاءم مع المبادىء السامية

والاخلاق الفاضلة ! .. فهناك حقيقة لا بد لك من تفهمها ، وأنت في دور تكون ذاتك : هي أن بوادر الانحطاط قد اخذت تبرز في هـذه الامم العظمى. وبقدر ما اثرت فيها هذه البوادر، بعدت عن السعادة التي كانت تتمتع بها ، مجموعـــاً وأفراداً ، في ادوار النهضة ، مع ان وسائل النعيم كانت ، في تلك الادوار ، اقل مما هي عليه الآن . وإذا بقي لهذه الامم بقية من قواها وامجادها ، فبفضل بقية من تلك الاخـــلاق والسجايا والمبادىء . فإذا زالت ، فإنها ستنهار ، ولو كانت تمتلك القنبلة الذرية . فان هذه ستكون وسيلة دمارها ، ولن تستطيع حفظها من الهلاك . تأمل حوادث الكون ، وادرس احوال الناس ، على سجيتهم ، تتحقق ان السعادة مظهر انساني بحت ، فلا سعادة للحيوان او الجماد ! . . وان هذه السعادة تتحقق في نفس الانسان ، وفي ضمير المجتمع ، بقدر ما تتحقق فيه عناصر انسانيته . وان هـذا التحقق انما يتم على اساس التفهم للحقائق ، وإدراك نواميس الحياة ، في واقعها، لا في احلام الاوهام ، ولا في سحر الالفاظ ، وشعوذة التعابير ! ...

. فحياة الانسان انما تبنى على اساس تأويله الشخصي لتجاربه الخاصة ، في كفاح الحياة. وصحة تأويله تتوقف على قوة ادراكه ومعرفته، ولاسيما على قدرته على التمييز بين الاحلام والاوهام ، وبين الواقع والحقيقة . وهذا يقتضي ، حكما ، ان يكون ، في تحقق النفس الانسانية ، تفاعلات قوية مجردة ، يثيرها نشاط حيوي سليم . وهذا النشاط ، وذاك التفاعل ، لا يأتيان من الخارج ، وانما هما يتحققان في الداخل ، وعليهما مدار تربية الشباب . ولعلهما يعنيان ما عبر عنه البحتري بالقريحة في قوله :

إذا المرء لم تبدهك بالحزم والحجى قريحته ، لم تغن عنك تجاربه . . .

والحقيقة انه لا قيمة للتجارب ، إلا بدرجة صحة تأويلها الشخصي ، في داخل كيان الانسان ، نتيجة لتفاعلاته وتشاطه ، في اعمال ادراكه وذهنه . وهذا ما اراده لينبتز في قوله : « ان التجربة تساعدنا على الفحص والبحث ، ولكنها لا تصلح دليلًا او قائداً » .

فدليل الانسان في داخله ، او في قريحتـــه ! .. اي فيما يتم فيها من تفاعلات داخلية ، شخصية ذاتية ، عليها كل الاعتماد في تربيته وتوجيهه . والشباب في دور التكوّن ، اي في اهم الادوار تأثراً ، من هذه التفاعلات ، ومن اعتمادها على الادراك والتجـــارب والتأمل ، في تحقق الرجولة في نفسه . ولعل الشاعر العربي انما اراد ذلك عندما قال :

لا تنتهي الأنفس عن غيها ، ما لم يكن ، منها ، لها ، واعظ !..

فعلى الشباب ان يدرك ذلك إدراكاً تاما ، وأن يعتقد أنـــه هو المسؤول الاول عن تربية نفسه . فيجب ان يتحرر وأن يحسن التصرف والاختيار . وليس له مخرج من ان يبني كيان طريقته الخاصة ، في تربيته لنفسه ، على ركائز ثلاث ، تستمد طريقته متانتها وقوة تأثيرهـــا ، في تكوين رجولة الشباب ، من متانتها وقوتها ، وهي :

(١) إدراك صحيح لنواميس الحياة الانسانية ، وكيفية سيرها ، في سلوك الفرد ، وفي تكوّن المجتمعات .

(٢) التنبه الذكي لما يتعرض له من تجـــارب ، ولما يقوم به من اختبارات ، وملاحظة نتائجها .

(٣) تأويله الشخصي لتلك التجارب والاختبارات ، على ضوء ذلك الادراك .

فهل يستطيع ذلك بمفرده ؟ . . . على الرغم من ضرورة ثقة الشباب

بنفسه ، في امر القيام بتربيتها ؛ وبالرغم من أنه يجب ان يعتقد بمسؤوليته وحده عن تربية نفسه بنفسه ؟ . . . انه ولا شك بحاجة قوية لمساعدة من يعنى بأمر تربيته . وفي ثقته بهؤلاء ، انما يقوي ثقته بنفسه ؛ ولاسيما عندما يختار هو الثقة ، بإدراكه لأهميتها . فما هي حقيقة هذه الثقة ، ثقة الشباب بمن يساعده على تربيته لنفسه ، وما هي اهميتها ؟ . .

د — ثقة الشباب المتربي بمن يساعده على تربيته لنفسه :

يولد الانسان ولادة ثانيـة ، في اول دور شبابه ؛ فيخرج من دور الولودة ، أو الصبوة ، وهو حائز على شيء من المعرفـة ، دون ان تخلو حياته من بعض التجارب والاختبارات . غير أن ما قـــد عرف ، او اختبر، لا يزال قليلاً بالنسبة لما تقتضيه الحياة من معرفة وخبرة ؛ والاقل، في ذلك ، هو ما يدركه الولد إدراكاً صحيحاً مما عرف او اختبر ؛ بله ما يتعذر عليه من التأويل الشخصي ، للتجارب وللحوادث . فهذه قوى تبرز ، تدريجياً ، في دور الشباب ؛ وتتفتح أزاهيرها في رياض حيويته . ولا بد لتفتحها ، وبروزها ، من أسباب مهيئة ، طبقاً لما يتم في زراعـــة النبات ، من تهيئه الارض ، بحرثها وتسميدها وارواءها ، لمساعدة البذر او الشجر على النمو نموه الذاتي الطبيعي . فإذا هيأت الحيـاة ، في دور الولودة ، نفس الانسان ، لتقبل البذور ، في دور الشباب ، ولتكون ارضاً صالحة للنمو الطبيعي ، وجب وجود من يهيء لها تلك البـــذور ، ويحضر وسائل الزرع ، بحرث الارض، وبتنقيتها ، وبإرواءها وتسميدها . فالاعمـال اللازمة لانماء البذور ، في ارض النفس البشرية ، إنما تقوم بها النفس ذاتها . ولا حاجة لها لأية مساعدة ، إلا في تهيئة البذور ، وتحضير آلات العمل ، بالتعليم والارشاد . والامهات والآباء والمربون ، هم اجدر

الناس بالقيام بهذه المساعدة الثمينة . ولا غنى للشباب عنها ! . .

قلنا : ان الامهات والآباء والمربون ، هم اجـــدر الناس بالقيام بمهمة مساعدة الشباب ، لما سبق وبينا من تحقق وجود عنصري المحبة والعطف ، نحو من يعنون بتربيته ، مع عنصر المعرفة بأحواله ، وبما يجب ان يلقن من فكرات وخبرات .

فالوالدان والمربون الصالحون يخلصون النصح للشباب ، لأنهم ، في محبتهم له ، لا يحاولون خداعه ؛ ولأنهم ، في عطفهم عليه ، يتجنبون تضليله . فكم والد ، امتلكت الرزائل عليه نفسه ، يأبى ان يسلك ابنه مسلكه ، ويحرص كل الحرص على ان لا يعلم ابنه من امره شيئا ! . . وكم من أم حنون تريد لابنائها حظاً اوفر من حظها ! . . والمربي الصالح ، ألا يهزه الطرب لنجاح تلامذته في الحياة ؟.. وكل هؤلاء يلذ لهم ، إذا كانوا مربين صادقين ، أن يفوقهم من يربون ، طوعاً لسير فكرة الرقي والتقدم في الحياة . لذلك يجدون في تقـــدم ابنائهم ، وتلامذتهم ، تقدماً لذاتيتهم ولحياتهم .

ثم ليس هناك ادنى ريب في ان خبرة الوالدين والمربين تفوق خـبرة الشاب ، في الحيـاة ، مهما قلت درجة ثقافتهم بالنسبة لثقافته . فقد عاشوا قبله ، وذاقوا حلو الحياة ومرها ، وادركوا الكثير مما في الحوادث ، وفي الصلات بين البشر من أسرار . هذا عدا ما اكتسبوه من معرفـة ، في أعمالهم . وعدا ما سبق لهم ان درسوا أو سمعوا . وان ما سمعوه أو درسوه ، قد امتزج بمعرفة الحياة العملية امتزاجا ، جعل له حيوية جديدة عملية ، تكون اكثر اثراً ، في نفس الشباب ، من معرفـــة الكتب والدروس الجامدة . وهذه المعرفة يعبر عنها بالمعرفة الحية ، اي المعرفة

التي يهتز لها القلب ، وتطمئن بها النفس . كل انسان ، عاش في هذه الدنيا ، يمتلك شيئاً من هذه المعرفة . وبها تنتقل الحضارات ، في اسمى معانيها ، من قلوب ابناء جيل ، يتناهى ، إلى قلوب أبناء جيل ، يطلع على الحياة بحيوية جديدة ونشاط مرح ! . . فلا تحتقر معرفة من يهمهم امرك ، وان اخطأوا باعتقاد بعض الخرافات ، او في نقل بعض المعلومات . فلك من ثقافتك ، ومن وثبات انتباهك ، ما يزيل اثر الاخطاء ، دون ان تحرم الاتصال بحيوية كثير من الحقائق العملية ، وهي فيهم من وحي الخبرة . وقد سبق وأخبرتك عن بعض الفكرات التي اوحت بها إلى بعضهم خبرة الحياة . فإذا كنت مخلصاً في طلب الحقيقة ، فانك واجدها دوما ، وفي فترات مختلفة ، عند كل الناس ؛ ولا سيما عند من يخلص لك من ذويك ومربيك .

ان للاخلاص سحراً في تخليص النفوس ، وتنقيتها من الادران ! ومن اخلص لك ، ايها الشاب ، ممن يأبى ان يتفوق عليه أحد في العالم سواك ؟ ألا تعلم انه يصعب ، على أي انسان ، ان يقال له : أن فلاناً يفوقك ، ولو كان اقرب الناس اليه ؟ أما الآباء والامهات ، فانه يلذ لهم ان يفوقهم ابناؤهم ، ذكاء ومعرفة ؛ وانهم ليهتزون طربا ، إذا اعتقدوا امكان تحقق ذلك . قيل : « الولد سر أبيه ! » ولا غرابة ، فهو الذي يتممه ويكمل حياته . فبالولد يتراءى للوالدين الخلود . فكن ، ايها الشاب ، براً بوالديك وبمربيك ، وثق بهم ، عاطفة ومعرفة . انهم يهيئون لك وسائل عملك ، في تربيتك لنفسك . ثق بعاطفتهم ، اخلاصاً وحبا ؛ وبمعرفتهم ، خبرة وتجربة ، على الاقل . وإذا لم تستطع الثقـــة بكل ذلك ، على مقياس واسع ، فثق ، على الاقل ، بأنهم لا يحاولون خداعك ، ولا يتقصدون

تغريرك ! . . ثق ان ثقتك بهم لا تضعف ثقتك بنفسك ، بل هي تقويها . ولاتكون الثقة التي تضعف ثقة الانسان بنفسه ، ثقة ، وانما هي استسلام ! .. ونحن لانريدك مستسلماً لأحد ! ولانرى لك خيراً في ان تتلاهى عن نفسك وعن ثقتك بها ، وان تشغل عن تربيتك لنفسك بغيرك . ولا نعتقد أن والديك ومربيك قد يحاولون ذلك . هم يساعدونك في تربيتك لنفسك . ولكن ما هي امكانات التربية نفسها ؟ . .

بعد أن قررنا الثقة بأنواعها : ثقة المربي بنفسه وبمن يعنى بتربيته ، وثقة المتربي الشاب بنفسه وبمن يساعده على تربية نفسه ؛ أفلا يصح لنا ان نثق بالتربية نفسها ؟ . . أللتربية المقصودة امكانات جديرة بثقة المربين ، وبثقة الشباب ؟ .. وهل هي مطلقة في امكاناتها ، ام هناك قيود وحدود ؟ . .

هـ – ثقة المربين والشباب بامكانات التربية :

اختلف العلماء في إمكانات التربية : فمنهم من يرى ان لا تأثير لها ، في اصلاح السجايا ، ولا في افسادها . ويعبرون عن رأيهم هـذا بقولهم : لا تصلح السجايا التربية الحسنة ، ولا تفسدها التربيـة السيئة . ومنهم من يرى للتربيـة كل الاثر ، فيقول : يخلق الناس سواسية ، وباستعدادات متساوية ، وبالتربية يحصل الاختلاف .

والحقيقة بين هذين الرأيين المتطرفين ، افراطاً وتفريطا . ومنشأ هذا التطرف ، بشكليه ، الاستقراء الناقص . وهنا تظهر قوة نظرية لايبنز ، وقد ذكرت قبلا ، وهي : « ان التجربة تساعدنا على الفحص والبحث ، ولكنها لا تصلح دليلا » . وقـد تأثر هؤلاء ببعض الاختبارات ، سلباً أو ايجابا ، فبنوا عليها حكمهم ، دون ان تتصل التجارب والاختبارات بعدد كاف من الحوادث ، يؤدي الى الاطمئنان العلمي . وقد وقع ذلك ،

في وقت ، كانت التربية فيه أدباً أو فلسفة ؛ ولم يكن للبحث العلمي أي اثر في تكوين قواعدها .

اما اليوم ، فقد اصبحت التربية ، بفضل المدرسة الحديثة ، علماً واختصاصا . لذلك أخذت ، منذ أواخر القرن السابق ، تعتمد الاسلوب العلمي، في البحث. وطريقتها استكمال الاختبارات والتجارب، استكمالا، تحصل معه القناعة العلمية ، دون ان يكون للحدس المجرد تأثير ؛ وكثيراً ما ضلل الحدس الادباء والفلاسفة ، ولا يزال يضللهم ، كلما استسلموا اليه دون تمحيص ولا تدقيق . فالحدس يصلح مبدأ للمعرفة ، ولكنه ليس معرفة بالذات .

لذلك ترى المدرسة الحديثة الحقيقة وسطاً بين هذين الرأيين : فلا تُفرِط بادعاء ان التربية تعمل كل شيء ، كما انها لا تُفرّط في سلبها كل قدرة . وأصل الخلاف هو في تفهم ناموس الارث .

فمن فرط ، في تأثير التربية ، يرى ان الانسان يرث كل سجاياه من اسلافه . وهي فكرة قديمة تقليديه ، تتفق مع النزعة الارستوقراطية والانظمة الاقطاعية ، ومع مبدأ تصنيف البشر إلى طبقات . والواقع ينقض هذه النظرية من اساسها . إذ كم شريف ، في أصله ، يتصف بأقبح السجايا وأردئها !.. وكم شريف ، في فعله ، من غير تلك الطبقات العالية ، يبرهن على انبل السجايا وأحسنها ! وكم قلبت التربية سلوك كثير من من الافراد ، في سجاياهم ! وكم ساعدت على تطور كثير من الجماعات والشعوب !

ومن افرط ، في تأثير التربية ، أنكر أي وجود لاختلاف الاستعدادات . وهذه فوضوية ، في التفكير ، لا يؤيدها الواقع ايضا .

فالانسان يرث من ابويه ، ومن اسلافه ، مظاهر واضحة جلية ، وخاصة ، واموراً عامة ومبهمة وغامضة .

يتعلق النوع الاول بالجسم خاصة ، كالطول والقصر ، وكلون العيون والشعر ، وكأشكال اخرى تتعلق بالوجه أو سائر الاعضاء ؛ وهـذه لا علاقة للتربية بها .

اما النوع الثاني ، وهو بيت القصيد ، فانـه يتعلق بالنفس ، بجميع مظاهرها ، الذهنية ، والشعورية ، والنزوعية ، والسلوكية والخلقية . وهذه لا تكون واضحة مطلقا. فهي عامة ومبهمة وغامضة. فابن الشاعر، لا يرث من ابيه ملكة الشعر ؛ وانما قد يرث قوة في الخيال والتصور ، قد يصبح معها رساما ، او مهندساً او شاعراً . وابن المجرم لا يرث روح الاجرام من ابيه ؛ انه يرث شيئاً عاماً وغامضاً في التوازن العقلي، يؤدي الى شيء من التمرد على قواعد معينة في السلوك . وهذا لايقضي عليه بأن يكون مجرما ، بل قد يصبح معه مكتشفاً مغامراً ، او مخترعاً كبيراً ، أو سياسياً مجدداً . ونحن نجـــد ، في النبوغ ، في السياسة والاختراع والاكتشاف ، كثيراً من التمرد على الواقع . ويختلف هذا عن ناموس الارث عند الحيوان .

يرث الحيوان سجاياه معينة وواضحة ، منذ ولادته . ولعلنا نلمس هنا ما يميز الانسان عن الحيوان ، في اصل تكوّن انسانيته ، في سجاياه . ونستطيع بذلك ان نلاحظ العناصر الاصلية ، في امكانات التربية ، وهي تخصيص العام ، وايضاح المبهم ، وجلاء الغامض ، في كل ما نرثه ، نفسيا ، من الاسلاف ، او في كل ما تنطوي عليه نفوسنا ، من حيث نشوئها ، من استعدادات . والتربية ، فوق ذلك ، تعمل على ابراز القوى

التي قد تظل كامنة، لولا ما تقوم به التربية من مساعدة. والامثلة كثيرة، يلاحظها المربون وغيرهم، في كل وقت. فكم كهل تبرز في نفسه امكانات، نأسف لعدم بروزها في سن الشباب!.. وكم ندعي انه لو انتبه اليه المربون، في تلك السن، لكان من المبرزين في الشعر، او في العلوم، أو غيرها...

فالتربية، إذن، لا تخلق شيئاً جديداً في نفسية الانسان. ففي هذه النفس كل ما تقتضيه انسانيتها من قوى واستعدادات، على درجات متفاوتة، في النفس الواحدة، وفي النفوس، على اختلافها. فعلى التربية ان تبرزها، حتى لا يبقى منها قوة او استعداد في حالة الكمون. وعليها، كما سبق وقلنا، ان تخصص ما فيها من عموم، وان توضح ابهامها، وتجلي غموضها. انها بذلك تساعد النفس على التوجه الصحيح. ولذلك قيل: التربية توجيه. والحقيقة، في نظرنا، انها لا توجه مباشرة، ولكنها تساعد على صحة التوجه. والانسان هو الذي يوجه نفسه. أو بالاحرى، هو الذي يجب ان يوجه نفسه، باختياره، وبحكم تفاعلاته الداخلية. هكذا يقوم الانسان بتربية نفسه. وإلا، فإنه، إذا وجه من الغير، يكون مسيراً، وينحط عن رتبته الانسانية. فإذا وافقت تفاعلاته الداخلية، بنتائجها التوجيهية، ما ارشده اليه الغير، فمعناه، إذا كان حراً منطلقا، انه اختار بنفسه ذلك. فهو الموجه لذاته في الحقيقة.

فالانسان، بحكم انسانيته، لا يعتمد، في تكوين ذاته، على ما يرث من قوىً واستعدادات، فحسب، وإلا كان حيوانا. فهناك امكانات عديدة للاكتساب، يعتمد في تحقيقها، او في نقلها، من حالة القوة الى حالة الفعل، على ما في فطرته من قوى، وعلى ما قد يرث من اسلافه وابويه

من صفات . وهذه الاخيرة تكون عارضة ، قد يمكن تبديلها مع الزمن، في فرد او في سلسلة من الافراد او الجماعات . او قد تستقر ، فتصبح ، وكأنها فطرية .

والمهم ان نميز ، في الانسان ، ما هو فطري ، من قوى وصفات . وهذه تدخل ، كعناصر في كيان حياة الانسان ونفسه ، بحيث لا تدرك نفسيته إلا بها : كقوى التأمل والتفكير والخيال والنزوع .. واعمالها .. فانها مظاهر لا تدرك النفس إلا بوجودها ، إجمالا .

واما درجة قوة الخيال، او ضعفه ، بشكل يخرج عن العادي السوي، فهذه من المظاهر التي تتعلق بالارث ، لا بالفطرة .

والفطري يتسلسل وجوده في جميع افراد النوع . أما الارثي فقد تنقطع سلسلته ، فيتولد ، عن ضعيف الخيال ، قوي ، في خياله ، مثلا ، وبالعكس ....

يبرز الفطري في الحيوان مع ولادته ، ويكون معينا ، واضحا ، وجليا . فالنحلة تقوم بصنع النحل ، والنمل بالجمع ، بفطرتها ودون ان تكمن هذه القوة في اي فرد ، من نوعها . أما الانسان فقد تكمن فيه كثير من قواه واستعداداته ، والتربية هي التي تساعد على إبرازها .

واكاد اعتقد أن الارث النفسي ، لاسيما فيما يتعلق بالسلوك ، إنما هو من خصائص الانسان الذاتية . والدليل إمكان تنوعه ، وتعدد مظاهره فيه ؛ بينما يكون سلوك الحيوان واحداً ، لا يتنوع ولا يتعدد ، في النوع الواحد . فهو إذن طبيعة وفطرة .

فالمساعدة على إبراز كوامن النفس ، في القوى الفطرية والارثية . وعلى تخصيص العام وتعيينه ، وتوضيح المبهم ، وجلاء الغامض ، فيما هو

ارثي خاصة ؛ وعلى تنمية القوى ، لا سيما الفطرية ، وعلى تقويتها ، ثم المساعدة على حسن توجيهها ، وتركيز المتناقضات ، في ظواهرها الانفعالية ، وغيرها ، لاسيما في الشباب ؛ هذه كلها من إمكانات التربية . انها امكانات واسعة الآفـــاق ، لا تتحقق على وجهها الصحيح الاكمل ، إلا بما يقوم به الشاب المتربي ، نفسه ، معتمداً على ما يمنحه الوالدان والمربون من وسائل ، وعلى ما يشعر بوجوده في نفسه من قوى . وهي امكانات حرية بأن يثق بها المربون والشباب ، ولكن ضمن حدود الفطرة ، التي تفسح مجالاً واسعاً للاكتساب ، في الانسان ، ضمن حدود إمكان تشجيع الارث او مقاومته ، حسب قوته وضعفه ، وخـــيره وشره . فلا نكلف الشباب ما هو فوق طاقته ، فنطلب نظم الشعر ممن لا يساعـده خياله على ذلك ، ونمنع من نظمه من خلق ليكون شاعراً ، مثلا ! ... (وسنزيد في ايضاح هـــذا البحث في الفصل الخامس ، فصل التوجيه) .

اما الوسائل المباشرة التي تساعد على تحقيق هذه الامكانات ، التي سبق ذكرها ، فانما هي الفكرات المثيرة والمحركة . وهذه تتفاعل في الافئدة . فالفؤاد هو مستقر هذه التفاعلات النفسية ، على حد قول الاخطل :

لا تعجبنك من خطيب خطبة ، حتى يكون ، مع الكلام ، أصيلا !
ان الكلام لفي الفؤاد ، وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا ! . .

٥ ـ الفؤاد

من المسلم به ، ان نمونا الجسماني يتوقف ، في قوته وضعفه ، على نوع الاغذية التي نتناولها ، وعلى قوة الاجهزة التي تعمل على هضمها وتمثيلها . ولا يجهل احد منا كيف تغيب هذه الاغذية عن حواسنا ، بعد أن تتجاوز

الحلقوم ، عقب المضغ ؛ ولا كيف يتم الهضم الاول في المعدة ، حيث يتحول الطعام الى كيموس ، والثاني في الامعاء حيث يتحول الكيموس الى كيلوس؛ ثم تتم بعدها عمليات الامتصاص والتمثيل . وإذا كنا نشعر بعملية المضغ ، ونسيرها على وعي منا ؛ فان سائر العمليات ، من هضم وامتصاص وتمثيل ، تتم دون أن نشعر بها ، وتسير دون اي وعي من قبلنا .

ويظهر أن ما يتم ، في النمو النفسي ، يشابه ، الى حد كبير ، ما يتم في النمو الجسدي . فهناك عمليات تدخل في دائرة الوعي ، أو الوجدان ، وعمليات تخرج عن دائرة الوعي وتستقر في الفؤاد (١) .

ففي عالم النفس مظهران : مظهر الوعي ، او الوجدان ، وهو يشمل كل ما نجده في انفسنا من تفكير وإحساس وشعور ونزوع . ويحوي الفكرات التي نتلقاها ، وتتفاعل تفاعلاً اولياً مع فكرات قديمة ، اختزنتها الحافظة ؛ فتتم بذلك عملية تقابل عملية المضع . فتأخذ الفكرة الجديدة بذلك شكلاً خاصا ، يسمح لها باجتياز ميدان الوعي الى ميدان آخر ، هو ميدان الفؤاد (أو اللاوعي) ، وهو الميدان الخفي في عالم النفس .

اثبت العلم الحديث ان ميدان الفؤاد ، على خفائه ، اوسع مدى من ميدان الوعي ، واشد تأثيراً في تسيير الانسان في سلوكه . هو مستودع اسرار الحياة الانسانية ، وفيه تكمن سريرته وبصيرته ، وضميره ونبوغه

---

(١) سبق واوضحت في محاضرة القيتها عن الضمير في المجتمع وفي التربية عن تفضيلي لكلمة الفؤاد عن اللاوعي لأنها وردت في الآداب العربية معبرة عن هذا المعنى ، لا سيما ومادة فأد تفيد الخفاء والانضاج ، كما يتبين من شعر الأخطل اعلاه ومما سيأتي من امثاله . (راجع محاضرات في التربية والتعليم « ج ١ » الطبعة الثالثة ص ٢٧) .

وعبقريته . فلا عجب إذا كان مصدر الوحي والالهام(١) ، ومقر نضج المعرفة ، ومستودع الفكرات المحركة والمسيرة . فيه تهضم الافكار والمعارف، كما تهضم الاطعمة في المعدة والامعاء . وفيه تتم تفاعلات النفس مع هذه الافكار ، بالمقابلة مع عمليتي الامتصاص والتمثيل ، فينسجم ما تماثل منها ، ويتكامل بناء النفس ، وكيانها . قد تتحول الفكرات الى قوى ، تبرز في النزوع والميول ، وقد تصبح هوى خفيا . فاذا تحكم الهوى ، تسيطر النفس الامارة بالسوء ، وتبعد الميول عن التفاعل مع الارادة ، في وعي صحيح ، فيصبح الانسان عبد ميوله وعبد الهوى . ولا تتحرر النفس ، إلا إذا تمت لميولها صلتها الوثيقة بالارادة : وهكذا يتحقق الانسان حراً واعيا ، وسيداً لنفسه ، ولأعماله .

فترى ان الفؤاد هو سر الحياة ، في جميع مظاهرها الانسانية ، وفي اعمالها . فلا غرابة إذا جعله الشعراء موضع كتمان السرائر ، على حد قول احدهم :

إذا ما الخل لم يحفظ ثلاثا ، فبعه ، ولو بكف من رماد :
وفاء للعهود، وبذل مال، وكتمان السرائر في الفؤاد .

والتربية الصحيحة ترمي الى مساعدة المتربي على نقل المعارف الصحيحة، والفكرات المحررة ، من ميدان الوعي الى ميدان الفؤاد . وبذلك عرف غوستاف لوبون التربية بقوله : « التربية هي فن نقل ما هو وجداني الى الفؤاد » .

فعلى حسن اختيار الفكرات ونوعها ، وعلى استعمال الوسائل الفعالة

---

(١) راجع كتاب محاضرات في التربية والتعليم ، الجزء الاول الطبعة الثالثة ص ٩٧ – ١٠١ عن العبقرية والحدس .

لنقلها الى الفؤاد ، يتوقف حسن التصرف والسلوك في الحياة . فالفكرة تصبح بذلك قوة تثمر العمل . ولا تنس ، ايها الشاب ، ان الفكرة هي التي تدير العالم ! .. إنها ، إذ تنفذ ، في اعمـــاق نفوسنا ، قد تشتد قوتها لدرجة ، تكافح معها الفؤاد ، جملة ، فتبدل انعكاساتنا وميولنا ! . . . وبتأثيرها ، على نزوعنا ، تؤثر باتجاهاتنا ، فيتبدل سلوكنا ، خيراً أو شراً ، حسب نوع الفكرة المؤثرة المحركة . وانما تؤثر الفكرة ، في الفؤاد ، بقوة انفعالنا ، الذي هو مظهر شعلة نار الشباب . فعلى اتزان هـذا الانفعال ، يتوقف اتزان الاعمال والسلوك . فاذا أفرطنا فيه لدرجة ، نفقد ، معها ، سلطاننا على اعصابنا ، فقدت النفس به اتزانها . وإذا فرطنا به لدرجة ، تتخدر معها اعصابنا ، فقدت النفس ذاتها ؛ او تفقد بذلك كل وسيلة للاباء وحفظ الكرامة . فللانفعال اثره الكبير في هزة القلب ، هزات عنيفة ، تنقلب معها النفس ، وتتبدل احوالها ، حسب اتجاه الفكرات ، نحو فضائل الاعمال ، او رزائلها . وانما نضمن الخير ، في الاتجـــاه ، بقدر ما نظل مسيطرين على اعصابنا ، حتى في اشد حالات الانفعال .

فليكن هم الشباب ، في تربيته لنفسه ، العناية بحسن اختيار الفكرات المحركة . وبمثل هذه العناية يضمن الوالدان والمربون اعظم الفوائد لمن يعنون بتربيته من الشباب . ولنحفظ ، جميعا ، آباء ومربين وشبابا ، ان الشباب انما يبلغ حريته الداخلية التامة ، بقدر ما يوفق باختيار هـــذه الفكرات ، وبقدر ما يوفق مربوه باختيارها له . وعندئذ ، وبفضل الوسائل التي تستخدم لايصالها الى الفؤاد ، باثارة انفعال النفس الداخلي المتزن ، وبمالها ، كفكرات محركة ، من قوة في إثارة ما في الفؤاد ، وايقاد نيران الثورة فيه ، تتم الاعجوبة ، بعد جهود متواصلة ، وبفعل فكرات محركة

متسلسلة : فتستحيل الحياة ، في الشابات والشبان ، الى مظهرها الانساني الصحيح ، في اوج قوته ، وتتحقق الرجولة والانوثة ، في اصح ، وفي أصدق ما يجب ان تكون عليه الحيـــاة الانسانية ، في رجولتها ، وفي انوثتها .

واصدق ما ننصح به الشباب ومن يقوم عـــلى تربيتهم ، في اختيار الفكرات المحركة، ان يتجنبوا الابتعاد عن الواقع ؛ فالفكرات لا تخلق، ولا تنشىء ، اي كيان من العدم . وانما هي تساعدنا على ان نحقق نحن ما تحوي . فاذا لم تتصل معانيها بالواقع ، تصبح وهما . وعندئـــذ ينحصر تأثيرها في نقلنا الى عالم الاوهام، فنضل طريقنا ، ونبعد عن سبيل الهداية والتحرر . وبالتعلق بالاوهـــام والاباطيل ، تظلم جوانب النفس ، في فؤادها ، فيظلم ، بظلامها ، الضمير الانساني - ومقره الفؤاد - فتكثر الشرور ، وينتشر الفساد .

ان صلة الضمير بالفؤاد ، هي من اوثق ما تكون عليه الصلات . فلا غرو إذا اتخذ احد الشعراء الاقدمين الضمير شفيعاً الى فؤاده فقال :

إن التي زعمت فؤادك ملها ، خلقت هواك، كما خلقت هوى لها !
بيضاء ، باكرها النعيم ، فصاغها ، بلباقـــة ، فادقها واجلها .
منعت تحيتها ، فقلت لصاحبي : ما كان اكثرها لنا ، وأقلها !
فدنا ، وقال : لعلها معـــذورة من بعض رقبتها ! فقلت : لعلها !
فاذا وجدت لهـا وساوس سلوة ، شفع الضمير إلى الفؤاد ، فسلها !

رحم الله ابن اذينة، ذلك البدوي الذي لم تفته الصلة بين الضمير والفؤاد، فجعله شفيعه اليه . وهو فوق ذلك ، يرعى مصدر الوساوس ، في فؤاده، وينسب الملل الى الفؤاد نفسه . وماذا يقول العلم اليوم في تعليل اسباب

الملل وما يشابهه من احوال النفس ، وفي بيان مصادر الوساوس الخفية ؟ أوجد ذلك ، اخيراً ، في غير الفؤاد ، أو اللاوعي ! . .

فما أروع الأدب ، في شاعريته ، يؤيده العلم ! . . وما اقوى العلم ، تزيد ، في توضيح معانيه ، شاعرية الادب ! . . ولا غرابة إذا سبق الشعر العلم بادراك هذه الحقائق ، حدسيا ! فشاعرية الشاعر ، وقريحة الاديب ، وهما تبلغان الاوج في العبقرية ، انما تستقر كلها في فؤاد النفس ؛ وفي فؤاد النفس عبقر ذاتها ، بجنها وشياطينها ، وبمن لف لفهم من العفاريت ؛ فيوسوسون ما شاء لهم اهمال الشباب ان يوسوسوا ! . . فينحرف سير النفوس ، إذا لم تتدارك الأمر الفكرات الكبيرة ! . . وهذه ، وحدها ، هي القادرة على حبسهم في قمقم سليمان ، لترتاح منهم النفس ، ما دام لهذه الفكرات في النفس البشرية أثرها .

وفي هـــذه الاحوال ، تتكون الانوثة ، أو الرجولة ، في الشباب ، تكوناً صحيحاً متزناً صادقا ، نجد خيره وبركته ويمنه في حياة الاسرة ، وفي تحقق الفكرة الوطنية ، والتضامن الاجتماعي والانساني ، في عالمنا هذا ، عالم الارض . فتنعكس في ارجائه ، آنئذ ، اشعة سماوية ، ترسم ، في تلك الارجاء ، صوراً رائعة من مشاهد الحياة ، في جنان الخلد ، جنان الابرار السعداء الآمنين ! . .

هكذا يكون اثر الفكرات الكبيرة ، في النفس ، إذا تم تفاعلها ، في الفؤاد ، تفاعلاً انسانيا ، داخليا ، مستمراً . فهي الغذاء ، في حالة الصحة ، وبها العلاج في حالة المرض والانحراف . وبها يتلقح الانسان ، ليقاوم تأثير جراثيم الامراض الخلقية السارية ، والاوبئة الوافـدة ، كما يتلقح ضد الجدري والتيفوئيد وغيرهما . وفعل هـذه الفكرات خفي في

داخل النفس . والفكرة لا يتحقق وجودها ، في النفس البشرية ، إلا باتحادها بها ، وبانسجامها بعناصر كيانها . فتصبح الفكرة، والفكر، ومن يفكر ، كائناً واحداً ، دون تجزئة ولا تفريق .

يتعرض الشاب ، في حياته – لا سيما في احوال الانفعال وتكون الرجولة فيه – وبتفاعل الفكرات في داخله، لكثير من التجارب، وللتأثر بكثير من الاوبئة الخلقية ، والامراض السارية ، التي تهدد كيانه النفسي بالانهيار . فهو في صميم المجتمع ، ولا يمكن فصله عنه ، لانقاذه من ويلات القدوة السيئة ، والمغريات من المفاسد . ولو أمكن ، فلا يجوز ! ... إنه لا يستطيع الحياة منعزلا، ولا العيش منفرداً !.. فهو اجتماعي بالضرورة ! فلا بد من وسيله تكسبه المناعة النفسية ، فتحفظه من التأثر بالعدوى ، مع استمراره على الحياة والعمل في خضم هذا المجتمع ، بمفاسده وأوبئته الخلقية . ولا يتم له اكتساب المناعة إلا في داخله ، أي في فؤاده ، حيث تصبح الفكرات المعبرة عن تلك الامراض والاوبئة ، أو المستمدة من احوالها ، وطرق الوقاية منها ، لقاحاً واقيا . ففي داخل فؤاد نفسه ، وتفاعلاته ، يتقوى ويعالج ويلقح . فيكتسب المناعة ، ويشفي نفسه من امراضها . فدواؤه فيه ، وداؤه منه ، على حد قول الامام علي :

دواؤك فيك ، ولا تشعر ! وداؤك منك ، ولا تبصر !
وتزعم أنك جرم صغير ، وفيك انطوى العالم الاكبر !

فاذا كان ذلك كذلك ، وكانت الفكرات ، في تفاعها في النفس ، هي الاسس المتينة التي يرتكز عليها بناء النفس الصالحة ، وشفاؤها ومناعتها ، فمن يقوم بهذا التفاعل ، وكيف يتحقق ؟ . . وهل يكفي ان تنتقل الفكرة الى الفؤاد ليتم تفاعلها مع عناصره ؟ . .

إن لحصول هذا التفاعل ، وعلى وجهه الاتم ، شروطا . فليس لجميع الفكرات التي يتلقنها الشاب ، مباشرة ، او بواسطة المربين ، حظ امكان الاندماج في الفؤاد ، الشرط الاول في التفاعل . فمنها ما تختزنه الحافظة ، فلا ينتقل الى الفؤاد ؛ ومنها ما ينتقل ويتناثر فيه ، فلا يكون لها اي اثر في السلوك . ولهذا نجد كثيراً من المتعلمين ، بل من العلمـــاء ، يحفظون كثيراً مما انتجه اسمى تفكير في العالم ، ولا يصطبغون بأية فكرة من تلك الفكرات السامية ! فسلوكهم قـد يتناقض تناقضاً تاماً مع تفكيرهم . حين يدعون لمبادىء لا يعملون بها ! وهؤلاء هم الذين استعاذ النبي بالله ، منهم ، بقوله : « اعوذ بالله من عالم اللسان جاهل القلب » . ولا نجـــد صعوبة في ان ندرك ان المقصود بالقلب ، هنا ، انما هو الفؤاد . وكل معرفة لا تندمج بالفؤاد ، ولا تتفاعل فيه ، لا تتحول الى صبغة في النفس ، وانما تظل أقوالا ، تردد لتخدع ! وما أشقى امة ، يخدعها امثال هؤلاء ، وقد استعيذ منهم بالله ، كما يستعاذ من الشيطان الرجيم ! . .

وإن ما يتناثر من تلك الفكرات ، في الفؤاد ، دون ان يندمج فيه ، بله ان يتفاعل ، على الرغم من انتقاله اليه ، يكوّن فيه ناحية مظلمة ، إذا اتسعت ، اظلمت بها النفس البشرية كلها ! فالفكرات ، من حيث كيانها ، نورانية ، تفقدها بتناثرها . ومتى فقد النور ، استولى الظلام ! . . . وانما يعبر عن ظلام النفس ، في نظري ، لؤمها . وما اشد اللؤم اثراً في تأخر الفرد ، وانحطاط الامم ! . . . ولا سيما إذا تم ذلك في نفوس الحفظة من العلماء ، على ما تقدم : وهؤلاء هم علماء السوء الذين قال فيهم الشاعر ، متسائلا :

يا علماء السوء ! يا ملح البلد ! ما يصلح الاكل ، إذا الملح فسد ؟ . .

وإذا تم الاندماج بالفؤاد ، واشتد بالتفاعل ، فلا بد من التساؤل عن هـــذه الفكرات التي اندمجت وتفاعلت ؟ . . . أهي الفكرات الحقيرة الصغيرة ؟.. أم هي الفكرات السامية الكبيرة ؟.. فعلى نوع الفكرات المندمجـــة ، وعلى قوة تفاعلها ، يتوقف تكوُّن النفس البشرية ، حقيرة صغيرة ، او عظيمة كريمة ! . . . فاذا كانت تلك الفكرات من النوع الحقير الصغير ، اصبحت داء يحتاج الى الدواء ؛ وقد اردنا ان تكون دواء يشفي من الداء . وهنا لا ينفع النصح ، وقد لا يجدي الارشاد ، على ما قاله الغزي :

متى يمضي لجالينوس قول ، إذا احتاج الدواء إلى دواء ؟

فاذا كان اندماج الفكرات بالفؤاد شرطاً اوليا ، في تفاعلها ، فحسن اختيار هذه الفكرات ، هو الشرط الاساسي ، في انتاج هـــذا التفاعل لروح انسانية صحيحة ، في المرأة وفي الرجل .

ولحسن الاختيار شروط ، اهمها اثنان :

(١) حسن إدراكها إدراكاً كليا ، لا جزئيا . (وقد تقدم معنا ان الادراك الجزئي يولد الاوهام والخرافات ، ويقلب وجه الحقائق) .

(٢) التمييز بين الفكرات التي تنسجم مع ما يقتضيه تنظيم الحياة ، في المجتمع ، ومع السمو بما في نفس الفرد ، من مبادىء وسلوك ؛ وبين تلك التي تنادي بالفوضى ، في الحياة الاجتماعية ، فتهدم المجتمعات ، وتهد كيانها ، وتدعو لفساد الفرد ، وتدنيه وانحطاطه ، فيكون عضواً فاسداً أو مشلولا ، في مجتمعه .

وفي تحقيق هذين الشرطين ، يحتاج الشباب الى مساعدة الوالـــدين والمربين . ولتحقيقهما يحتاج المجتمع للصالحين ، من هؤلاء . وفي الاخطار

التي تنتج عن سوء الادراك والتمييز ، في الافراد وفي الامم ، تتضح لنا درجة فظاعة الجريمة ، في الستاهل في اختيار المربين ، لاسيما للشباب !..؟

ولا يتم التفاعل ، في الفؤاد ، على وجهه الاكمل ، إلا إذا تحقق شرط آخر ، هو الانفعال بتذوق الفكرة تذوقاً قويا ، يهتز معه القلب ، فتتحرك النفس ، حركة طوعية ، تثير نار الفؤاد ؛ وبفضل حرارة هذه النار ، يحصل النضج ، ويتم التفاعل العميق ؛ ومن ثم تنبثق النزعات والميول والعواطف ، متفقة مع ما تنطوي عليه من مقاصد ونيات ، ومع نوعية تلك الفكرات المتفاعلة ، خيراً أم شراً .

والشرط الاخير انما هو الوعي في السلوك . فيجب ان يكون سلوكنا واعيا ! وهـــذا لا يصبح واعياً إلا بعودة الصلة بين الفؤاد ، في ميوله ونزعاته وعواطفه ، وبين النفس الواعية ، اي الوجدان . ولا يتجلى هذا الوعي إلا بالحرية والارادة . فتنصرف نزعاتنا وميولنا وعواطفنا للتحقق ، وللعمل بحرية ، وتستمد قوتها من الارادة الصحيحة الصادقة . وإلا فان تحقق النزعات والميول والعواطف ، تحققاً مباشراً ، دون التقيد بالواعية ، حرية وإرادة ، يجعلنا نظهر بمظهر المجبّرين ، إذ تسير بطريق الهوى ، وتصبح النفس نفساً أمارة ، وإن وجد ، في بعض الاعمال الناتجة عنها ، شيء من مظاهر الخير . وقد وفق الشاعر ، في وصف من هذه حاله ، من الباذلين المانعين ، في قوله :

يعطي ويمنع ، لا بخلاً ولا كرما ! وانما نزعـــات من وساويس !

لم يجعل الفلاسفة العلم شرطاً في تحقق الفضيلة ، إلا تأييداً لصحة هذا الشرط ، وهو الوعي في السلوك ، على ما أثبته العلم الحديث ، في تحليلاته الواعية .

فهل تدفع النهضة شبابنا ، اليوم ، للتأمل في احوالهم النفسية ، وفيما يوجب عليهم تكونهم الفردي والاجتماعي ، من تفكير وجهود ، ليعملوا على بناء نفوسهم ، بناء جديداً ، يتفق مع مقتضيات استقلالهم الذاتي ، والوطني ، ضمن دائرة ضرورة التجاذب الانساني ، لتحقيق تعاون عالمي صادق ، يحقق السلام ، على هذه الارض ؟

لا أظنهم إلا مندفعين لهذا التأمل ، مستشعرين اهمية عملية الفكرات التي ينفعلون بها . فلا يألون جهداً في حسن اختيارها ، عن إدراك صحيح وتمييز صادق ، واثقين بأنفسهم ، وبامكانات التربية ، وبمن يقوم على تربيتهم ! وهو الواثق بهم وبنفسه ! . .

فعلى الشباب ، وعلى من يقوم على تربيته ، ان يشعر كل منهم بالتبعة الملقاة على عاتقه . فلا يفرط ولا يفرط ! بل يترك مجالا ، تقوم فيه الطبيعة الانسانية بعملها ، والحياة بتفاعلها .

ولنختم بحثنا هذا - وان كان في النفس ميل للاطالة ، نمتنع عن تحقيقه الآن ، خوف الاملال - بذكر حكمة عربية لا تزال على جدتها ، مع تطاول القدم عليها ، وهي :

« لاعب ولدك سبعا ، وعلمه سبعا ، وعاشره سبعا ، ثم اترك حبله على غاربه » .

فما أصدق هذه الحكمة ، في معناها ، إذ تجعل الاستقلال الذاتي نتيجة طبيعية للتربية ! . . وما اروعها فكرة ، تجعل دور الشباب دور فطام ، يصبح الشاب فيه عشير والديه ، فيتهيأ لاستقلاله ، في عمله وفي حياته ، على ان يكون براً بهما ! . .

وهنا نتصل بأفق جديد ، من آفاق هـــذه القضية ، قضية الشباب والحياة ، وهو افق التوجيه ... فكيف يوجه الشباب نفسه ؟ . .

الفَصل الخامِسُ

الشباب في توجيهه

لنشق بوحي الحياة في الشباب

لا حقارة في العمل

اهمية التوجيه وغايته

التوجيه المسلكي والمهني

خلاصة ما تقدم

أزمة الحياة أشد وطأة على الانسان من أزمة المعيشة . وظواهر الحياة تتصل بالحضارة . وبالمدنية تتصل أسباب المعيشة . واذا صلحت المدنية وسيلة لتقدم الحضارة ، فانها لا تصلح غرضا بذاتها .

واليقظة الواعية في الامم ، ولا سيما في شبابها ، تنقذ الحضارة الانسانية من ويلات المدنية وفسادها . والخطر كامن في اليقظة البلهاء ، إذ تعود بالشعوب وبالامم الى النوم والاستسلام . والشعلة المتقدة في داخل ذات الشباب تبعث في نفوسنا روح الأمل بحسن نتائج وثبات انطلاقه ، وبذلك تتحقق الرجولة فيه . فهو إمكانات يجب أن تتحقق ، في أحسن وجهاتها . وهنا تنشأ المشاكل التي يجدها الشباب في نفسه وفي مجتمعه .

فالشباب مجموعة تناقض واضطراب وانفعال وارتباك ، ينتج عنها حيرة وثورة وصراع . والمهم ، في تربيته ، تحقيق التركيز في تناقضاته ، والاتزان في سلوكه .

ولا يتحقق هذا الاتزان ، وذاك التركيز ، إلا بقيام كل من المربين ، والشباب ، بالواجب الطبيعي في تحقيق تكون الرجولة ، أي في التربية . والطبيعة تقضي بأن يقوم الشباب بتربية نفسه ، وأن ينحصر عمل المربين بمساعدته ، وبتهيئة وسائل التربية .

وإذا طالبنا بحرية الشباب ، ليستطيع القيام بواجب تربية نفسه ، شاعرا بالتبعة ، فاننا لا نقصد بذلك الفوضى ؛ فالحرية شيء والفوضى شيء آخر . فالأولى بناءة ، والثانية هدامة . وانما يتزن العمل التربوي ، بين المربين

والشباب ، بتبادل الثقة ، وبالثقة بالتربية . وإذا أكدنا ضرورة تحميل الشباب تبعة تربية نفسه ، فلأن التفاعل الذي يتعلق به السلوك انما يتم في فؤاده . وعلى انفعاله بالفكرات المحركة ، والمثيرة للتفاعـل وللميول والسلوك ، تتوقف أهمية التفاعل ودرجته ونتائجه . فلنساعده نحن عـلى تربيته لنفسه وعلى توجيهها ! ..

١ـ لنثق بوعي الحياة في الشباب

في مساء يوم ، وفي سهرة عائلية ، ضمت بعض الاصدقاء ، شكا الينا أحد الحاضرين ابنه . انه ولد ذكي ونجيب ، « ينزع الدبس عن الطحينة » حسب تعبير الوالد . ولكنه لا يرغب في العلم والثقافة ، بل يفضل الصنعة. وهنا بدأ الأب يتنهد معربا عن ألمه ، بقوله : « انني اريد له الخير ، وأتمنى أن يصبح أستاذاً أو طبيبا أو محاميا أو مهندسا أو موظفا ، ولكنه يفضل أن يكون نجارا . صرفت المبالغ من المال حتى نال شهادته الابتدائية ، وانني عـلى استعداد تام لأن أستمر في الانفاق عليه حتى ينال البكالوريا ، والشهادة العالية . انه لا يعرف صالحه . يصر عـلى الدخول الى مدرسة الصنائع ، أو العمل في أحـد المصانع . ما أشد شقاءه ! انه يفضل الجهل على العلم ، ويختار حقارة العمل ، كصانع ، عـلى شرف الوظيفة ، أو الطبابة ! ... » .

« ما أسعد صديقي فلان ! ان ابنه أطوع له من بنانه ! يداوم بانتظام على المدرسة . وابني متمرد لا يذهب اليها إلا نادراً ، وخوفا من الضرب . مع أن ابني أذكى من ابن ذلك الصديق بدرجات » ! ...

كان هذا الرجل الشاكي صادقا في كل ما قاله وادعاه . فقد تسنى لنا التعرف بولده فؤاد ، وبابن صديقه جميل . وقد ثبت لدينا أن فؤادا أشد

ذكاء وأنشط حركة وأسرع خاطراً من جميل ، الولد الهادي . كان هذا عادي الذكاء ، بطيء التفكير ، لا يتفوق إلا بقوة حافظته وبجلده على الدرس .

سألنا فؤاداً عن سبب كرهه للعلم ، فأجاب : أنا لا أكره العلم ، بل احبه ؛ ولكن العلم لا يطعم خبزا ؛ فلا بد للانسان من مهنة يكتسب بها معيشته . وأنا مع حبي للعلم ، لا أميل الى المهن العلمية ، كالطب والمحاماة والهندسة وغيرها ، بل اميل الى العمل اليدوي في المصانع . إنني أشعر بلذة فائقة ، كلما قمت بعمل يدوي . وفي مدرسة الصنائع ، التي أختارها ، يعلمون العلوم . وما يمنعني متى بدأت عملي ، عند خروجي من المدرسة ، من ان استمر على تحصيلي الذاتي للعلم ، كلما سنحت الفرص ؟ اقتنعنا جميعا بحجة فؤاد ، واستطعنا اقناع والده ، نوعا ما ؛ فأدخله مدرسة الصنائع ، ولكن على مضض . فاتفق بذلك عمل فؤاد مع اتجاهه ، وشعر بطمأنينة نفسه ، وقد انسجم ميله مع توجيهه ، فاستعاد نشاطه ، وأخذ يعمل بجد . وظل مستمراً على الاجتهاد ، دائبا على العمل ، حتى نال شهادته ، وبدأ عمله المحبب اليه .

أما جميل ، فقد كان يميل الى المحاماة ، ولكن أباه يريده طبيبا . ولم يكن لاختيار الأب أي سبب يتعلق باستعدادات الولد أو ميوله . كان ذلك الاختيار على أثر مراجعته لأحد الأطباء الاختصاصيين في عيادته . فقد دفع لذلك الطبيب خمسا وعشرين ليرة لبنانية ، تعويضا عن اجراء الفحص ووصف العلاج . مع أن عمل الطبيب لم يستغرق اكثر من ربع ساعة . قام هذا الوالد ، على اثر مراجعته للطبيب ، بعملية حسابية رائعة ، بنتائجها !... حسب لكل ربع ساعة مبلغاً معادلا للمبلغ الذي دفعه . وقدر للعمل عشر

ساعات في اليوم ، على الاقل . فوجد الأرباح عظيمة ، تفوق حد التصور ، وتتجاوز حدود الربح ، في أية مهنة كانت . فأراد هذا الخير لابنه ، فلذة كبده .

حاولنا أن نرد هذا الوالد إلى الصواب ، مؤكدين بأنه لا يتسنى لكل طبيب مثل هذا الربح . وان حسابه كان مخطئا ، اذ فرض فيه الاستمرار . ولم نخف عنه : ان المحامين اللامعين كثيراً ما يربحون اكثر من ذلك . وأن مهنة المحاماة اكثر موافقة لاستعدادات ابنه وميوله . لم يكن لهذه الحجج والبراهين أي تأثير في هذا الوالد . فهو قد دفع المال واحس بعظمة الطبابة ، وبهيبة الطبيب ، فأراد لابنه ان يتمتع بخيرات هذه المهنة الشريفة . فلا مرد لارادته ! ولا يجوز أن يكون لقابليات ابنه ورغباته اية صلة بهذا الاختيار . وهكذا تم ، ونال الابن الشهادة التي أراها له أبوه ، بفضل قوة ملكة الحفظ عنده ، وبقوة المثابرة بجلد على الدرس والمطالعة .

هذا ماجرى منذ عشر سنوات تقريبا . ويظهر أن هذه السنوات العشر كانت كافية لاظهار نتائج تصرف كل من الوالدين مع ابنيهما : تصرف ، كانت الخطة فيه مراعاة ميول الولد ، وقابليات استعداده . وتصرف ، لم ترم الخطة في تحقيقه الا لامر واحد ، هو مسايرة هوى الوالد ، وتنفيذ رغبته ، دون أن تكون لرغبة الولد ، وقابلياته ، أي اعتبار ، أو تأثير .

فاذا نحن ، بعد مرور السنوات العشر ، نجد فؤادا ناجحا في أعماله ، محققا لاهدافه ، يجتاز الصعوبات بشجاعة ، والبشر طافح على وجهه . لا يُرى ، الا وابتسامة التوفيق مرتسمة على ثغره ، لا تفارقه . انه عامل صالح ، لا يهمه مقدار ما يربح بقدر ما يهمه الاتقان في عمله . انه يعمل عملا يحبه ، فهو يغار ، على نتاجه ، غيرته على نفسه وشرفه . انه لا يكترث بما

يعترض سبيله من عثرات ، أو بما يلقاه من مكاره . انه عامل يعمل بصبر وثبات ، وبشر الامل قائده ، فكيف لا يغتبط التوفيق بمحالفته ؟

وقد استطاع فؤاد ان يستمر في ثقافته الذاتية ، فأصبحت عميقة قوية رحبة . ولم لا تصبح ، هكذا ، وقد اقترنت بخبرة الحياة وتجاريبها ، ونالها من تأثير المهارة العملية أجمـــل أثر ؟ فما رأيك ، وهو قد كافح ، وكان لكفاحه في ثقافته اوفى نصيب ؟ . .

اما جميل ، فانه ما نال الشهادة حتى فتح عيادة كبيرة ، اثثها له والده بسخاء ، باذلاً آخر فلس مما اقتصد في حياته . وماذا عليه ؟ فهو سيستعيد الفلس مئات ، بل الوفا ، دون جهد او تعب ! . .

والواقع ، ان الروعة في مظهر العيادة ، قد اغرى الناس في البدء ، فتكاثر عليه وفود المرضى . ثم بدأ العدد يتضاءل ، بعد مدة ، لم تطل ؛ أدرك الناس ، بعد الاختبار ، سوء تصرف الطبيب وضيق آفاقه .

ان هـذه الشهادة المعلقة على احد جدران عيادته تنبىء ، ولا شك ، ان جميلاً قد قام بدراسته الطبية ؛ وانه تحمل الفحوص بنجاح ! ! . . . ولكن ، أنى لها ان تثبت ان جميلاً اصبح طبيبا ؟ . . ان شهادة القيام بالدراسة الطبية ، وبتقديم الفحوص اللازمة ، تمنحها الجامعة ! . . اما الشهادة التي تثبت ان صاحبها اصبح طبيبا ، فلا تمنحها سوى الحياة ! . . . تلك شهادة جامعية مكتوبة ، وهذه شهادة عملية مدركة ! . . والفرق شاسع بين ما هو مكتوب ، يقرأ ، وبين ما يدرك عمليا ، ويعتقد ! . .

اعتمد جميـــل ، في الحصول على شهادة دراسة الطب ، على حافظته واجتهاده ومثابرته ؛ ولم يكن باستطاعته الاعتماد على قلبه ، مصدر حيويته ، كما استطاع فؤاد رفيقه . وكل عمل يقوم به الانسان ، ولا صلة له بقلبه ،

هو عمل فاشل ، لا ترتاح اليه النفس ، ولا يساعد على الابداع والابتكار وسرعة الخاطر . وللنجاح في العمل شرطان اساسيان هما : ارتياح النفس الى العمل ، ونشاط قوة الابداع والابتكار .

ما شعر جميل ببوادر الاخفاق ، حتى اخذ يتعاون ، مع ابيه ، على الخداع والاحتيال . فاشتهر امره ، وكاد يفقد ، اكثر من مرة ، شهادته التي بها يعتز ؛ وكاد يصبح السجن مأواه ! .. ومن يدري ؟ ..

وهكذا ، فان توجيه الشباب في اتجاهات ، لا يتطلع اليها قلبه ، ولا تهيئه اليها قابلياتـــه ، في استعداده الفطري ، خطر على الفرد ، إذ يمنى بالاخفاق والفشل ؛ وخطر على المجتمع ، إذ يكثر فيه ، إذا عم هذا الوباء الاجتماعي ، عدد الاشرار المخادعين ، وشغب الافراد العاطلين عن العمل ، ولا سيما المتعلمين منهم . ولا نغالي إذا قلنا : ان انتشار وباء التحكم ، في التوجيه ، يؤدي الى نوع من الفوضى ، يتكون فيها كثير من الشرور التي نشكو منها ، ويشكو منها العالم .

فخطأ الوالدين ، في إرادة التحكم في توجيه الشباب ، في ابنائهم ، يماثله ما سبق وبيناه من خطئهم في الرغبة ، في تنشئته ، كما يشتهون .

واجب الوالد ينحصر في العناية بتعليم ابنه وبتثقيفه ، وفي إفادته من تجاربه واختباراته ، وفي مساعدته على اختيار عمل ، يكون وسيلة لكسب معيشته بذاته ، دون اي تحكم ، او ضغط . . وعلى الحياة الباقي ...

اوضح للشباب ، في بنيك ، ايها الوالد الحكيم الحنون ، طريق الخير وطريق الشر . وشجعهم على سلوك الطريق الاول ، باقـــدام ، وعلى النكوص عن سلوك الآخر ، بادراك واقتناع . وحاول ان تناقشهم فيما يظهرون من ميول ، وبين لهم رأيك ، معللاً اسبابه ! ولكن ، إياك ان

تتحمل انت ، وحدك ، تبعة مستقبلهم ! . . دعهم يشعرون بالتبعة ؛ فلا يلقون عليك اللوم ، كلما اعترضتهم صعوبات الحياة ، او شعروا بالضيق والضجر ، نفرة من عملهم ! اعلم انه يتعذر على من يعمل بتأثير الضغط ، لا استجابة لحريته وانطلاقه ، ان يشق لنفسه طريقاً واضحاً في الحياة ! ومن تكن هـــذه حاله يستول عليه الملل والضجر ، في عمله ، وتكثر شكواه ، لأنه لا يشعر بتبعة اختياره لذلك العمل ! . .

هذا قانون من قوانين الحياة ، فتعمق في فهمه ، وانظر فيما تلاحظه حولك ، تثبت لك الوقائع صحته . تأكد ان ، في تحديك لميول الشباب ، ولاستعدادهم الفطري ، وفي تحكمك في مستقبلهم ، قهراً وقسوة وتعريضاً للاخفاق ! ومن هذا الوضع ، ينشأ العقوق ! وهـذا ما يتذمر منه الآباء والامهات ، دون ان يقدروا ما يصيبهم من التبعة في عقوق ابنائهم لهم . وما العقوق إلا نتيجة طبيعية لفقد الثقة المتبادلة ، بين الوالدين والابناء ؛ والثقة وحدها ، هي التي تجعل الولد براً بوالديه !

فلنثق إذن ، بوحي الحياة في الشباب ! . .

٢ ــ لا حقارة في العمل

اعتاد الكثيرون ، عندنا ، ان يجدوا ، في الاعمال اليدوية ، حقارة وانحطاطا . فلا يليق ، في نظرهم ، ان يتعاطى الشاب المتعلم هذه الاعمال . وهو إرث اتصل ، بنا ، من ازمنة ، كنا نرزح ، فيها ، تحت اعباء ثقيلة ، حملنا إياها انحطاط في التفكير والشعور ، وضعف في الارادة . فما كنا نحاول إدراك ظواهر الحياة ، على حقيقتها .

اننا نحتقر ، منذ القديم ، العامل والصانع والفلاح ؛ ومنذ أقـــدم

العصور ، احتقرهم الناس ، في جميع بلدان العالم ؛ والغريب ان الانسان ، كعامل ، وكصانع ، وكفلاح ، اعتاد احتقار نفسه ، هو أيضا ؛ فكأنه يجـــد ، في قرارتها ، ما يدعوه لاعتقاد انحطاطه عن طبقات السادة ، والاشراف ، والاثرياء . فهل كان تعاطيه هـــذه المهن سبباً في احتقاره لنفسه ؟ أو بتعبير آخر : هل كانت هذه المهن محتقرة لذاتها ؟ أم كان هناك سبب آخر يدعو لاحتقارها ؟ .

نظرة مجردة في واقع الاحوال ، عندنا ، اليوم ، وفي الامس الذي نعيه ، تجلي لنا حقيقة هذه الظاهرة . فمن منا لا يذكر عاملاً او صانعاً او فلاحا ، تجعله مهارتـــه ، او ذكاؤه وخبرته ، محترماً من الناس ، ومن اسياده ؟ . . ومن الطبقات المترفعة ، التي تعتبر نفسها من سلالة انصاف الآلهة ! . .؟. . ومن منا لا يجد سبب ذلك في فرضه نفسه على المجتمع ؟. . وكيف فرض نفسه ؟. . ألا ترى معي ان السبب الجوهري، هو في بروز نفسه الانسانية ؛ وفي تصرفاته ؟ . . وانه كان لهـذه الحكمة الاختبارية تأثيرها ، في تفاعلات فؤاده عندما نقلها انفعاله الى الاعماق ؟ . . فانبثقت في نفسه، الشاعرة ، بانحطاطها ، ميول قوية جديدة ، هي ميول التحرر ؛ فارتفعت بها نفسه وسمت ، فأحاطتها الحياة ، إذ تحققت انسانيته فيها ، بهالة من نورها الأزلي، فانجذب الناس الى ذلك النور، وهابوا من تكللت به هامته ، واحترموه ! ؟ . . ثم ألا تعرف الكثيرين ، من هؤلاء ، وقد قلبوا أوضاع مجتمعهم ، صغيراً ام كبيراً ، وأثروا في تفكير من حولهم، في شعورهم ، وفي سلوكهم ؟ . . ألا تذكر من هؤلاء من هز العالم ، ودوخ زعماءه ؟ . . اتبرّأ هؤلاء ، ولم يخلد التاريخ عدداً قليلاً منهم ، ام هم يتبرّأون — ولا ينـــدر وجود امثالهم بيننا — من الصنعة التي كانوا

يحترفونها ، او العمل الذي كانوا يقومون به ، قبل ان يقفوا على قمم الحياة ؟ .. اننا نعلم انهم كانوا ، بالعكس ، يفتخرون بأعمالهم ، ويمجدون مآتيهم فيها . اننا نعلم انه لايزال من يرتفع ، من هؤلاء ، يتباهى بالاعمال التي اسس عليها حياته ، دون ان يجد في نفسه اية حقارة بسببها ! . . انما تأخذهم ، في نشوة نجاحهم ، عزة العصامية ، فيرفعون رؤوسهم عاليا ، كلما لفتوا نظرهم الى الماضي ، متأملين في اعمالهم ، وفي مآتيهم ، وفيما ذللوا من صعوبات !! . .

انني لا ازال اذكر بالاعجاب والتقدير رجلا ، اجتمعت به في زيارة صديق ، في عيده . كان ذلك الرجل ملء سمعي ، لما كنت اسمع عن ثرائه وجاهه وطيب عنصره . كان آنئذ في سن اخرجه من زمرة الكهول ، ليدخله ، بعد قليل ، بين شيوخ العصر وكبرائه . سررت باجتماعي اليه ، وقد كنت في ابان شبابي ، وفرحت بذلك ، فرح الطفل ، يجد ما يتشوق الى امتلاكه . ولم اكن مخطئاً في فرحي ، وقد افدت من حديثه العذب ، الذي يستمده من خبرته ، في حياته ، إفادة لا يزال اثرها في فؤادي ، الى اليوم ، ولا سيما عندما استمعنا اليه يقول ، موجهاً كلامه لصاحب الدار : انني اشعر بارتياح كبير ، عندما اكون في دارك ، ولذلك اطيل زيارتي عندك . تطاولت اعناقنا ، وهو يهز رأسه هزات قصيرة ، متزنة متوالية ، يبعثها تأمل عميق ، انبأتنا نظرات الرجـــل ، في اثنائه ، ان للحديث تتمة ، تتعلل معها اسباب ارتياحه وتأمله . تطاولت اعناقنا ، انتظاراً للتتمة ؛ ولم يجعل انتظارنا طويلا . فما لبث ان اتم حديثه قائلا : بُني هذا الدار على رأسي ، منذ خمسين عاما ، تقريبا ! .. فقد كنت آنئذ صانع بناء ، انقل الطين على هذا الرأس ؛ وأشار إلى رأسه . فعملت في

هـــذا الدار ، من بدء المباشرة في بنائه ، إلى انتهاء العمل . ما اعذب ذكريات تلك الايام ! قد كان معلمي البناء رجلاً حكيما ، يحترمه الجميع ، على الرغم من انه كان أميّاً ، لا يقرأ ولا يكتب . انه كان ذا خـــبرة طويلة ، كثيراً ما كان الناس ، وكبار الناس ، يستأنسون بالاستفادة منها . كانوا يأتون لاستشارته ، في كثير من امورهم ، ولا يخفون عنه شيئاً من اسرارهم ، حتى ولا البيتية منها . انه كان وقوراً ، عفيف اليد والنفس ! كان ابياً لا يتذلل لأحـــد ، وكان ماهراً في عمله ، صادقاً في نصحه . لكنه لم يكن يعرف ، رحمه الله ، كيف يوفر المال ! انه عاش من كده وعرق جبينه ، ومات مستوراً (١) . انه لم يفكر في اكتناز المال ؛ ومات عزيزاً محترما ، بين زملائه ، وعند كبار القوم ؛ ومات عزيزاً مكرما . ثم التفت الينا قائلا : ومن لم يسمع منكم بالاسطة ابي جورج ؟ . .

اننا تركنا تلك الدار ، في نهاية الزيارة ، ونحن اكثر احتراماً لذلك الرجل ، منا ، عند مجيئنا ! . . وقد ذكرت لك انه كان ملء سمعي ، وكان ملء سمع الناس ، ونظرهم ، ولا يزال الى اليوم ملء نفسي .

فقل لي بربك ، لو أن المهنة تحتقر لذاتها ، اكان هذا الرجل ، وأمثاله ، يزهو بذكراها ؟ . . ! و كنا نشعر في نفوسنا بزيادة الاحترام له ، بعد ان عرفنا منشأه ، ومن فمه هو ، لا من افوال الناس فيه ؟

ان المهن لم تكن ، يوما ، محتقرة لذاتها . وان احتقرت ، فانما كان ذلك لاحتقار اربابها لأنفسهم . وما احتقروا أنفسهم ، إلا لجهلهم حقيقتها

---

(١) المستور في عرف العامة من لا يحتاج لاحد في امر معاشه ، ولا يكون لديه فضل من مال او ثراء .

وإمكاناتها . ان نفوس هؤلاء مكبوتة ، فهم لا يشعرون بوجودها . ومن وجد نفسه ، منهم ، نال حظه من الاكرام والاحترام .

وإذا كان كبت النفس سبباً من اسباب احتقار المهن ، فهناك سبب آخر ، يقوي هذا السبب ، ويزيد في الكبت ، وفي تجاهل النفس ؛ ألا وهو نظام الطبقات ، وتأله من يعتقد النبل والشرف في اسرته !.. وهذه انما تحدرت من رجل كان يوماً صانعا ، او عاملا ، او فلاحا ، وأبلى في الحياة بلاءه الحسن ، فرفعه في اعين ابناء زمنه ، فمجدوا عمله ، واصبح اول بانٍ لشرف اسرته . انه يظل اشرف من ينتسب اليها ، مهما طال في استمرار عزها الزمن ! . .

حكي ان فيلسوفاً عظيما ، جاء لحضور اجتماع ، ضم كثيراً من الناس . وما اقبل ، حتى وقف الجميع اجلالا ، وفسحوا له مجال الجلوس في الصدر ، محتـــلا المركز الاول ، مع انه لم يكن اكبرهم سنا ، ولا اعرقهم في في الشرف . اغاظ ذلك شاباً ارستقراطيا ، من الذين يدعون الشرف ، لأنه يعرف ان هذا الفيلسوف فقير ، وانه ابن فلاح ، كان يعمل في ارض آبائه . فلم يتمالك نفسه ، في فرصة ، سنحت ، بل التفت الى ذلك الرجل المبجل ، وذكره بأصله ، بسخرية وهزء ! . . ابتسم الفيلسوف ، عند سماعه قول ذلك الشاب المتغطرس ، وقال له ، بدعة وبساطة : « اشكر الآلهة ، لانها جعلتني اول اسرة ، انت آخرها ! » . .

وهو جواب واضح ، لا يحتاج ، على ما اعتقد ، لأي تعليق .

فاحتقار المهن لا يتعلق إذن بذاتها ، كمهن ، وانما هي نزعـــة ارستوقراطية ، يقويها نظام الطبقات ، في الامم وفي الشعوب . كما ان نفسية العامل والصانع والفلاح ، قد تشجع على تبني هذه النزعة ، ما دام

الجهل مسيطراً على العقول .

فهي نزعة هدامة ، لا تتلاءم مطلقاً مع نظاماً الديموقراطي : أي نظام سيادة الشعب ، بقوة الشعب ، ولصالح الشعب . ولا يتحقق النظام الديموقراطي مع الجهل . فلا بد من تربية الشعب تربية تبرز بها النفس ، فلا تظل مكبوتة ، ليرتفع مستواه ، في سلوك افراده وتنظيم مجتمعاته . يشعر الفرد ، عندئذ ، بالسيادة ، ولا يرى ، في عمله ، ما يخفف من شعوره هذا ، ما دام هو القوة التي يرتكز عليها كيان الدولة ، والامة .

لا ادري أية ميزة يجوز أن يتميز بها الطبيب أو المحامي أو المهندس ، أو الموظف أو الحاكم ، أو غيرهم ، عن العامل أو الفلاح أو الصانع ، إذا تثقف هؤلاء ، وعرفوا كيف يتحررون ؟ الطبابة مهنة ، والحدادة مهنة ، وكل من هذين يعمل لكسب قوته ، مبدئيا ؛ وكل منهما يستطيع الثراء والتمتع برغد الحياة ، بكده وبعرق جبينه ؛ وكل منهما سيد ، يستطيع الزهو والغطرسة ، إذا احتاج الغير اليه ، وكان سخيف العقل ، صغير النفس !.. الفرق ، إنما هو في ثقافة الاول ، وفي جهل الثاني . « لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . هذا صحيح ! . . ولكن إذا تثقف الحـــداد ثقافة اساسيه صحيحة ، فأي فرق يبقي ؟ . . لا أظن انه يظل هناك اي فرق ! ولا ارى ان احدهما يكون اكثر جدارة بالاحترام ، إلا إذا كان اكثر فائدة للمجتمع ! . .

كنت مرة في حفلة مدرسية ، امثل فيها وزارة التربية الوطنية . قام احد الخطباء ، وأخذ يندد بكثرة الشهادات ، ولا سيما شهادة البكالوريا ، مؤكداً ان الحالة اصبحت لا تطاق ، لأن هؤلاء المثقفين لا يجدون عملا ! . . وهنا ، توقف قليلا ، ثم تمم قائلا : « يؤلمني ان اخبركم انني اعرف شابا ،

نال البكالوريا ، واضطر ، مع ذلك ، ان يكون فوالا ! .. فهل يجوز أن ينحط قدر الشهادات الى هذا الحد ؟ .. »

وما اختتم الخطيب كلمته ، حتى وجدتني على المنـــبر ، لا لأكون خطيبا ، بل لأطلب ، من ذلك الاديب ، ان يدلني على هـذا الشاب ، لأذهب اليه مهنئا ، ولاصافحه بقلبي ، قبل يدي ، عارضاً عليه صداقتي . ان صداقة من يعرف كيف يشق للمجتمع طريقاً جديداً في الحياة ، هي اثمن الصداقات ! . . ان هذا الشاب قد شق لنا طريقاً جديداً في التفكير وفي الشعور وفي السلوك ! .. انه يردنا الى الصواب ، في تقدير حقائق الامور ، فلم لا نشجعه ؟ ولم لا ندعو للاكثار من هذه الشهادات ؟ . . أيضرنا ان يصبح العمال والفلاحون والصناع من حملتها ، فيرتفع مستوى الشعب ، ويعرف كيف يكون سيد نفسه ، وسيد بلاده ؟ . . انه شاب يستحق التقدير والتشجيع ! .. انه رجل عظيم ، يريد أن يفهم الناس ، عمليا : ان لا حقارة في العمل !

وما تركت المنبر ، حتى رجعت الى الخطيب الاول ، ارجوه تعريفي بالبطل ! فاذا هو بطل وهمي ، حاكته المخيلة ، فصعقت اسفا ! . . لم اجد الفكرة محققة ، على ما املت ! .. فما اصعب الاخفاق بعد الامل ! ..

٣ ـ اهمية التوجيه ، وغايته

يقال وجه الشيء ، اي اداره الى جهة ما ؛ وتوجه الى الشيء ، اي اقبل عليه وقصده . فالتوجيه يتضمن في معناه امرين اساسيين ، هما :

(١) الهدف الذي يجب ان يدار الشيء نحوه .

(٢) إدارة هذا الشيء نحو الهدف المقصود .

هذا في اللغة ؛ ولا يبعد معنى التوجيه في التربية عن هـذا المفهوم . فهناك هدف يجب ان يجعله الشاب غايته ، وأن يرمي اليه ؛ وهناك وسائل تتخذ لتوجّهه الى ذلك الهدف ، اي لاقباله عليه .

فما هو الهدف الذي يجب ان يتخذه الشاب غاية له، في حياته، سلوكا ، وعملا ؟ .. وما هي طريقة اختيار ذلك الهدف ؟ ..

وما هي الوسائل التي تجعل الشاب يتوجه الى الهـــدف المتفق مع امكاناته ؟ .. وكيف نحصل عليها ؟ ..

ثم ما هي اهمية هذا التوجيه في حياة الشباب ؟.. ومن الذي يوجهه ؟

هذه هي الاسئلة التي يناط بالاجابـــة عليها امر حل قضية التوجيه . وهي مشكلة ، يتصل بامكان حلها اصلاح المجتمع ، وتقدم الانسانية ، في حضارتها ، تقدماً مركزاً ، يحفظها من الانهيار ، ويدخل على نفس الفرد الطمأنينة والسكينة .

فلحسن التوجيه شأن كبير في تسكين اضطراب النفس ، وتركيز متناقضات الشباب ، وتهدئة الانفعال واتزانه . فهو ، إذن ، وسيلة تربوية لا يستغني عنها ؛ وحري بمن لا هدف له ، في الحيـــاة ، ان يظل فريسة الاضطراب والانفعال، والتناقض والارتباك ! وإذا تأملنا، في اضطرابات الشباب ، نجدها ، اكثر ما تكون بروزاً ، في الوقت الذي تتجاذبه فيه اتجاهات مختلفة ، وأهداف متعددة . فهو لا يدري على أي منها يجب ان يقبل ، ولا أي هدف يجب ان يكون قصده .

وإذا قلنا التوجيه ، فلا نحصره هنا بالتوجيه المسلكي، أو المهني ، أي التوجيه الذي يعلّق به امر اختيار المهنة التي يتخـــذها الانسان وسيلة لكسب معيشته ؛ وإنما نريده ، بأنواعه ، من حيث السلوك والثقافـة ،

والاعمال الاجتماعية ، واختيار المهنة . . . وان كان التوجيه المهني هو قصدنا الأول .

فلا بد للانسان من ان يكون له اهداف معينة، في سلوكه ، وهي ما تواضعنا على تسميتها بالمثل العليا ، ذات الاتصال الوثيق بالحق والخير والجمال . وقد يقتبس الانسان مثله هذه من عقائد دينه ومبادئه ؛ او من المذاهب الاجتماعية وما ترمي اليه من اغراض . وقد يتأثر ، في تكوينها، بمطالعته لأقوال الفلاسفة، او بتذوقه لآثار الادباء . كما قد يتأثر باختباراته، أو بما يلقى عليه في بيته ، أو في مدرسته .. الخ .. والمهم ، في تكوين هذه المثل ، أن لا تشتبه بالاوهام . وهي تشتبه بها ، بل قد تصبح وهما ، في الحقيقة ، إذا انفصلت عن الواقع ، وعن امكان التحقيق ! وربما قلبت التصورات الجزئية ، التي سبق وألمعنا اليها ، المثل العليا اوهاما ، نضل معها السبيل ! ..

لذلك كان للثقافة ، في التوجيه السلوكي ، وفي كل توجيه ، اهميتها العظمى ، وتأثيرها الفعال . فكان من الضروري ان توجه الثقافة، توجيهاً صحيحا ، يتفق مع امكانات النشء ، على اختلاف درجات استعداده ، ذكاء وثروة وميلا . فوجب ان نضع له مناهج تلبي حاجاته ، مع مراعاة الفروق بين الافراد ؛ حتى لا يضطر لحفظ موادها ، دون ان يكون لها بنفسه اي اتصال . لم يخلق الشاب للمناهج واختزان موادها ! فيجب ان يتم وضعها على شكل يساعده على نموه الذاتي . انه إذا اضطر لتناول ما لا يقوى على هضمه وتمثيله ، يصاب بسوء الهضم ، فيمنى بالفشل . ويصبح فريسة الامراض النفسية ، والتشويش . هذه هي حال ضحية المناهج المفروضة بالتقليد ، لانها غير مقتبسة من حاجاته ، حسب عمره ونموه ،

وبما لا يقتضيه محيطه وبيئته . وما يقال ، في المناهج ، يقال في الفحوص والامتحانات ؛ انه لم يخلق لها ، فلا تصلح غاية لجهوده ؛ انما هي وسيلة ، يتعرف بها الى نفسه ، ويتفهم نتائج جهوده . فهي كالمرآة ، تريه صورته . ومتى أصبحت الفحوص هدفا، ضاعت الجهود ، وضلت النفوس، فيستولي عليها الارتباك والاضطراب .

يجب الانتباه ، في توجيه الشباب ، ثقافيا ، الى الحد الذي يجب ان يقف عنده ، في المثابرة على الدرس ، في المدارس . فهناك استعدادات لا تستطيع تجاوز الدراسة الابتدائية ، فلا يجوز الضغط عليها . وما ينطبق على هذه المرحلة ، من الدراسة ، ينطبق على سائر المراحل . فالثقافة لا تكترث بالكمية ، بل بالكيفية . فلا تهمنا المواد التي يتلقنها الشاب ، من حيث كميتها ، وإنما الفائدة في كيفية اختيارها وتلقنها . وإذا تذكرنا تفاعلات الفؤاد ، وقد مر ذكرها ، ندرك اهمية الكيفية ، في الاختيار ، وفي التلقين . لذلك قال المربون : علم قليلا ، ولكن علم جيداً .

اننا لا نستطيع ان نعلم الشاب كل شيء ، في المدرسة ، ولا نستطيع ان نعلمه كل ما سيحتاج اليه ؛ ويتعذر علينا ، في الحقيقة ، معرفة ذلك . فلنلقنه كل ما يستطيع ادراكه وفهمه وهضمه ، وكل ما يحتاج اليه حسب عمره وحياتـــه . ولنترك له امر تعلم ما يحتاج اليه ، في المستقبل ، الى المستقبل ؛ وهو يسعى الى المعرفة ، إذا كانت ثقافته المدرسية صحيحة ، مهما كانت درجتها .

فنحن ، إذن ، لا نقصد من ايقاف سيره المدرسي ، عند حـــدود استعداده، أنه لن يستمر على التعلم . ولكنه، في هذه الحالة، لن يستطيع الاستمرار ، إلا بالتحصيل الذاتي الحر، ومع قيامه بالعمل . ولا نخشى ان

يترك التحصيل ، إلا إذا كانت ثقافته غير مركزة ، شأن من يتخرج من المدارس التقليدية . اما الذي تكون ثقافته متلائمة مع نفسيته ، ومنسجمة مع فؤاده ، فسيظل متعطشاً لانمائها ، وتقويتها ، طول حياته . ولن يعدم وسيلة لذلك ، فالحاجـــة أم الاختراع . فكيف إذا يسرت له امته ، حكومةً ، بدور الكتب ، والمحاضرات والمعاهـــد الليلية ، وشعبا ، بمؤسسات الجمعيات العلمية والادبية ومحاضراتها ؟ . .

والفرق بين من تقف به استعداداته عند حد معين ، وبين غيره ، هو ان الأول يتعذر عليه الاستمرار على التعلم المدرسي المنظم ؛ لا سيما ، والمناهج على ما هي عليه ، من نقص ، في مراعاة أدوار الحياة ، وقابلياتها . والفحوص ، وهي شر لا بد منه ، على ما نعلم ، بتنظيمها وتحكم الادارات والفاحصين فيها ! . . فالتحصيل الحر ، وهو يختار له وقته ، بحريته ، دون ان يحسب (لبعبع) الفحوص اي حساب ، هو الأليق بمثله ، والافيد .

فالتوجيه الثقافي ، إذن ، ضروري ومهم : حفظاً للشباب من الامراض النفسية ، وحفظاً للمجتمع من اضرار ثرثرة من يتعلم ، ولا يتثقف ، واتقاء لأخطار شغب المشوشين ! . . . ولا سيما إذا تمكنوا من الحصول على الشهادات ، دون ان يتثقفوا نسبيا ، على الاقل ! . فجهل بسيط خير من جهل مركب ، ذي شهادات ! . .

وهذان التوجيهان ، السلوكي والثقافي ، يؤثران تأثـــيراً كبيراً في تكييف التوجيه الاجتماعي . فتقوم مؤسساتنا الاجتماعية ، من خـــيرية وأدبية وعلمية وسياسية واقتصادية ، وغيرها ، على اسس متينة ، حين تصبح ، بالتوجيه الصحيح ، منبثقة عن نفوسنا ، عقيدة ومبدأ وهدفا ! . . فلا نقلد الغير تقليداً يجعلها شكلية ، أو صوراً ، لا روح فيها . فبالاصالة

تستجيب هذه المؤسسات لحاجاتنا ، وتتفق مع تطورات حياتنا، وتساعدنا على التقدم والرقي. وإلا ، فاننا نظل مشغولين عن حقائقها، وعن فضائلها، بمشاكل الرئاسة ، وبغيرها . انها تصبح هدامة ، بما تسبب من تفرقة ، في الصفوف، وانقسام، بين الاعضاء ، لترهات، وتوافه، من الاعتبارات !.. وهي انما وجدت للبناء ! ..

٤ ـ التوجيه المسلكي او المهني

لا بد لكل شاب ، يرغب في ان يحيا حياة انسانية حرة ، يحافظ فيها على استقلاله الذاتي وكرامته ، وعلى استقلاله السياسي ومجد امته ، من ان يختار مهنة ، أو مسلكا ، يتخذه وسيلة لكسب معيشته ، بعرق جبينه وبكده . لا يحتفظ بكرامته من يحتاج الناس ! وقديما ، قال العرب : « احسن إلى من شئت ، فأنت اميره ! . . واستغن عمن شئت ، فأنت نظيره !.. واحتج الى من شئت ، فأنت اسيره !.. » فلا يجوز للشاب ان يفسح ، بكسله وقصر نظره ، أي مجال لأسره ، في رجولته ؛ فبذلك يصبح عبد الغير، وعبد الغير ذليل مقهور !.. فهو، إن لم يستطع الامارة، فليتهيأ ليكون نظيراً لغيره ، من المواطنين . والواجب الديموقراطي يقضي بأن لا يسمح لأحد بانشاء الامارة لنفسه . فالامارة للامة ، وكل فرد فيها يجب ان يكون سيداً، فتسود الامة بالاسياد الذين تتكون منهم. ولا يتم ذلك إذا اكتفى الشاب بالحصول على الشهادات، ليطرق الابواب ، ويتسكع على الاعتاب . فلتكن له مهنة ، يعتز بها . وقد قلنا ، واثبتنا ، أن لا حقارة في العمل .

هـــذا هو اتجاه المدارس الحديثة ، اليوم . انها تجبر الشباب ، في

مدارسها ، على العمل في معاملها وفي مصانعها ؛ وقد زاد شغفها بالعمل ، حتى اصبحت تسمي الصفوف ، فيها ، معامل . فمبدأ احترام العمل مبدأ اساسي ، في مجتمعنا ، اليوم . ولن تتحقق الديموقراطية الحقيقية إلا به . كفانا ترفا ، في العلم ، وفي التعليم ! . . فان هذا الترف هو أشد خطراً من الترف المادي ! . . وهو افتك في الامم ! . .

يجب على الشاب ان يعنى بتوجيه نفسه لمهنة معينة ، أو لمسلك محترم . ويقصد بالمهنة ما له صلة بالاعمال اليدوية ، خاصة ، كالنجارة والحـــدادة وغيرها . وبالمسلك ما يعتمد على الاعمال العقلية ، خاصة ، كالمحاماة والطبابة والهندسة وغيرها ؛ ان للنظريات تأثيراً كبيراً ، في النوع الاول . وان لليد ، عملاً قويا ، في النوع الثاني . وليس ما يمنع من اعتبار المهنة مسلكا ، والمسلك مهنة ؛ بل هذا واقعي ، ونحن في عهد المساواة ، في الاعتبار بين جميع الاعمال . وإنما اوردت ما سبق ، زيادة في الايضاح . لا تفريقاً بين المتساوين ، في الأهمية والشرف .

ان كسب المعيشة ، وما يترتب عليها من نتائج ، نفسية ووطنية واجتماعية ، ليست الهدف الوحيد من التوجيه المسلكي . هناك هدف آخر ، لا يقل عن هذا أهمية ، هو الهدف الثقافي . فقد أثبت التحليل العلمي ان ، للمهارة العملية ، تأثـــيراً عظيما ، في تفهم النظريات ، وتجنب التصورات الجزئية . فتبادل التفاعل ، بين النظريات العلمية والمهارة العملية ، مبدأ مسلم به ، علميا . فالنظريات المدركة ، ادراكاً صحيحا ، تؤثر في تسهيل المهارة العملية ، وفي سرعة التمرن عليها . والمهارة العملية تزيد في توضيح النظريات العلمية ، وفي تركيزها ونضجها . فلا غرو إذا اهتمت المدرسة الحديثة بايجاد المعامل والمصانع ، في ابنيتها ، وأوجبت العمل فيها . فلها ،

بتحقيق ذلك، اهداف عدة ، منها : التربية على احترام العمل، واكتساب مهارة عملية تساعد ، ثقافيا ، على انضاج النظريات ، ومساعدة الشاب على توجيه نفسه ، باختيار مهنة ، تليق باستعداده .

اتخذت المدارس الحديثة وسائل عـــدة لمساعدة الشاب ، على توجيه نفسه : منها هذه المعامل والمصانع ؛ ومنها ما تقوم به من دروس واختبار وارشاد ، دون ان تنسى اتصالها بالاهل والاولياء ، وبالشاب نفسه . وقد انشئت لجان خاصة للتوجيه ، تبنتها الحكومات ، حتى في توجيه الجنود ، في اعمالهم العسكرية والحربية . وقد تعاونت مع أرباب المدارس الحديثة، ومع كثير من المؤسسات العلمية ، على ايجاد مؤسسات للدراسات النفسية ، لايجاد وسائل العمل ، ومنها الاختبارات النفسية ، بصورة علمية دقيقة . ان هـذه المؤسسات تشتمل اليوم على مختبرات ، تحوي احدث الآلات والادوات ، للقيام بهذه الدراسات ، والمقاييس اللازمة لها . وإذا كانت لم تبلغ الكمال في منح النتائج الحاسمة ، فان ما وصلت اليه يدعو لكثير من الاستئناس والطمأنينة .

لم تنشأ ، في البلاد العربية ، هذه المؤسسات ، ولا تلك اللجان ؛ وانما هي جهود فردية ضعيفة ، او مدرسية محصورة ، وفي بعض الاقطار ! . . ولا يجوز أن يترك مستقبل الشباب للجهود الفردية ، مهما سمت معرفـــة الافراد ! . .

اننا ما فتئنا ندعو ، منذ عشرين عاما ، لانشاء هـــذه المؤسسات ، بمراكزها الدراسية ، في جميع البلدان العربية ، سواء أكان ذلك باتصالنا بالحكومات ، وبالعلماء ، أم باللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية . ونرجو أن يتحقق هذا المشروع الحيوي ، في زمن قريب ، لما نرجو له

من تأثير في صحة توجيه الأفراد والجماهير، وفي مساعدة المعامل والمصانع والمؤسسات، على توزيع الاعمال حسب الاستعدادات، وحسب ما قد يطرأ عليها من تبدل مع الزمن.

واننا نغتنم فرصة نشر هذا الكتاب لنقوم بالدعوة الى هذا المشروع، وما يتفرع عنه من مشاريع، مرة اخرى، علنا نجد بين القراء من يقدر على تحقيقه، او من يحاول المساعدة، فيتعاون، مع غيره، في هذا العمل الاجتماعي الخطير. ويرى علماء النفس، بسبب هذه المشاريع، ان العلوم النفسية، ستكون هي الوسيلة الفعالة لتنظيم العالم، وتحقيق السلام.

وإلى ان تنشأ هـذه المؤسسات، لا بد من ان نعرض للشباب بعض التوصيات العملية، متجنبين التعمق العلمي، لتكون وسائل مساعـدة، يحاول بها سبر نفسه، ما امكن، وادراك استعداداته، ما استطاع الى ذلك سبيلا.

يجب ان نواجه الحياة بمشاكلها، وان لا نحجم. وهذه هي مشكلة تلك المشاكل، فكيف نحاول حلها؟

ان اختيار المهنة عمل دقيق، فلا بد، في اختيارها، من مراعاة الامور الآتية:

(١) يجب ان نحـــاول ادراك أسرار المهن التي نميل اليها، إدراكاً كافيا، يجعلنا نتصور تصوراً تاماً ما يتصل بها من اعمال، وما تقتضيه أعمالها من جهود وذكاء ودقـة؛ ولن نهمل الاستعداد الجسمي، وصحة الاعضاء وقوتها على تحمل التعب. حضرت مرة لجنة توجيه في باريس، وهي تقوم بأعمالها. وأذكر أن شابا، كان ينوي ان يتوجه في دراسته العالية الى الطبابة. ولكن اللجنـــة اكتشفت في نفسه ضعفاً في سرعة

الخاطر . ولما كان لهـــذه القوة اهميتها في تشخيص الامراض ووصف العلاجات ، نصحته بالعدول عن الطبابة ، خشية ان يفشل فيها ، ولو نجح في الامتحانات ، ونال الشهادة . ولما ناقشهم الطالب ، ومناقشة الشباب ضرورية في هذه اللجان ، وكان يعتقد بنفسه العكس ، برهنوا على صحة فكرتهم بما اثبتته الاختبارات المتوالية ؛ وأوردوا له الامثلة التي اقنعته . قرر عندئذ تغيير اتجاهه ، وطلب اليهم مساعدته على ذلك ، فوعدوه . وبعد الدرس ، نصحوه باختيار عمل يدوي ، يتلاءم مع وضعه الجسمي والنفسي .

فمن المصلحة ، ان لا يستولي الغرور على الشاب ؛ فعليه ان يتعرف بحقيقة نفسه ، وان لايخجل من طلب مساعدة الآخرين ، من اصدقائه واهله ومربيه ، للوصول الى الحقيقة . عليه ان يرحب بالحقيقة ، إذ بذلك مصلحته .

ان معرفته بخفايا نفسه تساعـــده على درس امكان الانسجام ، بينه وبين المهنة التي يريد اختيارها . وانه لواجد في مربيه خير من يستطيع اسداء النصح اليه ؛ فعليه ان يتصل بمن يثق بهم من مربيه ، وان يتأمل ملياً فيما يسدون اليه من نصائح .

(٢) يجب ان لا تمنعه محاولته إدراك اسرار مهن يميل اليها ، من محاولة إدراك اسرار غيرها . قد يكون جهله ، بالمهنة ، هو الذي يبعده عنها ؛ وربما يجد ، في هذه ، ما هو اكثر ملاءمة لوضعه ، وتكون هي ضالته .

من المستحسن ، في هذه الحالة ، ان يحاول معاشرة من يتعاطى المهنة التي يريد اختيارها ، وان يستأذنه في مساعدته ، احيانا ، فيما يمكنه من عمل . لأن الاختبار الذاتي يضعه ، امام الواقع ، فيواجه الحقائق مواجهة مباشرة .

(٣) لا يكفي ان يتفق العمل مع ميول الشاب، بل يجب ان يكون ملائماً لما عنده من استعدادات وامكانات ، يتعرف اليها بنفسه ، بملاحظة ذاته ، وباتصاله بذويه ومربيه . وقد يستفيد كثيراً من ملاحظات رفقائه ومعاشريه ، إذا اتسع صدره لملاحظاتهم ، ولنقدهم لأعماله وتصرفاتـه . فالغرور مرض ، يبعد الانسان عن حقيقة ذاته .

(٤) يجب ان يختار عملاً يؤمن له ، من الربح الحلال الشريف ، ما يكفيه ، في الحصول على حاجاته الضرورية ، على الاقل . فالمهم ان لا يحتاج غيره في الحصول على معيشته .

(٥) لا بد من ان يكون العمل المختار متلائماً مع كرامته الانسانية، وواجباته الوطنية ، ومكانته الاجتماعية ، كانسان حر مهذب . ولا يُقصد بذلك تحقـــير بعض المهن ، فالمهن كلها شريفة ، ما دامت تجنبه التذلل والاستجداء . وانما هنالك مسالك غير شريفة ، كبعض السمسرات ، وكالقمار ، وغيرهما ، فالشريف الابي يجتنب ممارستها .

(٦) يجب ان يملأ العمل المختار قلبه ودماغه ، فتتركز في نفسه روح العمل، وحبه . وتنبعث في نفسه خير السجايا المسلكية، وقد كاد الانسان يفقدها ، في عصر الآلة . ولا خـير في عمل لا يملأ قلب الانسان ، خشية أن يلقي به بين براثن الضجر والملل ، وان يورثـه الحسرة والندم ، عند اول خيبة أو اخفاق ، قد يصيبه . وما احوجه ، في هـذه الحالة ، للصبر والثبات والمثابرة، ولن تتحقق هذه الصفات إلا في عمل يملأ القلب، اولا .

(٧) لا تحتقر عملاً تميل اليه ، مهما كان حقيراً في نظر الغير . فنجاحك منوط بميلك لعملك ، وحبك لمهنتك ، لا بنظر الغير اليها . فحبك لعملك، هو الذي يمنحك قوة تحمل التعب ، واجتياز العقبات .

(٨) لا تخش ان تبدأ بعمل صغير . ان تنميتك لعملك ، بنفسك ،

أضمن لنجاحك وتفوقك ، ولاطمئنان نفسك ، وسعادتها .

ذكر لي احدهم ، يوما ، القصة التالية ، فقال :

« كان ثلاثة من الشبان المهاجرين، الاغراب، يتجولون بين المصايف، في صيف ١٩٣٥ . كان احدهم يتعاطى صنعة اصلاح الاحذية القديمة ، والثاني صناعة التنك ، والثالث إصلاح الاواني الفضية وتنظيف المعادن ؛ وكانت تظهر عليهم جميعهم مظاهر الثقافة . سألناهم ، يوما ، عن حقيقتهم ، فتبين لنا أنهم طلاب في معهد الصيدلة ، في بيروت . يعملون ، طوال ايام الصيف ، وهم فقراء ، ليدخروا رواتب المدرسة ونفقاتهم الخاصة ، في أيام الشتاء . ولفت نظرنا ، أنهم كانوا فرحين في اعمالهم هذه . وكنا نلاحظ ان عملهم كان اكثر دقة واتقاناً من عمل الآخرين ، غير المثقفين . كانوا يطبقون في اعمالهم البسيطة ماتعلموه في المدرسة . وقد اصبح هؤلاء ، اليوم ، من اصحاب الصيدليات الكبيرة المعروفة ، يبنون مستقبلهم بأيديهم ، مذللين الصعاب ، وهم ينظرون الى الحياة نظرة الهازىء بمصاعبها ، ويجمعون الثروات » .

ليست هذه بالقصة الوحيدة ، في نوعها . فهناك حوادث عديدة شبيهة بها ، تثبت ان السعادة ، لا تشع انوارها ، إلا من خلال نفوس امثال هؤلاء العصاميين ، الذين لا يجبنون عن البدء في اعمالهم ، ببساطة وقناعة .

فاحترام العمل ، والجرأة على البدء ، في الحياة ، ببساطة ، دون ان نتجنب الاعمال الصغيرة ، في مظاهرها ، عنصران اساسيان من عناصر النجاح والتوفيق . وكثيرة هي الشواهد الواقعية التي تؤيد هذه الحقيقة ، يجدها من يتمرن على ملاحظة مجتمعه ومحيطه ، ويتأمل تأملاً عمليا ، في حياة العصاميين الناجحين .

ولعله من المفيد ، في هـذا البحث المقتضب عن التوجيه ، ان اوجه نظر الشباب الى ما يأتي (١) :

لاحظ نفسك وادرس كوامنها، ولا يقدر على ذلك غيرك ، مادامت مؤسسات علم النفس لم تنشأ عندنا بعد لمساعدتك. ولعلك تجد، في مراجعة المربين المثقفين ، فوائد تجلي لك حقيقتك ، وتساعدك في درس ذاتك .

ثم حاول الاجابة على هذه الاسئلة :

(١) هل يتجلى نشاطك وإبداعك واطمئنان نفسك ، بتأثير تشجيع من حولك ، وبنسبة هذا التشجيع ؟

(٢) هل أنت من الذين يتكيفون، حسب المحيط ، بمرونتهم الذاتية؟

(٣) هل أنت ممن يتبعون نمطاً خاصاً في الحيـــاة ، تستخلصه ، من تجاريبك ، ولا ترجع عنه ، لانه يتوافق مع نفسيتك ؟

(٤) هل تجمع في نفسك كل هذه الظاهرات ؟ أو جلها ؟ ..

فاذا سيطرت عليك الحـالة الاولى ، فأنت من النوع الاصطحابي ، ويفضل ان تختار الفنون ، وما يشاكلها .

وإذا تجلت ، في نفسك ، الحالة الثانية ، فأنت من النوع اللحني ، ويفضل لك اختيار التجارة ومعاطاة الاعمال وما اليها .

وإذا كنت من النوع الثالث ، فأنت من النوع التوازني ، ويفضل لك الاعمال الجندية ، وما يماثلها .

اما إذا كنت من النوع الرابع ، فأنت مرتبك ، يجب ان تعـــدل مزاجك ، وتختار ما يتناسب مع الاقوى من هذه المظاهر .

وهناك دلائل اخرى ، تتميز بها هـــذه الانواع ، ومنها المرض :

(١) اقتبست بعض هذه الفكرات من كتاب بوردل في علم النفس الحيوي، وبتصرف .

فالاصطحابي واهم : غالبا ، في امراضه . يمرض لأقل اخفاق ، او لاقل جفاء يجده في محيطه . وهو يشفى بأقل تشجيع . ولا يؤثر فيه العلاج ، بصورة عامة ، لأن الأمر يتعلق بتوازنه النفسي الفيزيولوجي .

واللحني يتعرض لجميع الامراض ، ويشفى عادة بالمعالجات العادية .

اما التوازني فانه يحير الاطباء في معالجته .

وتظهر الحالات الثلاث فيمن تجتمع فيه كل الظاهرات .

وهـــذه خطوط كبرى ، ذكرتها ، لانارة طريقك ، علك تستطيع الافادة منها ، بصورة اجمالية . واعلم ان الحالات النفسية ، لا تكون بسيطة ، في الاحوال العادية ؛ بل تكون مركبة من نوعين ، على الغالب . فيكون الشاب اصطحابياً لحنيا ، او توازنياً اصطحابيا ، مثلا ؛ او يتغلب احدهما على الآخر . وقد تجتمع الانواع الثلاثة ، في شخص واحـــد ، ويكون عادة مشوشاً مرتبكا .

ليعن الشاب ، إذا استطاع اكتشاف هذه الظواهر العامة ، في نفسه ، مباشرة ، أو بمساعدة مربيه ورفاقه ، أو بعض الاختصاصيين ، ان يغلّب احد الانواع في نفسه ، دون أن يحاول الغاء الآخر . وليغلب الاقوى ، لأنه هو الذي يتجانس مع المزاج ، ويعتبر فطريا . وإذا تحكم احدها ، فيما لا يتفق مع مصلحته وميله ، وتجاوزت قوته ، في النفس ، حدود الطبيعة ، فليعمل على تقوية النوع الآخر ما امكن . وذلك بطريقة توجيه الارادة ، والايحـــاء ، وبمساعدة المطالعة ، وكيفية اختيار مواضيعها ... اكثر المطالعة والاستماع ، وكن حسن الاصغاء ، لينمو تذوقك لكل ما يتناسب مع النوع الذي يهمك تقويته : كالفنون ، وما يتعلق بها ، للاصطحابي ، وما يتصل بالامور العسكرية ، والتنظيم الدقيق ، للتوازني .. الخ ...

مثلا . ولا تهمل الاعتماد على اوليائك ومربيك، وعلى من ترى فيهم الخبرة، ممن مارسوا الحياة والمعرفة ، ولا سيما العصاميين الناجحين ، ممن حولك . استشر ، دائماً ، ولا تخجل ؛ ففي الاستشارة ربح لا قيد معه .

اكتفي بذلك الآن ، لأن ما يزيد يتعلق بأرباب الاختصاص، لاسيما ، وفنون التوجيه لاتزال في بدء تكونها ؛ وهي تتكامل . ويؤمل ان يساعد تكاملها على ايجاد قواعد ايسر منالا ، وأوسع امكانية ، في الانتشار، وفي التطبيق . ولعلك تجد فيما مر بعض الفائدة .

وعلى كل ، فالمهم ، هو شعورك وميلك ، وحركة نفسك المستنيرة ، بتجاريبك واختباراتك واستشاراتك ...

ليكن تأملك هذا عمليا ، أسه التفكير في الواقع ، واقعك وواقع العمل المختار ، واجتنب التأثر بالعاطفة أو الوهم ! ..

كن صبوراً هادئا ، في تأملاتك وتفكيرك ، قبل ان تتخذ قرارك النهائي ! فلا تبخل على نفسك ببذل الجهد ، وبالتأني، في تدبير امورك !.. إياك ان تكون عنيداً ، وان كنا نرحب بتمردك . فالقضية ليست قضية بسيطة ، او موقتة ؛ فهي قضية مستقبلك ، طول حياتك ! ...

انها جديرة بأن ينظر اليها من الوجهة الجدية ، برزانة ورصانة ، ولا يجوز فيها الاهمال أو الاستهتار ! .. ولا التسرع ! ...

قلت اننا نرحب بتمردك ، لأن التمرد الصادق البريء حق من حقوقك الطبيعية ، وعليه ركز كثير من الرجال العظام ، في السياسة والعلم والاختراع والاصلاح ، عظمتهم . ولا يكون التمرد بريئا ، إلا إذا انبعث عن عقيدة صادقة ، وادراك صحيح . في هذه الحالة، يكون التمرد بشير خير، إذ به يمتنع فؤادك عن قبول الفكرات السيئة . هذا ما ادعوه

التمرد الداخلي ، أية تمرد النفس ، في داخلها ، في قبول اي فكرة تلقى ، في قرارتها ، ولا تتفق مع تكونها الذاتي . فتتمرد النفس على الفكرات السيئة ، إذا كانت صالحة ، وتتمرد على الفكرات الصالحة ، إذا كانت هي سيئة ، في تكونها . وفي هـذه الحالة ، ينقلب التمرد الى عناد ، إذ يصر العنيد على الاستمرار ، على حالته ، ولو ثبت له خطأه . والعناد خطير ، دائما . وإذا كان التمرد ، لفكرة سليمة ومبدأ صحيح ، دليل الشجاعة والتوازن ؛ فالعناد ، وهو الرغبـــة في الاستمرار على الحالة التي الفتها النفس ، ولو كانت رديئة سيئة ، والوقوف عند أي قرار اتخذ ، ولو ظهر خطأه ، يعتبر جبناً وطيشا ! .. ولا راحة لعنيد ، لا سيما ، إذا كان عناده داخليا ! ..

واما التمرد على الخارج ، فهو التمرد ذاتـــه ، في مفهومه السابق ، ولكنه يتعلق بالصلات الخارجية . فيأبى الانسان الصالح ان يعاشر من خبثت طويته ؛ أو يتأثر بمن يبغي استثماره لمآربه ؛ ويأنف من الاصغاء لمن يريد ان يلقي بزور الشرور في نفسه . . الخ . . فهو حر بطبعه ، يتمتع باستقلاله الذاتي ، فلا ينسجم ، في انطلاقه واصالته ، إلا مع ما يتلاءم مع وثبات نفسه الصالحة ، محتفظا ، احتفاظ المستميت ، بوحدتها واصالتها ، في التفكير ، وفي الشعور ، وفي النزوع ! . .

قد يتخذ تمردك هذا شكل العناد ، إذا أثر عليك ، في ابائك وانفتك ، الهوى والوهم . فتمتنع ، مثلا ، عن معاشرة الناس ، لانهم ، في نظرك ، اشرار ، او تحاول الضرر ، للضرر ، في الناس ، لأن احدهم اضر بمصلحتك بوما .. الخ .. فهذا وهم خاطىء ، وهوى مضلل ! .. ولا يدل هذا العناد ، وما يماثله ، على اي اتزان او نبل . بل يدل على قصر ، في النظر ، وسخف ،

في التفكير ، فانتبه ! ..

وانني واثق ان الوالدين ، في حبهما وشفقتهما وحكمتهما ، يفسحان المجال لفلذات الكبد ، من ابنائهما الشباب ، في دراسة اوضاعهم ، بذاتهم ، واتخاذ القرار المناسب . ففي ذلك خير الوالدين ، وخير الشباب . على الشباب ان يتحمل تبعة مستقبله ! . . . وعلينا ان لا نبخل عليه بالارشاد والنصح والتدريب ! ..

من حق الوالدين ان يقاوموا عناد الشباب ، في ابنائهم ، وان يمقتوه . لكن الحنو الوالدي ، والشفقة والرحمة ، تقضي بأن يكون في صدورهم متسع للحلم على المتمرد الصادق ، في تمرده ، أو من يعتقد ذلك ، من الشباب . ليأخذوهم بالتؤدة واللين والاقناع . ولا غضاضة على والد حنون ، او والدة شفوق ، إذا رجعا الى رأي ولدهما ، كلما تبين صوابه . ففي ذلك انصاف وعدل ورحمة ، جزاؤه بر الشاب ، واحترامه ، وقلبه ، عندما يتمتع بالرجولة الصحيحة ؛ وبر الفتاة ، واحترامها ، وقلبها ، كلما شعرت ، في انوثتها الكاملة ، بنور الهداية ، ينبعث من نفسها الطليقة ، لينير قلبها ودماغها ، ويسدد خطاها .

من أولى من الآباء ، في حنوهم ، والامهات ، في شفقتهم ، بالسماح لوثبات الانطلاق ، في الشباب ؟.. نريد تلك الوثبات الحرة ، التي لايكون فيها اي اثر للفوضى ، ولا للعناد ! . . ان ترك الطبيعة حرة طليقة ، على ان تكون مستنيرة ، في الوقت ذاته ، لا يترك اي مجال للفوضى ، في العمل ، ولا للعناد ، في الخطط ! ...

الخاتمة

الحب

حقيقة الحب ـ الحب المزيف

عبقرية الجنس ـ الاخطار ـ وسائل الانقاذ

الخلاصة .

خلاصة ما تقدم

أزمة المعيشة من أزمة الحياة . وهذه تفتك بمبادىء الحضارة وتهدمها . إذا صلحت المدنية وسيلة ، تساعد الحضارة على التقدم والانطلاق ، فانها لا تصلح غرضا بذاتهـــا . واذا أصبحت المدنية غرضاً ، توارت انسانية الانسان ، واستعبدته المادة ، منتقمة لذاتها .

لاسبيل لانقاذ الحضارة الا بيقظة الشباب الواعية . واذا كانت اليقظة بلهاء ، اعادت الأمم للنوم والاستسلام . فعلى تكوّن الشباب ، وعلى يقظته ، تعلق الاسم آمالها ، وتركز نهضتها .

فلا بد ، اذن ، من محاولة ايجاد حل لمشاكل الشباب . انه امكانات يجب ان تتحقق عـلى خير الوجوه ، لتنعم الامة ، برجولة شبانها وانوثة شاباتها ، نبيلة كريمة وابية . ان مشاكل الشباب ، في نفسه ، تتخلص بتناقضاته واضطرابه وانفعاله وارتباكه . ومشاكله ، مع محيطه ، تتلخص بنزاعه للكثير من التقاليد والآراء والعقائد والأعمال ...

والمهم ، في تربيته تحقيق مبدأي التركـيز والاتزان ، بقيام كل من المربين والشباب بالواجب الطبيعي ، في تكامل تكون الرجولة في الشبان والانوثة في الشابات . والواجب الطبيعي يقضي بان يقوم بتربيـة نفسه ، بحرية وانطلاق ، مع مراعاة الفروق بين الحرية والفوضى ، والتمرد والعناد . وعليه أن يأخذ بعين الاعتبار مبدأ تبادل الثقة بينه وبين من يعني بتربيته ، وان يثق بفعل التربية ، ولا سيما الذاتية الحرة التي يتم تفاعلهـا في داخل كيانه .

تبادل الثقه ضروري في التربية وفي التوجيه . والطبيعة تقضي بأن يوجه نفسه ، وان يربيها ، بارشاد اوليائه ومساعدتهم . والتوجيه يتعلق بسلوك الشاب وثقافته ، وباعماله الاجتماعية واختيارة لمهنة يكسب بها معيشته . فيجب ان تملأ مهنته قلبه ، وان تنعم بحبه وميله ، لتغدق على حياته السعادة والحياة . فلا يجوز ان يعجل باختيارها ، كما لا يجوز أن يستبد برأيه في ذلك .

١ ــ حقيقة الحب

أيجوز لنا ان ننهي مباحث هذا الكتاب ، كتاب الشباب ، وهو منهم واليهم ، يحاول ان يعبر عن حياتهم ، وان يحل مشاكلها ، ما امكنه ذلك ، دون ان نذكر فيه كلمة الحب ولو موجزة ؟

أفلا يكون ذلك تجاهلا منا لحقيقة الحياة الانسانية ، والحب اقوى عناصرها فعلا في تكوين انسانيه الانسان ؟

أنرفع القلم عن كتاب ، في الشباب وللشباب ، ونتنامى ما لعامل الحب من أثر في تحقيق أنوثة النساء ، ورجولة الرجال ؟

لا أدري من هو الذي افسد على الحب سمو معناه ! ... ولا اعلم لم حلت على ارفع ظاهرة نفسية ، نقمة الكائن الحي ، وهو لا تتحقق انسانيته ، في اعلى مراتبها ، وفي ابهى حللها وأروع مآتيها ، الا به ، حبا صافيا خالصاً ، يرتقي بالنفوس إلى سماوات الحق والخير والجمال ؟ ....

اذكر انني كنت اسمع ، في طفولتي ، كلمة الحب ، ولكن وشوشة بين النساء ! ... ولا اذكر اني سمعتها مرة من والدي ! ولا اعتقد أن أحداً من لداتي ، او اترابي سمع اكثر مما سمعت ! ... انني لا ازال اذكر ان حب الرجل لامرأته ، كان امراً منكراً ، في ذلك الزمن ! . . . اما

حب المرأة لرجلها ، فتلك كانت الفضيحة ! ... واذا تعرضت أحـــدى السيدات المحترمات ، في حديثها ، لهذا النبوع من الحب ، – بين الرجل وامرأته ، أو بين امرأة وزوجها – ، فقدكانت تذكره بصوت منخفض ، وأمارات الدهشة والاستنكار ظاهرة على وجهها ! ! . . . . لذلك كنا نخجل ، اذا ذكرت كلمة الحب ، ولا نذكرها ! ...

والغريب أنه هكذا كانت حالة السيدات ، وهذه كانت حالنا ، نحن الاولاد ، كلما تعلق الحديث بالواقع ! ... أما الحكايات التي كانت تقص علينا من قبلهن ، والاغاني التي كن يتغنين بها ، ونتعلمها منهن ، فانهـــا كانت ملأى ، كلها ، بذكر الحب وحوادثه . كنا نسمعها نحن الصغار ، ونرددها ، بانفسنا ، وأمام الجميع ، دون ان نخجل أو أن يخجل منا احد ! ... فالحب الذي أخبرت أنني مـــا سمعته ، إلا وشوشة ، ان هو إلا الحب الواقعي ، يُذكر مع رواية الحوادث الواقعية ، وحسب ! ...

ان هذا يدلنا ، دلالة واضحة ، أن الامم ، في حالة جهلها ، وانحطاطها ، تتهرب مـن الواقع ، وتخشى مواجهـــة الحياة ؛ فتعيش بالوهم والخيال والاحلام ! ... انها تعيش في غير العالم الذي يجب ان تعيش فيه ، لتحيا .

ومرد ذلك ، في اعتقادي ، التصورات الجزئية ، وتذكراتها ، على ما سبق بيانه . فلعله حصلت ، في تلك الازمنة ، وعلى ما يتراءى لي ، بعض تعديات على العفاف ، عللت بالحب . وربما كان السبب ، ايضا ، في نسبة العلاقات الشائنة اليه ! . . . ولا نزال ، الى اليوم ، نسمع بمثل تلك التعللات والنسب ، في الحوادث المماثلة .

فاين هذا من الحب الصحيح ، وهو ، في حقيقته ، لا يؤدي الى مثل هذا النتائج الفاجعة مطلقاً ؟ . . انه سمو وتضحية ، تنطويان على الاحترام

والاخلاص . والحب ، في مفهومه السليم ، لا يُدنّس ، ولا يتدنس ! ..

أشرف أمير الشعراء ، من علياء عبقريته ، على الحياة ، ونظر اليها ببصيرة شاعرية ، فاذا هو يراها متحدة بالحب اتحاداً وثيقا ، لا انفصام له ! فعبر عن ذلك بقوله : الحياة الحب ، والحب الحياة ! ...

انها حقيقة ، اعلنتها الحياة ، عن نفسها ، منذ اتخذت صفتها الانسانية ، وقررها العلم بتحليلاته . اذ بالحب تتركز حياة الشباب ، وبه تتزن انفعالاته ، فتتحقق الأنوثة ، - بلطفها ودعتها - ، وتثبت الرجولة ، - بنشاطها وقوتها - ، في الفتيات ، وفي الشبان ! وآية ذلك ان زهرة الحب الفواحة ، لا تتفتح ، في النفوس ، إلا في أواخر دور الشباب . (اي حوالي الثامنة عشرة عند البنات ، والثانية والعشرين عند البنين) . لذلك يرى الاطباء والمربون ان لا يفكر في الزواج من هو دون هذه السن ، أي قبل ان يكتمل النمو في الشباب ، جسديا ونفسيا . واذا كان اكتمال النمو الجسماني يعلّل بتوقف اطراده ، فالنمو النفسي يعلل بتفتح زهرة الحب في النفس . قد يتقدم هذا السن ، أو قد يتأخر ، حسب البيئة ، وطرق الحياة في الاسرة .

إن هذا الحب الذي تتفتح عنه النفس ، في منتهى دور الشباب ، يثبّت الانوثة والرجولة ، على حقيقتها . انه عاطفة معقدة التركيب ، يهتز لها الانسان ، بجسمه وروحه ، شاعراً بالانجذاب نحو شخص من الجنس الآخر ، يأنس بقربه ، وتطمئن نفسه لنظراته ، فيختاره دون سواه ، لانه لا يكاد يبعد عنه ، حتى يشعر بالاحتاج اليه ! يفقد ، ببعده ، اطمئنانا تسكن اليه نفسه ، وأنسا استقر في روحه ؛ فيفكر بوسيلة تجعل الحبيب ،

دائماً ، بقربه ، لا يفارقه ابداً ، فلا يجدها إلا بعقد شركة الحياة معه ، أي بالزواج . والحب الصحيح ، يتسامى فيغار على شخص الحبيب من أي دنس ! ... وليس الزواج سوى شكل اجتماعي للحب الصحيح : الحب الذي تحفظه المهابة ، ويحيط به الاحترام ! ... فمن يحب ، حبا صادقا ، يحترم ، في حبيبته ، اخفى عاطفة من عواطفها ؛ ويحافظ ، على شرفها وسمعتها ، أكثر من حرص والديها واخوتها ! ... والمقابلة بالمثل ، من قبلها ، واقعي ملموس !

هذا الحب ، هو الذي يتصل بكل جمال ، فيعجب به ولا يشوهه ! ... ثم يسمو حتى يتصل بالجمال الاسمى ، وهو الله ! ...

٢ ـ الحب المزيف

قد يعتقد البعض ان كل انجذاب ، بين الرجل والمرأة ، أو بين الانسان ومظاهر الجمال ، في الكائنات ، هو حب صادق ! والحقيقة خلاف ذلك ! ... فالصلات التي قد تربط بين الشباب ، من الجنسين ، قبل سن تفتح زهرة الحب ، إن هي ، في الحقيقة ، الا صداقات ! ... وقد تكون للتلهي والمغازلات واللعب ! ... وقد تصبح مشبوهة خطرة ! ... وهي ليست ، في ذلك ، كله ، من الحب على شيء ! ... ومن يتوهم انه الحب ، يُخدع ببعض مظاهره ، وكثيراً ما يدخل فيها التصنع والنفاق ! ... انه الحب المزيف ، الذي تتألم الانسانية من اخطاره ، وفواجعه ! ... وبندر أن يعقد زواج ، تحت تأثير هذا الحب المزيف ، ويكون زواجا موفقا ! ...

ان الحب المزيف خطر ، يجب الانتباه لما قد ينتج عنه من اضرار ،

للشابة وللشاب ! ... انه هوس ، وليس بحب ، في الحقيقة ! ... قد تتهوس الفتاة بشاب ، وقد يتهوس الشاب بفتاة ، ثم قد يجد ، بعد مدة ، نفسه مخدوعا ، أو قد تجد نفسها مخدوعة ، بعد تضحيات ، قد تؤلم ، وتورث المصائب ، كل الحياة ! ... على ما سيذكر في بحث اخطار الحب .

من القواعد المقررة ، والتي أود أن أوجه اليها نظر الشابات والشبان ، هو ان زهرة الحب لاتتفتح في كل النفوس ! ... فقد يتجاوز الشاب ، أو الشابة ، دور الشباب ، ولا تتفتح الزهرة ! ... وقد لا تتفتح ابداً ! ...

ان لسوء سلوك الشاب ، أو الشابة ، وللهوس الذي يفتك بقلب كل منهما ، تأثيره الكبير في إخماد شعلة الشباب ، فلا تتفتح زهرة الحب المنقذة من اخطار الهوس ! ... ان الانجذاب الجنسي ، للّذة ، ويخطىء من يسميه حبا ، ان هو الا من النوع المزيف المغشوش ! ...

من يفسد في دور شبابه ، تجذبه طفولته ، فينتقل من دور الشباب الى دور الرجولة ، ولكنه يظل رجلا طفلا كل حياته ! ... ومن يعجز ، في شبابه ، أن يكافح ميوله الدنيئة ، ويخضع لشهواته الجسدية ، وشرهه ، لن ينعم بتفتح زهرة الحب ! ... ومن هؤلاء تنشأ الفواجع السلوكية ، والامراض النفسية ! وبهم تنتشر الاوبئة الاجتماعية الفتاكة ! ... فليدرك ذلك الشباب ، لا سيما الشباب المثقف ، من الجنسين ! وليتحسن قداسة الحب ، وهو حقا حياة الانسان ! ...

فالحب الحقيقي لا يكون إلا حبا شريفاً ! فمن لم ينتبه لذلك ، في شبابه ، ويندفع مع تهوسه وشهواته ونهمه ، يتجه اتجاهاً فاسدا ، فيرديه ، اذا لم يتدارك أمر نفسه قبل فوات الاوان ! ... لا تتهموا الحب ، فالحب

فوق الشبهات ! ... وإن اتهمتم ، فاتهموا أنفسكم ، وهوسكم ، قبل اي شيء ! كل انسان أدرى بما في نفسه ، وبما انطوت عليه من نيات ومقاصد! فليردع نفسه ، وإلا انتقمت الحياة منه ، ومن ابنائه ! ... ومن امته!! ...

ليحفظ الشباب نفسه وأمته ، وليجعل شعاره هذه الحكمة : اعرف نفسك ، وكن منصفا ! ....

٣ ـ عبقرية الجنس

اعرف نفسك !!... هذه هي الحكمة التي دفعتني لتقديم هذه المحاولة، في بيان حقيقة الشباب ، على قدر ما استطيع ؛ وفي حل مشاكله ، على قدر ما تسمح به الاوضاع والظروف ؛ لا ساعده ، بما يمكن ، على ان يدرك ذاته بذاته ، وعلى ان يعمل على حل مشاكله بنفسه ، ليثبت بذلك وعيه لحقيقته ، ولوضعه في المجتمع ، سواء أكان هذا الشباب ، المتناقض، في مظاهره ، والمعقد ، في مشاكله ، والمضطرب ، في نزاعه وكفاحه ، متحققا في الفتى الشاب ، ام في الفتاة الشابة . فالشباب يشمل الجنسين معاً ، كما يشملها مفهوم كلمة الانسان ، دون احتياج لهاء التأنيث ، في التفريق !!.... وانما اردت ، بهذه المحاولة ان ينتبه الشباب ، وان يستيقظ ، ليقدر تبعاته ، فينصف نفسه ، وينصف مجتمعه . لذلك لم اكتف بالحكمة المأثورة « اعرف نفسك !.. » بل ضممت اليها فكرة ثانية، فقلت :

« وكن منصفا ! ..... » ولعل هذه هي بيت القصيد من كل ما ذكرته للشباب ، ومن كل ما سأذكره في هذا البحث .

ليست القضية في ان يدرك الشباب ، في تنبهه ووعيه ويقظته ونهضته،

ما له من حقوق ! .... وانما القضية ، كل القضية ، ان يدرك ما عليه من واجبات وتبعات ! ...

وليست المشكلة في محاولته الوصول الى حقوقه ! ..... وانما المشكلة كل المشكلة، هي في تمكّنه من التمرس بتبعاته، ومن القيام بما يجب عليه !... اذ بهذا ، وبهذا ، وحسب ، تتجلى قوة الانسان ! ... وبالقوة يُمتلك الحق، وبها يستعاد ! ...

لا يكون الانسان جديراً بحقوقه الانسانية ، الا بقدر ما يتمرس بتبعاته ، وبقدر ما يقوم بواجباته ، عن ادراك وتفهم وقناعة ، بعزم واقدام وتضحية ! .. عندئذ يتحلى بصفة الانصاف ، فلا يلقي تبعة اخفاقه على الآخرين ، تبريراً لتقصيره او جهله او عجزه ! ... ولا يتواري وراء الظروف والحوادث ، او الدهر ، ستراً لاستهتاره او جبنه اوتقاعسه ! . لا تتكامل انسانية الانسان ، ولا تتحقق سعادته ، الا بتقديره لتبعاته ، وبسعيه المتواصل لتحقيق ما يجب عليه ! ..

قد حاولنا في المباحث السابقة ان نبين للشباب درجة تبعتهم في تربيتهم لانفسهم ، تربية ذاتية ، مؤكدين لهم بان تبعة مستقبلهم تقع عليهم ، قبل اي كائن آخر ، وفي الدرجة الاولى ، لانهم في دور وعي الحياة ، في كيانهم ، ويقظة الذات ، في حقيقتهم ، وفي دور وثبة النهضة ، في نفوسهم، وثورة التقدم ، في وجودهم ! ... فمهما حاولنا في اشراك غيرهم ، من اولياء ورفقاء ومربين — من عائلة ومدرسة ومجتمع ، في هذه التبعة ، فالقسط الاوفر ، منها ، يظل على عواتقهم، لا تُبرّر التقصير فيه غفلة ، ولا يُقبل الاعتذار بالغيبة !... هذا هو واقع الحياة !وهي تنتقم، من شباب يتوانى، في مستقبل لا يزالون يرنون اليه ، بالاماني والاحلام ! ... والحياة ، في

انتقامها ، قاسية ، وضرباتها موجعة ، لانها لا ترحم الغافلين ، ولا تشفق على من يكونون لغيبوبتهم مستسلمين ! ... ولا تحنو على ضعيف كان بامكانه ان يكون بين الاقوياء ، فتقاعس واتكل ؛ او اكتفى بمحاولة اقتناص ملذات الجسد ، او باستجابة بواعث الاسترخاء في الترف ، او باشباع الشهوات الدنيئة والميول الفاسدة ! ..

انها الحياة ! ... وهي ، في جبروتها ، تأبى على الاحياء ان يستهتروا بما اودعتهم من قوى ، او ان يهملوا ما في فطرهم من قابليات واستعدادات ! .. وانها ، في عدلها ، لا تساوى - في طمأنينة الروح وسعادتها ، وفي هناء النفس ونعيمها ، وفي عزة الذات ومجدها - بين الواعي المجد المكافح ، وبين الغافل الكسل المستسلم ! ... وكيف نريد منها ان تساوي بين من يعي لحقيقته في مجتمعه ، وبين من يغفل عن ذاته ، وهي لم تفرق بينهما فيما منحت كلا منهما ، من مواهب وقوى وامكانات ؟ ! ... عدلت في العطاء فعلى كل ان ينصف في الانتاج ! ... انهـــا لا تكلف اى كائن ، يخضع لنواميسها ، باي انتاج لم تمنحه وسائل تحقيقه . ولعل عبقرية الجنس ، في الفتيات ، والشهامة ، في الفتيان ، تصلحان شاهدي عدل على ما اقول :

تكلمنا ، فيما سبق عن الحب الحقيقي ، وعن الحب المزيف ، وجعلنا الحب الاول ، وحده ، جديراً بانسانية الانسان ، لانه حب شريف ، يسمو بالروح ، ويدفع الذات الانسانية للتقدم والتكامل ! ... اما الثاني فقلنا انه ليس من الحب الصحيح على شيء ، ولا يكون عنه الا الفساد والافساد ، لانه هوس ، يستجيب لبواعث الطيش ، ويورث الشقاء والندم ، ويؤدي الى التأخر والانحطاط ... فهل اودعت الحياة في نفوس الشباب مـــا ينقذهم من اخطار الحب المزيف ، ويجذبهم الى الحب الحقيقي الشريف ؟ ..

حتى اذا انحرف احدهم ، او بعضهم ، عن الطريق السوي ، يصبح المسئول الاول عن مغبة اعماله ، وليس له ان يلقي التبعة كلها على الآخرين ؟ ...

لنتأمل ، معا ، في مظاهر الحياة في الشباب ، وفيما اودعته في الفتيات وفي الفتيان ، من قوى للمقاومة ، في كل من الجنسين ، ومن استعداد للتعاون ، على التكامل الانساني ، لنتحقق كيف يكمّل كل منهما الآخر ، في ارتقاء سلم الوجود ، وفي تحقيق التقدم البشري ، واستمرار الحياة الاجتماعية ، متسامية ، في مثلها العليا ، وفي تثبيت القيم :

من الامور المسلم بها ان البنت تدرك قبل الصبي . هذا ما يلاحظه جميع الناس ، وكثيراً ما يتساءلون ، باستغراب ، عن هذه الظاهرة ، ولا سيما عندما يرون أختاً تحنو على اخ ، يكبرها سنا ، حنو الام على ولدها . انها كثيراً ما تكون مرشدة له ، تسدد خطاه ! واكثر ما تبرز هذه الظاهرة ، في سن البلوغ ، وفي دور الشباب . وتتحقق انوثة الفتاة ، قبل تحقق رجولة الشاب بسنوات . فبينما يقدّر تحقق الانوثة ، بين الثامنة عشرة والعشرين (١٨ - ٢٠) ، فلا يقدّر تحقق الرجولة ، في الشاب ، الا بين الثانية والعشرين والرابعة والعشرين (٢٢ - ٢٤) . وهذا تقدير ، قد يزيد وينقص ، حسب البيئة ، والعرق ، ونوع الحياة ، والثقافة ، والمهنة ، وغيرها من الاسباب (١) .

ان من يلاحظ نمو الحياة ، في البنات وفي البنين ، يلاحظ انه ينذر

---

(١) من المؤسف انه ليس لدينا دراسات علمية صحيحة ، تساعدنا على تقدير هذه السن ، علمياً ، في البلدان العربية ، لعدم وجود مراكز للدراسات النفسية والتربوية . وقد سبق وذكرتها في ص ١٧٤ من هذا الكتاب ، مكرراً الدعوة لانشاء هذه المراكز ، تثبتاً لدعائم النهضة على اسس علمية صحيحة .

ان تتأخر البنت ، في نموها الذهني والخلقي ، عن سنها ، بالنسبة لما نشاهد من هذا النوع من التأخر في البنين . فكأننا بالبنت تسرع في نموهـا السوي ، لان الطبيعة تقضي بان تسرع في بلوغ نهايته ، لتحمي الشبان من اخطار الرعونة والطيش والجنون ، جنون الشباب . وهي حـالات يقتضيها ما تستلزمه رجولتهم ، المستقبلة ، من تجارب وخبرات ذات صلة وثيقة بما يهيأون له من جهود واعمال ، ومن تبصّـر وحسن تصرف . وارى ، في هذه الحالة ، سبباً نفسياً جوهريا ، عـدا الاسباب الصحية والفيزيوجية ، في تأكيد ضرورة تأخـير الزواج الى الثامنة عشر ، عند البنات ، والثانية والعشرين ، عند البنين ، مبدئياً ، وعلى الاقل (١) ، اذا لم تثبت الدراسات العلمية ، في مراكز الدراسات النفسية في بلادنا – وهي التي لا افتأ ادعو لاحداثها باسرع ما يمكن – غير ذلك . كما انني اراها من الاسباب الجوهرية بضرورة زيادة عمر الرجـل عن عمر المرأة ٤ – ٥ سنوات ، ما داما دون الثلاثين . ولاارى ان يبلغ الفرق ،بينهما، ضعفي هـذا العدد من السنين ، لا سيما فيمن هم فوق الثلاثين ، في زواج صحيح ؛ والا فالزواج صوري ، او شكلي ، في الحقيقة .

في هذا الدور ، دور تحقق الانوثة ، تخرج الفتاة من قلقها واضطرابها وتناقضها ، فتهدأ وتتزن ، ويتحقق في سلوكها شرطان اساسيان في تكون السجايا ، وهما : الوحدة والاستقرار . وهي في تخلصها من حيرة الاوضاع في الولودة ، ومن اضطرابات التناقض المثير ، والتنازع المشوّش ، تميزها سجايا خاصة ، تتجلى بالحشمة والخفر ، وبالترفع والاباء . فيعبر جسدها عن ذلك التطور النفسي ، بتطور آخر ، يرتسم على محياها بنضارة جذابة ،هي

١ – راجع بحث « حقيقة الحب » وهو البحث الاول في هذه الخاتمة

غير حلاوة الطفولة التي نتحبب اليها. وفي جاذبية هذه النضارة معنى ، ليس في جاذبية الاطفال ، والاولاد . والجمال ، بمفهومه الخاص المعروف ، يفتقر لهذه النضارة ، في اكتمال جاذبيته ، لانها ليست وقفا عليه . انها تشع على جميع وجوه الصبايا ، في هذا الدور ، ولو كانت قبيحة ، في مظهرها . لذلك قيل : لكل بنت حسنها ! ... ولكل امرأة جمالها ! ...

هي الطبيعة تستجيب لرغبة الحياة في الخلود ، فتجد ، في نضارة الشباب ، في الفتيات ، وفي ذكائهن واتزانهن ، وسائل ، تساعدها ، مساعدة قوية ، على تفتيح زهرات الحب ، في تلك النفوس الناشئة ، ليتجاذب الجنسين ، تجاذبا ، ينتهي بالزواج . وقد سبق وقلنا : انه الشكل الاجتماعي للحب الصحيح .

ان من يتأمل في نفسية الشبان ، يجد انهم قليلا ما يفكرون بالزواج ، بصورة تلقائية . انهم ، كما سبق وقلت ، مشغولون بتجاربهم للحياة ، لانهم يحلمون بغير ما تحلم به الفتاة . انها تحلم بالامومة ، وبالبيت الذي ستنشر فيه الغبطة والطمأنينة والسعادة ؛ فتشع فيه نوراً ، يستضيء به رجلها في مهامه الحياة ، فلا يضل سبيله ! ... وتستنير به في مساعدة فلذات كبدها ، وموضوع احلامها ، على النمو ، والتفتح ، والانطلاق ، مع الحياة ، فتأنس بهم ، وبها يأنسون ! .... اما الشاب ، فما يشغله يتلخص بامور وسائل كسب المعيشة ، واقتناص الامجاد ، ومغامرات الحياة . انه يفكر فيما هو خارج البيت ، بينما تحصر الفتاة تفكيرها في بيتها الذي تنتظر الخروج اليه . انها ام ، بفطرتها ! ...

يصبح الشاب ، في ازمة البلوغ ، وفي تركيز امكانات الشباب ، وفق التدرج في تحقيق اتزانها ، في اوائل سن الرشد ، جديراً بالحب . ولكن

الحب الصحيح السامي لا يتحقق، في نفسه، الا بالمرأة ! وبالشقاء شاب، لم تهتد اليه فتاة، تساعده عـــلى تفتح زهرة الحب الصحيح في نفسه ! ! ... لذلك كانت مهمتها ، الطبيعية ، في الحياة ، مهمة دقيقة تحتاج لذكاء ومرونة؛ فلم تبخل عليها الحياة ، بل وهبتها مرونة في استعداداتها ، مع تنوع خاص فيها ، امتازت به عن الرجل .

انهـا ، في اختيارها لشريك الحياة ، موضوع حبهـا الصحيح ، وفي اساليب اقتناصه ، تبرهن عن مهارة رائعة ، تدهش من يراقبها من العلماء: انها تقوم بمناورات بارعة ، تجمع فيها اللباقة مع السذاجـة ؛ وقد احتار احدهم ، في تفسير هذه البراعة ، فقال ما معناه : لا ندري انعجب بقوة الغريزة ، ام بالتوافق المنسجم بين العواطف ، وبـــين الميول الغريزية والوجدانيات ؟ وهي تتفق ، في اغمض حالاتها ، مع ما عبر عنه شوبنهور بعبقرية الجنس ! ...

ان عبقرية الجنس ، هذه ، تتجلى ، في الفتاة ، بالنضج الذكي ، والحفر والحشمة ، وبتركيز رغباتها وميولهـا في هدف واضح معين ، هو البيت والولد ! ... ان ليقظة عاطفة الحب الصحيح ، في حماية هـــذه العبقرية الجنسية ، تأثيراً عظيما في انبثاق انبل السجايا، في نفسهـا ؛ وابرزها فضيلة العفة ، ويدل عليها خفرها وحشمتها ، وفضيلة الغيرية ، وامارتها حنوها على الاغيار ! ... انها غيرية ، تعطف وتشفق وتحنو ، ... وتحب ! ... وحبها، هو ذلك الحب الخالص الصافي؛ وهو ، في طبيعته الصادقة ، يسبق الميول الجنسية ، ويتطور في النفس متدرجا : يبدأ شعوراً بالحاجـة الى الحب ، حباً مطلقاً، تستقى النفس من معينه الصافي، فترتوى ، لتنبت فيها ازاهر الفضيلة ، التي بها تتحقق انوثتها، وتتجلى عبقريتهـــا، في اجتذاب

الجنس الآخر ! وهو لا ينتبه لذلك المعين ، الا بفضل فتاته ، اذا سعد بفتاه ترويه من معين حبها ، لتتفتح في نفسه ازاهر الحب الصحيح ، الصادق الابي . والحب ، في دوره الثاني ، ينتقل من دور الشعور بالحاجة اليه ، الى دور التحقق ، في النفس ، فيكون عاطفة مطلقة في نفس المحب ! وفي ذاتيته ! ...

في تطور هذه الحالة ، في دور التحقق ، ينتقل الحب من الاطلاق الى التقيد ، نوعا ، في دوره الثالث . فيبرز في النفس ميل للجنس الآخر ، يعبر عن هذا الحب ، ولكنه يظل في نفس المحب ، عاطفةً عامةً شاملة ! ... وآياته ، ابداً ، عطف واشفاق وحنو ، تعبر ، جميعها ، عن غيرية أصيلة في في جنس المرأة ! ... ونعومة وحشمة وخفر ، تتركز عليها عناصر الانوثة في الجنس ! ... وذكاء واباء وحذر ، توحي بها تلك العبقرية الخالدة ، في جنس ، تدور حوله ، في المجتمع ، الحياة ! ... وبتحقق فضائله ، فضائل الانوثة والعبقرية والجنس ، تتحقق النهضات في الامم ! ...

فاذا فسد الحب ، في دوره الرابع ، وهو دور الميل لشخص معين ، من الجنس الآخر - وفي هذا الدور تنشأ الاخطار التي سنتكلم عنها في الآتي - فسدت في المجتمع الحياة ! .. فتضطرب النفوس ، وتنهار عناصر النهضة ، في الامة ، عنصراً عنصراً ، وتستقر فيها عوامل الانحطاط . في هذا الدور يظهر اثر الثقافة الصحيحة ، وفعل التربية الصالحة . فالتربية الصالحة ، في اعتمادها على الثقافة الصحيحة ، لا تلاشى المشاكل ، فالحياة الانسانية واقع ، تميزه مشاكله ! ... غير ان هذه التربية ، في مفهومها الصحيح ، تساعد الانسان الحي على تفهم تلك المشاكل ، وتعوده حسن حلها ، فلا يخشى مواجهة الحياة ! ... ولا يهاب مشاكلها ! ...

عاطفة الحب الصحيح ، اذا تفتحت زهرته ، في حينها ، تتركز في نفس المحب ، على ما سبق بيانه . فاذا تركزت تلك العاطفة في ذات المحبوب ، بدأ الاضطراب ، واصبحت الاخطار ، بفواجعها ، محتملة الوقوع .

ولعلك ترى في هذه الظاهرة أنانية ! ... نعم ، انها انانية ، وكثيراً ما شكاها العشاق الغافلون ! ... وكثيراً ما ظُلمت المرأة ، بسببهـــا ، فكانت موضع ارتياب ، في اخلاصها ، عند من غيبته اهواؤه عن واقع الحياة ! ... انها جعلت من المرأة لغزا ، لا يحل ولا يمكن ادراك كنهه ، لانهم لم يستطيعوا ان يتفهموا عبقرية الحياة ، في هذا الجنس الناعم اللطيف !..

قلت : انها انانية ! .. ولكنها ليست الانانية الفردية التي تؤدي الى البغي والظلم والعدوان ، او إلى الفوضى او الطغيان ! ... انهـــا انانية عبقرية الجنس ، او انانية عبقرية الحياة ، في الجنس ، تكافح البغي والظلم والاعتداء ، وتحـاول تنظيم العلاقات الجنسية تنظيما طبيعياً صحيحا ، لا تنقلب فيه الاوضاع فوضى ، ولا طغيانا ! ... انها انانية غيرية اجتماعية ، همها ان يسود المجتمع فضائل النهضة ، وسجايا التقدم ؛ وان تسود العلاقات ، بين الجنسين ، ما تقتضيه طبيعة الحياة ، في تقدمها ، وفي تساميها ، من فضائل النهضة ، وكمالاتها ، لا عيوب الانحطاط ، ونقائصه ! ... انهـا انانية ثورة التحرر ، تكافح استكانة الاستعباد ! ... انها ظاهرة من ظاهرات عبقرية الجنس في النساء ! ... فلنحن الرؤوس امامها ، متيقنين اننا ، بهذه الانانية ، انانية عبقرية المرأة ، نستطيع ان نحقق مـــا نهفو اليه من حضارة وعزة ومجاد ! .. انها فرار الذات ، من الذات ، الى الذات ! وقد عبر عنها بعض العلماء بقولهم : « انها فرار الى الامام » ! ... وياويل من يكون فرارها ، في حبها ، فراراً الى الوراء ! ...

تخرج الفتاة ، في فرارها هذا ، من ذاتها ، لتجد من تتمثل فيه رغباتها وميولها ، ومن تستطيع الاتحاد به ، في تحقيق آمالها واحلامها ، وذاك هو فتى الاحلام!... فان وجدته ، عادت لذاتها ، مطمئنة مستقرة مرحة ! والا ، فهي تعود لذاتها ، ايضاً ، ولكن لتعيد البحث والتفتيش ، فان عثرت على ضالتها المنشودة ، في الشوط الاخير ، استقرت وانصرفت لأموربيتها!.. والا فانها اما ان تنكمش على ذاتها ، او تستهتر بالمثل والقيم ، اوتنصرف للاعمال العامة والعطف على الآخرين ، من اقارب واباعد ! ...

هذه لمحة موجزة في عبقرية الجنس ، في المرأة . وما افردنا لها هـذا البحث الخاص ، عـلى اقتضابه ، الا لما نعتقده في اهمية هـذه العبقرية في تركيز عاطفة الحب في حياة المجتمع. وهي عاطفة ، عليها مدار النجاح ، في الرقي والتقدم ، وفي النهضة وتحقيق الامجاد ! ...

ان هذه اللمحة ترينا بعض تطورات أوضاع الحب ، في الشباب ، بصورة عامة ، وفي الفتيات ، بصورة خاصة ، في شكلها الطبيعي السوي ، إجمالاً. وأنى للمجتمع ان يترك الامور تسير ، وفق نواميسها الطبيعية ، وهو لا يزال يخضع لكثير من التصنع والافتعال ؛ وفيه كثير من التناقض ، والغرور والادعاء ؟! ... انه لا يزال للانانية الفردية فيه اثرها ، ولايزال للطمع والجشع والبغي ، ولا مثالها من النقائص ، فعلها !! .. فلا يعقل ان لا تتأثر عبقرية الجنس بذلك كله ، وان لايكون لتأثرها تفاعل يعرّض الشباب ، في الفتيات وفي الفتيان ، لكثير من الاخطار . وهي ما يعمل العلم على التخفيف من ارزائها وويلاتها ! فما هي هذه الاخطار - ؟ .... وما هي وسائل الانقاذ ؟ ..

٤ ـ الاخطار

من يتأمل فيما ذكرناه في البحث السابق ، « عبقرية الجنس » ، يلاحظ ، بسهولة ، اننا نعلق ، على هذه العبقرية ، اهمية خاصة ؛ في تنظيم تطورات الحب ، في الصلات ، بين الفتيات والفتيان ، وفي السمو بمعانيه ، ليكون الوسيلة الفعالة في تكوين العائلة تكوينا صالحا ، وفي تنظيم البيت تنظيما سويا ، له اثره الكبير ، في تحقيق وحدة الامة ، في المجتمع ، على اختلاف مظاهره ، وتعدد صلاته ، في الداخل وفي الخارج ؛ وفي تحقيق حرية الافراد ، جميعاً ، في شخصيتهم الاجتماعية ، وفي تصرفاتهم واعمالهم ، فتشع طمأنينة السعادة ، في نفوس الافراد وفي ضمير المجتمع !

ان التفكير في فاعلية هذه العبقرية يجعلنا ندرك ، ادراكا عميقا ، اهمية المرأة في المجتمع ! ... واهميتها تتصل اتصالا وثيقاً بغريزة الامومة التي تنبثق عنها تلك العبقرية ! ... اقول الامومة ، ولا اقصد معناها الضيق ، المحصور بين جدران البيت ، وحسب . بل اريد تلك العاطفة الشاملة ، عاطفة امومة المجتمع ! ... بعبقرية تلك الامومة الشاملة ، تستطيع المرأة ان تصلح ما في العواطف الكاذبة من فساد ، وان تعدل ما في الانفعال الاهوج من جموح ، وان تقضي على ما في الحب المزيف من شرور ! ... ولكن هذه العبقرية ، عبقرية الجنس والامومة ، تتعرض لاخطار ، تنقلب معها الحقائق ، وتتبدل الاوضاع ، وتنعكس النتائج ، اذا لم تتدارك التربية الصحيحة شرورها ، بتوجيه حكيم مستنير ! ... وهل يكون توجيه التربية حكيما ، مستنيراً ، اذا لم تُثر ، في نفس الفتاة ، يقظة ، تنتبه بها لعبقريتها . وتعي ، معها ، لذاتها ، ولحقيقتها ؟ ! ... وهل يكون هذا

التوجيه ، الحكيم المستنير ، ذا فاعليـــة مثمرة ، اذا لم يُثر في نفوس الفتيان ،انفسهم ، غرائز الشهامة والمروءة والنجدة ، بادراكهم لشخصيتهم الاجتماعية ، وبوعيهم لمقومـات المجتمع ، وهم منه والبه ؟ ، .. به تتحقق آمالهم ، وحياتهم ، وامجادهم ، في مستقبل ، اليه يرنون ! ...

لا بد من اثارة النفوس ، في كل تربية فاعلة ذاتية ! ... فهل من إثارة انجع اثراً ، في اذكاء شعلة الشباب ، في الفتيات وفي الفتيان ، مـن بيان الاخطار التي يُحتمل تعرّضهم لها ، اذا لم يتلقحوا بالفكرات القادرة على تعزيز مراكز المقاومة في نفوسهم الناشئة ؟ ... نعم ، يجب ان يدركوا الاخطار المحدقة بهم ، ليتفهموا ، بعد ذلك ، اهمية المناعـــة في وسائل الانقاذ ! ...

اول ما يتجلى الخطر ، فاننا نراه في تلك العبقرية ، عبقرية الجنس !.. وقد اوضحنا اهميتها في البحث السابق . ومن غرائب الحياة انهـا تدخل السم في الدسم ! ... فالخير المطلق ، لا وجود له في هذا العالم !!.. ولعلها انما تريد بذلك ان يتحرر الانسان ، بذاته ، وبفضل تفاعل الخير والشر ، في نفسه ! .. إذ بذلك تتحقق ارادته ، وبذلك يعي لحقيقه !

عبقرية الجنس ، هي التي علقنا عليها الآمـال ، في اصلاح الاخلاق ، في المجتمع ! ... وهي ، هي ، ما نخشاه ، اذا ما انقلبت غروراً وادعاء وعناداً ! شأنها في كل عبقري ، تتصل به شياطين عبقر ! عندئـــذ يصبح للعجب فعله ، وللصلف اثره ، وللاستبداد ، بالرأي ، فواجعه ومآسيه !... لان الغرور يعمي البصائر ، والبصر ! ...

تبدأ الفتاة بمناوراتها ، وفي نضارتها وجاذبيتها ما يكفي لارتماء الشبان امامها ! ... فيغرها الثناء ، « والعذارى يغرهن الثناء » ! فتوتاح لعبارات

الاعجاب ، ولتملق الفتيان ، فتصبح ، وتكاد تظن انها تلعب بهم ، كما تلعب بالكرات ! ... فاذا هي ، وفي اوج وهمها ، بقوتها ومناعتها ، تصبح كرة ، تتقاذفها الايدي والارجل ، ثم يتركها اللاعبون المتلاهون ويعرضون عنها ، هازئين ، ساخرين ! .. عند التعب ! .. او الملل ! ...

وما تتعرض له الفتاة ، يتعرض له الفتى ، عندما يشتد غروره ، وعندما يشتط به سلوكه ، فيستهتر بعواطف الفتيات ! ... فاذا هو ، يوماً ، اسير فتاة ، تحسن ممارسة اللعب بالعواطف ، وتثور في نفسها عاطفة نقمة على الرجال ، بعد ان قاست ، من امثاله ، ما قاست ! ... فتنتقم لنفسها ، منه ، ومن غيره ، ما امكنها ذلك ! وهي انما تحاول الانتقام ، من جنس الرجال ، لانحراف عبقرية الجنس فيها !! ... غرّر بها فتى فاسد طالح ، من جنس الرجال ! فهي تنقم على الجنس كله ! وتستخدم عبقريتها الجنسية ، لشفاء غيظها ! ... قد يكون فريستها من الفتيان الصالحين ، ولكنه ، لجهله وسذاجته ، او لغروره ، يقع في الشرك ، فتورديه صريعاً ! ... وقد يكون سلاحها ، في هذه المعركة ، ما في نفسه من شهامة ومروءة ، فتفسد عليه خلقه ، اذ ينحرف ، في مروءته وشهامته ، كما انحرفت ، في عبقريتها ! ..

هكذا تتفاعل الشرور ، في المجتمع ، لانحراف اشرف ما في الشباب من صفات ، العبقرية الجنسية ، في الفتاة ، والمروءة والشهامة ، في الفتى ، ضحية لمناورات الطالحات ، والطالحين ! ... والغرور هو مصدر كل هذه الشرور ! وكثيراً ما يقترن الغرور بالسذاجة ، وما اشد فتك آفة الشر ، في تلك الحالة الخطرة ! ... فيدوي صوت الالم ، في نفوس الشباب ، فيصرخ الشاب ، معولا : يا لفظاعة خيانة المرأة !! ... ؟ ... وتصيح الفتاة ، مولولة : يا لقساوة خيانة الرجل !! ...؟... وهكذا يُنسب ،

ظلماً ، الى الجنس ، ما اقترفه الافراد الفاسدون، من آثام ؛ وما سببوه من آلام ! ... والجريمة ، كلها ، في طيش الغرور ، وفي جهل السذاجة ، لعدم ارتكاز التربية على معرفة الحياة ، معرفة سليمة ، بعـــدم الاطلاع ، اطلاعاً صحيحاً ، عـــلى نواميسها ! ! ... انها المناهج المنحرفة ، تصرف الشباب ، في تعلّمه ، عن ذات نفسه ، وتبعده ، عن حقيقته ! ... فياويل الانسان ! ... من الانسان ! ...

تصور حالة فتاة ، فـد انحرفت بعبقريتها ، فاصبحت غروراً وعجباً وصلفاً ! ... الا تخشى عليهـا ، وهي لا تزال ، في مقتبل الحياة ، تتفتح براعم نفسها عن زهرات الحب ، ان تتعلق بنضارة وجهها ، ورشاقة قدها ، واناقة مظاهرها ، فلا تعود تفكر الا بما تظن انه يحفظ تلك النضارة ، او يزيد في الرشاقة ، والاناقة ، فتغيب عن ذاتها ، وتغفل عن تكوّن الحب الصحيح ، في نفسها ؟ ! - تصبح ، عندئذ ، كائنا ، لا هم له الا إثارة اعجاب الآخرين ، ولا سيما الشبان ، بفتنته ؟ ! ... يستولى على الفتاة ، في هـذه الحالة ، خوف ، تكاد تفقد ، معه ، الرصانة والاتزان : هو خوفها من ان لا تبدو فاتنة اكثر من غيرها ! ... او كغيرها ... على الاقل ! ... تؤخذ ، وهي لا تزال في خطواتهـا الاولى ، في طريق تفتح الحب ، في ذاتها ، بخيالات حبيبة ، غريبة عنها ، لانها تنبثق مما هو خارج عن كيانها. فتتعلق بالظواهر ، وتخدع بمـا تسمع ، من كلمات الاطراء ، ممن يتلهى بمداعبة الفتيات . ومن عبارات الاعجاب ، ممن لا يبخل بها ، في مغازلة الاوانس ! ...؟...

تتعلق بالظواهر ، فيما يحيطها ، فتراها تؤخذ بمظاهر الحياة الخارجية ! .. فيشغلها جمال الشاب ، ورشاقته ، او حديثه واوضاعه ، عن حقيقة ذاته ! ..

وقد يشغلها ، عن تلك الحقيقة ، هندامه وثراؤه ، او مظاهر الثروة ، في داره ، وفي مظاهر حياته ! ... وقد يبلغ بها سخف الغرور حدا ، يصرفها عن حقيقة ذاتها ! ... وقد يشغلها عن التفكير بجوهر ما يحيطها ، فتتعلق بظواهر الثروة ، لا لأنها تدل على الغنى والثراء ، بل لانها تصلح وسائل للعبث والزهو والظهور ! فتراها تتخيل الارتياح ، والغبطة ، في اثاث الدار ، وتحفها . وفي الحديقة ، وازهارها ! ... وقد تتوهم السعادة في السيارة !!! ... فيشغلها من يقتنيها ، لا لذاته ، بل لسيارته !.!. وكم جمحت هذه السيارة ، في عصرنا الحاضر ، بفتيات ... وفتيات !! ...

ان آنستنا ، تشغل ، في هذه الحالات ، بزهو مظاهر المدنية ، عن روعة جمال الحضارة فيها ، وبظواهر المعيشة وملذاتها الخادعة ، عن حقيقة مسرات الحياة !! ... وما عساي اقول في الملاهي والسينما ، وفي غيرهما من مظاهر المدنية ، عندما تخرج ، بالفتاة ، تخيلات غرورها ، عن الاستمتاع بها استمتاعاً نزيهاً ، تستجم به قلبها بشيء من اللهو البريء ، وتفكه ذاتها ، في ثقافتها ، بكثير من مشاهد الحياة ، وعبرها ، فتتخذها وسائل زهو وظهور ، .. ومجون ؟ ! ... فيسيطر الطيش على اوضاعها ، ويتشوش تفكيرها ، ويرتبك شعورها ، وتصبح ، تصرفاتها ، عبرة للاخرين !! ... فتلوكها الالسن ، وتصبح موضوع سخرية وهزء ، في المجالس ، وفي النوادي والمجتمعات ! ! ... يتندرون بخفتها وطيشها ، وينسبون اليها الحمق ، وسوء التدبير ! ... وقد يتوجعون لحالها ! وقد يشمتون ، متظاهرين باطرائها ، لتزداد سخفاً على سخف ! ... ثم يتبارون في تكهن ما ستؤول اليه من سوء المصير ! ...

ذكرت قليلا من اخطار كثيرة ، تتعرض لها الفتاة ، ولا ينجو منها ،

ومن ويلاتها ، الفتى ، ما داما يتعلقان بظواهر مـــا يحيط بهما ، نتيجة لانحراف العبقرية الجنسية ، في الفتاة ، ولانحراف الشهامة في الفتى . وهناك اخطار يتعرضان لها ، لتعلقهما بالظواهر ، ايضاً ، ولكن فيما هو في ذاتهما.

فالفتاة ، مثلا ، في غرورها - وهذا مظهر قوي من مظاهر الانحراف، على ما سبق - بيانه قد تتعلق بظواهر ذاتها ، من نضارة ورشاقة ، واناقة وجاذبية . ومن مناورات ، تدلل بها على ذكائها . فلا تكتفي بما منحتها الطبيعة من مواهب ، في ذكائها ، ومن حيوية ، في جسدها . ولا بمـــا اغدقت عليها الحياة ، في انوثتها ، من حلاوة ونعومة ولباقة . بل تحاول ان تفتعل وسائل جديدة ، مادية ومعنوية ، من مساحيق وحلى وازياء ؛ ومن اوضاع ، في تفكيرها ، وفي اظهار شعورها ، وفي شذوذ تصرفاتها، زهواً وتظاهراً . فتتصنع الافراط ، في التحرر ، وتكثر مـن الخروج للنزهات ، وللرحلات ، وتستهويها الاناقة ، فتغلو فيهـا !! .. وهـذه المظاهر المفتعلة ، كلها ، تحتاج لمبالغ من المال ، قد تعجز عن الحصول عليها، من الطرق السوية الشريفة ! ... فلا تتحاشى ، وقد استحكم فيهـا حب الظهور ، وزهو الغرور ، عن الحصول عليها بطرق لا تتلاءم مع كرامتها ! فتذر قرون الاخطار ، بالانحراف !! ... فتخالف وحي عبقرية الانوثة، في داخلها ، وتصم اذنيها ، عن نداء الامومة في قلبها ! ... وهي ، في غرورها هذا ، تصبح اسيرة انحراف الميول ، لا تتأثر الا بمـا يثير اعجاب الآخرين ، ولا تؤخذ الا بالظواهر !! ...

فمابالك اذا كان الشباب ، في فتيانه وفي فتيانه ، والجنسان معرضان للاخطار ذاتها ، ! .. ولا نكثر التمثيل بالفتاة الا لاعتقادنا بانها هي نقطة ارتكاز

الحب في الحياة . وبانها ، بعبقريتها الجنسية ، اكثر قدرة على تـــلافي الاخطار ، من الشبان . بله انها هي التي تكون اكثر تعرضاً للاخطار ، لانها هي الام ! ... وغريزة الامومة ، في نفس المرأة ، هي الجديرة بتوجيه انسانية الانسان ، وبالايحاء بما يصلح المجتمع ! ... — فما بالك ، اذن ، اذا كان هذا الشباب بعيداً عن واقع الحياة ، لا يعرفها الا ممـــا قرأ في الكتب ؟؟ ... ولا سيما في الروايات الغرامية المشحونة بخيالات المؤلفين واوهامهم ، على الغالب ؟... وفي تلك التي انما تؤلف لمسايرة الجمهور ، في تصوراته وفي اوهامه ، استدراراً للربح ، او اقتناصاً للشهرة ، او تبريراً لسلوكٍ ، يراه الاخيار من الناس مشينا ؟ ... ولا يندر أن نجد ، في مثل هذه القصص والروايات ، ما يثير الشهوات ، ويفسد التصورات ، هازئة بالمثل العليا ، وبالقيم ! ... وهذه الانواع من التآليف ، من شأنها ان تبعد الشباب عن واقع الحياة ، مهما ظهرت على عبارات كتبها الرصانة ، ومهما اكثرت من ترداد عبارات المثل ، والقيم ! ... انها قد تصطنع البعث العلمي ، وقد تصطبغ بالاسلوب الادبي ، شعراً أو نثراً ، ولكنها ، في ذلك كله ، تموه الحقائق ، وتفسد على الشباب تصور واقع الحياة ، لانها تدخل فيه ما هو اكثر من الحياة ، فيضطرب الشباب ، وتنشأ في نفسه ، في تنازعه مع واقع المجتمع ، عقد مشاكل وهمية ، لا يمكن حلها ، فتؤدي الى المآسي والفواجع ! ! ... وليست مآسي الحب في العجز عـــن اجتياز العقبات والعراقيل ، وعن حل العقد ، كما يظن الكثيرون ، وانما هي ، في جلها ، نتيجة لادخال ماهو اكثر من الحياة ، او بعيد عنها ، في واقع الحياة ! ... فالحب الرومانطيقي ، وهو الحب الذي يحاول صاحبه تقليد ابطال القصص والروايات الخيالية ، انما هو وهم مشوّش ، وتقليد سخيف ، يبعد عن الواقع ! ..

انه حب خطر ، يشغل النفس ، عن ذاتها ، بخيالات مؤلفين ، ارادوا أن يتلهوا ، وان يدفعوا الناس للاعجاب بخصب خيالهم ، وعبقرية تصويرهم !... فاذا جاز لنا ان نتلهى ببعض هذا الكتب ، لنزاهتها ولأسلوبها الجميل ، فلا يجوز ان نؤمن ، بكل ما يرد فيها ، ايمان المقلد العاجز . او أن ننجذب الى ابطالها ، انجذابا سلبياً ، يختل معه توازن النفس ، فتتنكر لذاتها ، وتكفر بواقع الحياة !! ... وكثيرة هي الاخطار التي تنشأ عن هذه التصورات الخيالية ، والانفعالات الوهمية ! فلينتبه الشباب ! ...

من هذه الاخطار أن يُخدع الشباب ، فتاة كان ام فتى ، وقد أخذ كل منهما بمواقف ابطال الخيال ، في الروايات والقصص ، فيفضل حياة العزوبة على الزواج ، لانها لم تجد فتى احلامها ! ... أو لانه لم يعثر على فتاة خياله !... وكثيراً ما ينشأ ، عن هذا القرار ، استهتار ، في السلوك ، واضطراب ، في النفس ، ينذران بانهيار خلقي خطر !! ... او يكون سبباً لانكماش نفسي ، وابتعاد عن الجنس الآخر ، لان الفساد ، حسب رأى كل منهما ، قد شمل ابناء ، او بنات ، ذلك الجنس ، فليس فيه من من هو جدير بالثقة ! ...

ومنها ان ينتظر احد الخطيبين ، من الآخر ، مواقف ، استوحاها من حياة ابطال ، خلقهم خيال خصب ، او وهم مبدع ، فلا يبلغ مبتغاه ! ... فتنفصم عرى الخطبة ، لأوهي سبب ! ... وقد يتأخر ظهور اثر ذلك لما بعد الزواج ، فتنشأ بسببه المشاكل البيتية ، والخلافات بين الازواج ؛ ولا يندر أن ينتهي الامر بالهجر ، اوبالطلاق ! ... وكيف تريد ان يمثل الفتى دوراً مصطنعاً ، او ان تفتعل الفتاة هذا الدور ، والحب الصحيح ، وهو يرمي الى عقد شركة عملية ، في الحياة ، سرائها وضرائها ، لا يتحمل

التصنع والافتعال ، ولا يدرك كيف يمكن ان تكون الحياة ، في واقعها ، اكثر من الحياة ، او شيئاً بعيداً عنها ، وعن واقعها ؟ ! ... الحب والطبيعة صنوان ، ولذلك قيل : « متى وجد الحب ارتفع التكليف » ! ! ... واقول : وسمج التصنع والافتعال ! ! ...

قد تبتلي الفتاة ، وهي في بهجة نضارة حيويتها ونضجها ، باضطراب نفسي ، وقلق روحي ، تخشى معهما ، في مستقبلها ، العزلة والوحدة ! إنها قد انبثقت في نفسها ، عقدة ضعف ، تشعرها بانها عاجزة عن منح السعادة ، لعجزها عن تمثيل دور بطولات الخيال ، فتفسد عليها تلك البهجة ! ... لا سيما اذا مر بها زمن طويل ، في نظرها ، لم تجد فيه من تحبه ! ... اما الفتى ، فانه في مثل هذه الحالة ، لا يخشى العزلة والوحدة ، بل يفضلهما على زواج ، لا تتحقق فيه احلام اوهامه ! ! ...

ومن الفواجع المؤلمة ، في مثل هذه التخيلات ، ان يشتد شعور الفتاة بتبعتها ، لدرجة الغلو ، وان تخشى الوقوع في التجربة ، لدرجة الافراط ، فتفقد طبيعتها وانطلاقها ومرحها ، وتبتلى بتعب روحي ، واعياء جسدي ، قد ينتهي بالنفرة من الزواج ! ... وربما من جنس الرجال ! ... وقد تصاب ، بسبب ذينك التعب والاعياء ، بامراض عصبية ، كالهستيريا ، مثلا ، قد تبلغ بها درجة من الاضطراب والالم ، يؤديان بها الاختيار العزلة ! ! ... او ... للسقوط والانهيار ! ! ... ونسمعها تفسر حالتها الاخيرة بقولها : ماذا تريدون مني ؟ ! ... انني بائسة ! لا يفهمني احد ! ! ... انني مهددة ؟ ! .. انني ، كغيري ، لي حق في الحياة ! ! ... او بعبارات اخرى تماثلها ؛ ولكنها ، كلها ، تدل على اضطراب اليأس ، وعلى انخداع الروح ، بالوهم والخيال ! ... وقد تشعر الفتاة ، في هذه الحالة ، بان محيطها يضايقها ،

وان جميع الناس ، حتى ابويها ، يناصبونها العداء ! ... فتنفر من الجميع !!..

وفي هذه الحالات ، وفي مثيلاتها ، تتكون ، في كثير من النفوس ، وفي الجنسين ، عواطف الحسد والكره والحقد ، فيتعلق احدهما بالآخر ، لا عن عاطفة حب صحيح ، بل كرهاً بالغير ، او حقداً على شخص خان الحب ، او حسداً لانسان ساعده الحظ على اتباع وثبة قلبه ، او غيرة من الآخرين ! ... هنا ، يُفتعل الحب ، وهو مزيف طبعاً ، ويُصطنع ازياء ، كاللباس ، وينتشر مرض خداع الحب ! ... وخداع الحب ، ان هو إلا خداع الذات للذات ! ...

ومأساة المـــآسي ، وفاجعة الفواجع ، أن يشتبه الحب بالميول ، فيكون انفعالاً بـــدائيا مبتذلا ، هو شكل من اشكال الحب المزيف الدنيء ! ... فيؤول ، في انحرافه وجموحـه ، الى توخي اللذة الجسدية ، وحسب !!! ... فيصبح ، للشعوذة في الحب ! ، وللسخريـة بالعواطف ، وللتلاعب بالقلوب ، وللهزء بالمثل العليا ، اثرها القوي ، في انهيار القيم ، وفي خراب العائلة ، وفي انحطاط الامم ، واستعبادها !! ...

ان كل ما ذكر من الظواهر الخطرة ، وغيرها مما لم يتسع المجـــال لذكرها ، انما تفسر بانقلاب الاوضاع الطبيعية ، في الحب الصحيح ! ... تتركز ميول تلك العاطفة في ذات المحبوب ، او بما يتعلق به ، بينما يجب ان تتركز ، عاطفة الحب السليم ، في ذات المحب ، عـلى ما سبق بيانه ، في اواخر بحث عبقرية الجنس . وستزداد هذه الفكرة وضوحا ، في بيان وسائل الانقاذ .

٥ ـ وسائل الانقاذ

حاولنا استعراض بعض اخطار الحب المزيف المنحرف ، في وثبات الشباب ، فتيات وفتيان ؛ وفي بيان بعض المآسي والآلام التي يتعرض لها ، في انحراف عبقرية الجنس والشهامة والمروؤة ، وافسادها ؛ لينتبه لأوضاعه ، وليدرك ما لقلب الاوضاع الطبيعية ، من اثر فعّال ، في تضليل سير الحياة ، وفي بعث الاضطراب والارتباك ، والقلق المرير ، والتشويش المخيف ، والهم المضنى ، في النفوس ! ! ... وما كان قصدنا ، في تنبيه الشباب لتلك الاوضاع ، ولبعض نتائجها الفاجعة ، الا إثارة نفسه الانسانية ، واستثارة ما في كوامنها ، من عبقرية ومروءة وشهامة ؛ لتتكون ، في نفسه هذه ، حاجة ملحة لمعرفة حقائق الاوضاع ، فينصرف ، بذاته ، لاقتباس تلك المعرفة في واقع مجتمعه ، بملاحظة ما يرى وما يسمع وما يقرأ .. وبالافادة من اختبار تجاربه ، في تصرفاته .

ان لبعث الحاجة الى المعرفة ، في اثارة النفس ، ولا سيما اذا كانت نفسا فتية ، متوثبة لامتلاك الحياة ، اثراً فعالا ، في بلوغ تلك المعرفة اعماق الفؤاد ، اذا هي تحققت على الوجه الصحيح . في تلك الاعماق ، تتفاعل المعرفة الجديدة مع معارف سابقة ، يتحقق بها للفؤاد كيانه ، فتنمو نمواً متجدداً ، وتزهر ، وتثمر ؛ ثم ينضج الثمر ميولا ، تنسجم مع كيان الذات ـ في حاجاتها ، وفي تقدم تحققها الانساني ـ ومع كيان المجتمع ، في تفاعلات افراده وتضامنهم ، وفي تحقيقه لسير الحضارة الانسانية تقدماً ، وتصاعديا ، الى المجد والسعادة ، مع اطراد سير مدنية ، انبثقت ، عن تلك الحضارة ، وتستمر على التفاعل معها .

وبهذا التفاعل بين الفكرات ، في اعماق الفؤاد ، تتحقق معجزة الانقاذ ، ما دامت تلك الفكرات بناءة ، وما دام التفاعل طبيعياً اصيلا ، لا يشوبه تصنع غرور مشوّش ، تتغلغل معه فكرات هدامة ، تفسد على الفؤاد عمله ، فيستمر سلوك الشباب مرتبكا مضطربا ، يؤدي به الى تلك الاخطار ، في سيرة ، يفسدها الغرور والصلف ، او السذاجة والجهل .

فعلى معرفة واقع الحياة ، بظواهرها وحوادثها ، وبنواميسها ؛ وعلى اتصال هـــذه المعرفة بالفؤاد ، اتصالا وثيقاً ، يتم ، معه ، التفاعل مع فكرات كبيرة ، خلقية واجتماعية وحيوية ؛ وعلى ما يتفتح عنه هـــذا التفاعل من زهرات وثمرات ، هي ميول صالحـة ، تخضع للارادة الحرة الواعية ، يتوقف نجاح عملية الانقاذ .

ومن يقول بنمو الميول الصالحـة ، في اعماق الفؤاد ، نتيجة لتفاعل الفكرات فيه ، يقول ، حكما ، بالثقافة ، في مفهومها الصحيح ، حين تتحد الذات الانسانية بالمعارف والخبرات . فتمتزج المعرفة بالذات ، وتصبحان شيئا واحداً ، هو الثقافة ذاتها ! وهذه هي جماع تلك الوسائل التي يجدر بنا ان نتخذها وسائل للانقاذ .

ليست وسائل الانقاذ ، اذن ، سوى فكرات صالحة ، ومعرفة واقعية صحيحة ، تتحول ، في ذات الشباب ، ثقافة واعية منقذة . فبصلاح تلك الفكرات ، وبصحة تلك المعرفـــة الواقعية ، صلاح السيرة ، وانسجام السلوك مع حاجات المجتمع ، في تقدمه ، ومع تطورات الحضارة ، في تصاعدها . وبفساد تلك الفكرات ، وبخطأ تلك المعرفة ، وبعدهاعـــن الواقع ، تفسُد السيرة ، ويضطرب السلوك ، ويتناقض الفرد مع انسانيته ، ويتخلف عن ركب الحضارة ، ملوما محسوراً ! ...

فلا مندوحة لنا ، اذن ، من ان نعرّف الشباب بواقع الحياة ، ليستطيع

مواجهتها ، وليُحسن تحمل التبعة في كفاح امتلاكها ، عن فهم وادراك ، وارادة واختيار . وهذا ما ذهبنا اليه ، في جميع مباحثنا السابقة ، وهذا ما اكدناه في بحثنا عـن الحب ، في حياة الشباب ، وعن اخطاره . فلا يجوز ان يسير الشباب ، وهو في غفلة عـــن واقع الحياة ، في ذاته وفي مجتمعه ، وفي مثله الانسانية . او في غيبوبة ساذجة عن كيان ذاته ، وعن حقيقة مجتمعة .

فللحب ثقافته ! ... ولهذه الثقافة فكراتها الصالحة ، وواقع ، لا يجوز جهله او تجاهله ، ومُثل ، يُخدع من يتقاعس عنها ، فيصبح فريسة بواعث الاخطار !! ...

فاذا تأملت ، ملياً ، في فكرات الحب المبررة لتحققه ، تجدها تدور ، جميعها ، حول فكرة اولية واحدة ، هي فكرة التحرر ...

الحب تحرر ، قبل كل شيء ! ... فلا يتحقق مع التقيد والاستعباد ! لذلك تتركز عـــاطفته في نفس المحب ، لا في ذات المحبوب ، او في متعلقاته وملابساته . تخرج النفس ، من ذاتها ، لتعود لذاتها - كما تعود الطابة ، تربطها بخيط من المطاط - ولتتحرر مما لا يزال عالقا بها ، من طيش رعونة الطفولة والولودة ، ومن ارتباك تناقض الشباب ... فلا تجد وسيلة انجع من ان تُشغل بموضوع ، هو خارج عن ذاتها ، فتعود لتركز عاطفة انجذابها ، هذا ، حبا لذاتها ، في ذاتها . وحب الذات يجب ان يتحقق ، حسب التحليل العلمي السيكولوجي ، بما هو خارج عن الذات . والافانه اذا تحقق بانجذابه لموضوع ، هو في داخـــل الذات ، اصبح انانية فردية مفرطة ، يتغلب ، معها ، مبدأ تفضيل حقوق الفرد ، على حساب حقوق

المجتمع . والحب، اذا اصبح انانية فردية مفرطة ، كهذه ، يتحول ميلا ، يحاول صاحبه التملص مما يقتضيه الحب الصحيح من تبادل ، في العاطفة ، ومن تضامن ، في اجتياز العراقيل ، ومـــن تعاون ، في تحقيق شكله الاجتماعي ، الا وهو الزواج ، ليحصر اهتمامه باستعباد من ينجذب اليه ، اشباعاً لفرديته ، في انانيته ! ... وكم اطاحت ، هذه الانانية الفردية المنكمشة ، بشبان ، تعلقوا بفتيات ، تحققت عناصر انانية حب الذات ، فيهن ، بانجذاب الذات الى ما هو ، في داخل الذات ! ... وكم اطاحت بفتيات ، كان موضوع انجذابهن شبان ، افرطوا في انانية الفرد المنكمشة على ذاتها !!.. وهكذا يصبح الحب طغيانا واستعباداً ، بعد ان تحول ميلا فرديا ، لا يتحقق التحرر معه مطلقا ! ... حتى ولا من رعونة الطفولة ، او ارتباك الشباب ! ... فلينتبه الشباب ، وليلاحظ ما حوله ، تنجلي امامه حقائق كثير من الحوادث والوقائع !! ... واذا اراد انقاذ نفسه ، والامر يتعلق بارادته ، حتما ، ولا ينقذ الذات الا إرادة الذات ، فليفكر مليا فيما نعرض من تحليل ، وليتأمل ، بصدق واعمال روية ، في هذه الفكرة ، وهي ، في نظرنا ، نتيجة ، لما مر ، وخلاصة :

الحب تحرر ! ... ولا يتحقق ، تحرراً ، إلا بانجذاب الذات لموضوع ، هو خارج الذات ! .. ولكنه يتركز عاطفة متسامية ، في داخل الذات ، لمصلحتها ، ولصالح مجتمع ، فيه تتكون ، وبه تتحقق ! ! ...

اذا تأمل الشباب ، بفتياته وبفتيانه ، في هذه الفكرة التي يجب ان تكون عنصراً هامـــاً من عناصر ثقافة الحب ، في نفسه ، لتكون ثقافة منقذة ، يصل ، حكماً ، الى تفهم ما يلي :

اذا انحرف الشباب ، في انجذابه ، فانـه لا يفلت من ان يكون في احد هذين الوضعين :

(أ) ـ انجذابه لموضوع ، هو في داخل ذاته ، فلا يتجاوزها ، ولا يخرج ، منها ، إلا أنانياً غاصباً مستعبداً ، أو فاسقاً متلهياً ، أو متغطرسا مفسداً . وقد سبق بيان بعض آثار هذا الوضع .

(ب) ـ انجذابه لموضوع ، هو خارج عن ذاته ، ولكنه يظل واقفـا عنده ، لا يعود به لذاته ، حيث تستكمل عاطفة الانجذاب تفاعلها ، لتصبح حبا صحيحا ، يتصل بالارادة ، فيتحرّر ، ويُحرّر . . .

يتعلق الشباب ، في الحالة الاولى ، بذاته ، ويرى الكون بمنظارها ، ويتخذ تمتع الذات ، واشباع شهواتها وميولها ، اصـــلاً لكل معرفة ، ومقياسا للقيم والمثل . فأنانيته ، فيها ، فردية مفرطة ، وهي الانانية المركّزة في الذات ! . . . وقد كانت هـذه الانانية ، ولا تزال ، مصدرا للشرور والاستعباد والطغيان ، وللاستئثار والبغي والعدوان ؛ كما كانت منشأ ، للضعف والاستسلام والخنوع ، وللتذلل والتملق واحتقار المثل والقيم !. فهي هدامة لكيان الافراد ، في انسانيتهم ، ولكيان المجتمعات والامم ، في حياتهم الاجتماعيه ! . . . فينهار الفرد ، فتتحول حياتـــه الى معيشة ، وينحط المجتمع ، فيستبدل ظواهر المدنية ، وملذاتها ، بحقيقة الحضارة ، وبمثلها وقيمها ، وبمسراتها ومباهجها !! . . . وهكذا تطغوا امم ، وتستعبد امم ، ما دام لهذا الانحراف اثره ، في حياة المجتمع ، وفي ثقافته ؛ ولا سيما اذا استحكم انحراف هذه الانانية المركّزة ، في حياة الحب ، وفي ثقافته !

اما في الحالة الثانية ، فان الشباب قد ينجذب الى شيء معين واضح ، كالاثراء والمجد والشهرة ، بإجمالها وتفاصيلها ؛ وكصورة وجه موضوع

تعلقه وهوسه ، او عينيه ، او رشاقته ، او بعض أوضاعه وغنجه ودلاله ، بله بعض الاوضاع الذهنية ، او السلوكية ... وغيرها ... ! ... وقد ينجذب الى امور مهمة غامضة ، فتراه محتارا ، لا يعرف ماذا يريد ! ... كل هذه الظواهر قد يلتبس امرها على الشباب ، فيتوهمونها حبا صحيحا ، — لما يلاحظونه ، في تهوس مدعيه ، من شدة في التعلق ، وقوة في الحماس — وما هو ، في الحقيقة ، سوى حب مزيف مشوش ، لايلبث ان يزول ، لتعلقه بامور لا تثبت على حال. فجسم الانسان ، مثلا ، في تبدل مستمر . فاذا كان موضوع التعلق والهوس ، فانهما سيزولان ، حكما ، عند ما تتبدل تلك الظواهر ، ما دامت موضوع الانجذاب! وكثيراً ما كان ذلك سببا قويا من اسباب الملل وقطع العلاقات والصلات ! .. بعد فترات حماس .. وتهوس ! .... وانفعال وهيام ! ...

ونضارة الفتيات ، شبكة العبقرية الجنسية ، انها ، هي ايضا ، موقته لا تستمر ، في الغالب ، اكثر من ثلاث سنوات ! ... في الحالات العامة العادية ! ... والا فان هذه المدة ، قد تطول ، عند المثقفات ثقافة صحيحة ، لا سيما في تفهم الحب ، وفي إدراك نواميسه ، اذا انسجمن مع ما تقتضيه هذه الثقافة ، بطبيعتها ، من خفر وحشمة وعفاف .... ومن يقظة وحذر وحسن تقدير ... ومن ذكاء ولباقة ، في السلوك ، وفي التصرف ... وفي العناية اليقظة بصحة النفس ، وبصحة الجسد ، وباعتياد النظافة والترتيب!

ان هذه الصفات ، مع ما يناسبها من فضائل وألمعية ، هي جماع عبقرية الجنس ، في الفتيات ! .. وبها يتسنى لتلك النضارة ان يطول امدها ، وان تستمر ، دون ان تضطر الفتاة الى الالتجاء لوسائل التجميل المصطنعة ، من مساحيق ، وغيرها من معالجات ! ... ان لفضيلة الاتزان — وهي وضع

طبيعي ، ينتجه انسجام الفتيات المثقفات مع طبيعة الحياة – تأثيرا قويا ، فعالا ، في استمرار تلك النضارة ، رمز اطمئنان النفس وصفاء الروح ! . ولن تزول ، عندئذٍ ، هـــذه النضارة المعبرة عن مرح الحياة وزهوها ، والعزيزة على قلوب الشباب والنســـاء والرجال ، والاطفـال ، إلا بتؤدة وبطء ! . . ويستمر اثرها باستمرار الانسجام الحي الذي تنفتـح عنه روح الامة ، والعرق والمجتمع ! ... ولمـا كان الانسان ، في حقيقـة ذاتيته الانسانية ، وكيانه الحيوي ، ثمرة لتفكيره وتصوراته ، فان هذه الحالات ، في انسجام الصفات ، انسجاما ثقافيا طبيعيا ، يحدث ، في روح الفتاة ، ويكوّن ، في ذهنها وفي شعورها – أي في دماغها ، وفي قلبها – تيارا نفسيا ، تنطلق به روح الامومة الصادقة ، بعطفها وحنوها واخلاصها ، فتُحيي المجتمع ، وترتفع بالامة ، متسامية الى قمم الامجاد . . . واطمئنان السعادة ! ... فلا غرو ، إذن ، اذا سبق نضجُ الفتيات نضجَ الشبان ، فقد قدَّرت الحياة ان تعطف المرأة عـــلى الرجل ، وان تسدد ، بفاعلية عبقريتها الجنسية ، خطاه ، لتوقظ في نفسه روح عرفان الجميل ! فيظـل مدينا لها بسعادته ، كل حياته ! ... والشاب السوي يتأثر دائما بمن يخلص له ، وبمن يهتم ، إهتماماً صادقاً ، بمصالحه ، ولا ينسى له فضله مدى الحياة ! !.

ان الشباب السوي ، وهـــو الذي لم تفسده بيئته ، يظل ، كما سبق وردّدنا مراراً ، خيّراً بفطرته ، يندفع ، بحماس واخلاص ، وبتأثير غريزته الاجتماعية ، للقيام بأي عملي تكتلي اجتماعي ، تتغلب فيه المصلحة العامة ، الرحبة الارجاء ، على الصالح الخاص ، الضيق النطاق . . . ! انها النجدة ، وانها المروءة ، تتجليان في شهامته ! ... وبالاعتماد على هـــذه الشهامة ، تستطيع الفتاة ، النيرة في اتزانها ، أن تحسن توجيهه ، فتدفعه الى التحلي بأنبل

الصفات ، والى القيام بأشرف الاعمال ، ولا سيما عندما تتحد حياتها بحياته ، بسر الزواج ، وتعقد بينهما شركة الحياة ! . . .

فاذا حَرَصنا على تلك النضارة الحلوة ، في الشباب ، فلأنها وسيلة الانجذاب ، للتعارف والتفاهم . . . واذا كان حِرصنا ، على استمرارها ، أشد وأقوى ، فلأننا نرغب في ان يظل تفاعل ذلك الانجذاب قويا ، في جميع أدوار الحياة ، في تكوُّن العائلة ، وفي تحقق المجتمع الصالح في الامة . ولكن لا بد لنا ، هنا ، من التنبيه الى امر هام جدا ، وهو ان هـذه النضارة ، مع اعترافنا بأهميتها ، وبشدة تأثيرها ، لا تصلح ، وحدها ، سببا لاختيار الشركة في الحياة ، لانها ، مبدئيا ، معرضة للزوال! . . . ورابطة الزواج ، انما يجب ان تكون استجابة لحب صحيح ، يعبر عن تجاذب اتحاد كلي ، وتعاون مطلق ، بين حياتين ، تندمج كل منهما ، بكليتها ، جملةً ، بالحياة الاخرى ، ككل لاتجزئة في كيانه ، ولا في مظاهر هذا الكيان! . . فلا يصح حصر الاعتماد ، في توثيق عرى تلك الرابطة المقدسة ، على أي جزئي في الكيان الجسمي ، كجمال الوجه ، أو نضارته ، وكروعة العينين أوسحرهما ، وحلاوة الابتسامة ، أو فتنتها ، ورشاقة القد ، أو جاذبيته ، . . ولا على أية ظاهرة من ظواهر النفس ، والروح ، كالذكاء والمرح وخفة الروح . . . . فان كلامنها ، بجزئيته ، معرّض للتبدل والتغير ، أو للزوال! وانما تستمر الذات ، بكليتها ، وهي الصالحة ، وحدها ، موضوعا للاتحاد ، في زواج موفق . وليست تلك الجزئيات ، والظواهر ، سوى وسائل انجذاب ، تتعرف به ، كل ذات ، بالذات التي يتم بها كيانها الاجتماعي ، وتكتمل انسانيتها . فهي وسائل ضرورية ، ولكنها لا تصلح غاية ، ولا هدفا ! . . . والخطر ، كل الخطر ، في قلب الاوضاع الطبيعية ، واعتبار

الوسائل غايات واهدافا ! ... ومن هنا تنشأ المشاكل ، وتضعف الصلات ، وتخيب الآمال ! ... فكيف بنا اذا ما اصبحت الوسائل الخارجية عن الذات ، كالثروة أو الجاه ، مثلا ، غايات ، تنصرف اليها النفوس ، في ضعفها ، واستسلامها ! ....

انها حقائق واقعية ، يكفي ان يلاحظ الشباب ما حوله ، ليلمسها لمس اليد ؛ ويكفي ان يتأمل فيما يلمس منها ، تأملا داخليا ذاتيا ، بتجرد واخلاص وفطنة ، ليكتشف الكثير من اسباب الخلافات والمنازعات والفساد ! ...

ولعله يجد فيما يكتشفه ، في تلك الحقائق الواقعية الملموسة ، ان الاستسلام لنزوات النفس ، ولاستهواء ما يقف عنده بعض الشباب ، من مواضيع الانجذاب في خارج الذات ، وقد سبق بيانه ، يكون سببا اوليا في تقصير أمد تلك النضارة الحلوة ، في الفتيات ، وفي اضعاف وثبات الشهامة في الفتيان ! .. ألا يصبح موضوع الانجذاب ، أيا كان مظهره — في هذا الاستهواء ، أو في ذلك الاستسلام — مصدراً لسلبية خطرة ، تضعف المقاومة ، أو تلاشيها ! .... فتزلق القدم ، وتهوي النفس الى منحدر سحيق ، لا تكاد تبلغه ، حتى تلمسها عقارب تبكيت الضمير ، فتلدغها افاعي الندم وحيّاته ! ... ولكن ، ندم البغاة ، ولات ساعة مندم ! ..

ان الشهوات الجامحة ، اذا ما استجيبت نزواتها ، لا تلبث ان تنحل ، ثم تتلاشى ، لتتحول الى خيبة مرة ، واخفاق مؤلم ! ... ثم الى كبت وحقد وندم ! ... قد يتأثر بعض الشباب ، بالم الاخفاق ومرارة الخيبة ، لدرجة ، يختل معها اتزانه النفسي ، فتنهار ، في نظره ، معاني القيم السامية ، وتسفل المثل ! ولا سيما اذا ما هبطت بالشباب ، تلك الشهوات الجامحة ،

الى منحدر الخطيئة ! ... قد يستسهل، في هذه الحالة العارضة، المجون! وقد يستكين للفساد ... ثم يركب المعاصي ، متوهماً انه يُسلّي ، بذلك ، همومه ، ويخفف من آلامـــه ! ... وهو لا يدري انه ، بذلك الاسفاف والسقوط ، انما يقضي على ما في نفسه من رغبات سامية ، وآمال حلوة ، وامان عذبة ... واحلام مفعمة بفكرات كبيرة وامكانات سليمة ... كانت ، كلها مصدراً للابتهاج ، يغمر نفسه ، وللمرح ، يميز انطلاق روح الفتوة فيها ، ولتلك المسرات ، تبعث ، في اعماقها ، الطمأنينة والهناء !.. مسكين الشباب ، ولا فرق ، هنا ، بين فتياته وفتيانه ، اذا ما غاب عن حقيقته ، وغفل عن وسائل انقاذه ، في تطورات حياته ، فلا يحاول تفهم الواقع ، واقتناص العبرة من الحوادث ! ... وفي ثقافة الواقع والعبرة تكمن وسائل الانقاذ ! ...

كثيراً ما يُخدع الشباب ، سواء أكانت فتاة ام كان فتى ، بما يظهره مدّعي الحب ، في تحمسه الانفعالي ، من غلو واغراء ! ... واكثر الناس اتقاناً لتمثيل دور الاغراء ، في غلو هـــذا التحمس ، وفي الظهور بمظهر الاخلاص والتضحية ، هم اولئك الذين يمارسون الخلاعة والفسق والفجور !.. وانهم يفضلون ، دائماً ، شهواتهم على موضوع ميولهم ، وهو سهم . انهم لا يرون ، فيمن يظهرون له الحب ، سوى وسائل لاشباع تلك الشهوات !... وهم ، في انانيتهم المفرطة ، يستهترون بعواطف الآخرين ، ولا يبالون بما يسببون لغيرهم من كوارث وآلام !!... انهم ، وقد قضوا من الفريسة الوطر ، يستخفّون بها ، وبعواطفها ، وبشقائها وآلامها ! ... وكثيراً ما يحتقرونها ، ويلصقون بها التهم ، ليبرروا مـا يقدمون عليه من جرائم ! وليتخذوا ، من وهم البراءة ، وسائل جديدة للاغراء والفتك ، وللاستمرار

على الاجرام ! ... ان هؤلاء ، وامثالهم ، لا يؤمنون بالقيم ، ولا يثقون باحد ، لانهم فقدوا الثقة بانفسهم ، فانصرفوا عن اية فكرة في التعاون ، ولا سيما ، في شركة الحياة ! ... فليحذرهم الفطن من الشباب ! ...

والشباب ، في وثبته وانطلاقه ، يتأثر بالعبارات المحمسة ، لانها توقظ حميته وانفعاله ، ويُفتن بسحر الالفاظ ، لانها تدغدغ مراكز طموحه وآماله ؛ فتصبح الحقيقة ، عنده ، في كل معنى يلوح من تلك العبارات المحمّسة ، وفي كل فكرة تشع عن تلك الالفاظ الساحرة ، فيضلّل بسحر التحمس والانفعال ، وبها يؤخذ ! ... وكثيراً ما يستعبد ، في حياته الاجتماعية ، بصورة أعم ، وبحياة الحب ، بصورة اخص ، وهو غافل في غيبوبة توهُّم المسرة والنعيم ! ... الى ان يستيقظ ، فيفتح عينيه على الحقيقة الراهنة ، ويرى الفاجعة ماثلة امامه ، فيجزع ويرتاع ، ويزرف الدموع ألماً ، ويوالي الزفرات ندما ! ... ولكن ، سبق السيف العذل ! .. ضاعت الآمال ، وتبخرت الاحلام ، وانهارت النفوس ! ... لم تبق له ارض ميعاده ! ... ولم يستطع الاحتفاظ بتراثه ! ... من آبائه واجداده ! ..

ولكن ، ما لنا ولهذه الذكرى الموجعة ، الآن ، ونحن في معرض التحدث عن الحب وملابساته ؛ وعن الحياة ، في نعيم ذلك الحب ، وفي جحيمه ؟ ! ... الانزال ننكأ جرحنا في فلسطين الشهيدة ، كما ننكأه ، دائماً ، في اندلس استشهدت ، قبلها ، بمئات السنين ؟ ! ... ولا من يعتبر ! ! ! ...

ما كان لهذه الذكريات ، الموجعة المؤلمة ، اي مكان هنا ، لولا أن اثر سحر التحمس الانفعالي الجامح ، في حياة الحب ، يشبه ، الى حد كبير ، اثر سحر التحمس الانفعالي الجامح ، في حياة الامم ! ... نتيجة

واحدة ، تنبثق عن كل من الاثرين : هي الاستعباد ! .. استعبدت امم ، وامم ، نتيجة لاثر سحر التحمس الانفعالي الجامح ، في حياة المجتمع ... واستعبدت المرأة ، نتيجة لاثر سحر التحمس الانفعالي الجامح ، في حياة الحب ! ... وطريق واحدة تؤدي بنا الى اكتشاف وسائل الانقاذ ، والى استعمالها بنجاح ، هي الثقافة المدركة ، الواعية لواقع الحياة ! ! ... ان هذه الثقافة منقذة محررة : إنها تفهم جيداً ان الحب تحرر ، لا يقبل طغيانا ، ولا استعباداً !... وان العفة ، في اروع بهائها ، ان هي الا انتصار مجيد ، للحب الصحيح ، على دواعي الشهوة والفساد !... وليس الحب ، في نظرها ، سوى تجاذب بين حياتين ، تتبادلان العطاء ، ليتعاونا في تحقيق مجتمع صغير خصب ، هو البيت ! وفي تحطيم الحواجز والعوائق التي تعترض دخول السعادة اليه ! ...

ان هذه الثقافة منقذة ، لانهـــا متحررة ! انها واثقة من ذاتها ، ثقة ، لا تبالى ، معها ، ان يتحرك الحب ، ما دامت هى تسيره ، في حياة ، هى خضمٌ مـــن المتناقضات ! .. إنها تعرف ذاتها ، في ذاتها ، و في مجتمعها ؛ وإنها تدرك ما تريد ! وهي لا تغفل عمن يحاول التغرير بها ! .. انها ثقافة تفكير ، يُسيّر الشعور والعواطف !!... وليست ثورة انفعال ، او هيجان تحمس ، يخضع الفكر وتخضع الارادة ، فيهما ، للهوى والميول ! ...

ليس صحيحا ان الحب معجزة انسانية !.. وليس صحيحا ان المرأة لغز ، لا يحل !!... ابطل العلم ما غالي به بعضُ المؤلفين ، المغفلين ، او المنافقين ، فخدعوا الناس ، بهذه الافتراآت على حقائق الحياة الانسانية . وقد حذرنا فرويد ، في تحليلاته للنفس البشرية ، من امثال هؤلاء المؤلفين المغالين ؛ وقد سبقه ، في هـــذا التحذير ، كثير من العلماء ، المصلحين ؛ ووافقه المعاصرون المتجددون ! انهم ارادوا أن يجعلوا من الحب ، ومن المرأة ، وقد

ارادت لها الحياة – فيما اودعته فيها من عبقرية جنسية خاصة – ان تكون هي ، من الجنسين ، مظهر نظام هذا الحب وتوجيهه ، كائناتٍ مبهمة غامضة يتلاعبون في عَرضها ، ويتبارون في وصفها ، على شكل ، يجتذب القراء ، ويُدرّ الارباح ؛ او يحقق الشهرة ، وانتشار الاسم في الآفاق ! . . . علموا ان الناس ، في غفلتهم ، كثيراً مـــا يميلون الى الغرائب والغوامض ، ويستخفون بالمألوف من الحوادث ، والصريح من الاحاديث ؛ فأخـذوا يفرطون في الاغراب ، حتى ضاعوا في مهامه الخيال ، واضاعوا الناس ! . . .

بَعُـد هؤلاء عن واقع الحياة ، في حوادثها الراهنة ، وفي مثلها وقيمها ، فأبعدوا الناس عنها ! ومن يبعد عن الحياة ، في حقيقتها ، يبعد ، حكما ، عن اتباع نواميسها ؛ فيحاول ان يعيش خارج نطاقها ، فيمنى بالمـــآسي والفواجع ، ويصاب بالامراض والاوبئـــة ، في نفسه وفي جسده ، في شخصه وفي مجتمعه ! . . .

ان هؤلاء المغالين هم ، عادة ، من الاذكياء ؛ وقـد يكونون من العبقريين ! . . . وهل تصاب الامة بالكوارث ، والآفات ، بغير أذكيائها ، او عبقرييها ، من الناس ؟ ! . . . وهل للغباء أية قدرة على إلحاق الضرر بالآخرين ؟ واذا ما صدر عن الغبي او المغفل ضرر ، فهو أذىً سلبي ، لا قصد فيه ، ولذلك يسهل تداركه ! اما ما يصدر عن الذكي والعبقري ، فهو أذىً ايجابي ، قد يكون فيه كل القصد ، وكل الاجرام ، ويصعب ، في كثير من الحالات ، تداركه ، وقد يتعذر تلافيه ! . . .

وآخر ما يفجعنا به هؤلاء المضلون ، وهم يدورون مع حركة الزمن ، ليستغلوها ، انهم يموهون على الناس ، عامة ، وعلى الشباب ، خاصة ، بالواقع ذاتـــه ! . . . انهم شعروا – ونحن نعترف لهم بالحس المرهف –

بانحراف الناس ، ولا سيما المثقفين من الشباب ، عن بطولات الوهم والخيال ، فأخذوا يخلقون للناس صوراً ، تتصل بواقع غرائزهم الدنيئة ، وشهواتهم الجامحة ! ... ولكنهم لا يحاولون ، بما يكتبون ، رد جماحها ، كما يحاول الطبيب ، الحكيم ، رد جماح شهوات الاكل والشراب ، مثلا ، بذكر ما ينتاب المسرف فيها من امراض واوباء ؛ بل يعملون ، مع الاسف ، على اغراء تلك الغرائز ، والشهوات ، بدفعها للأسراف ، وللتمادي في الانحراف عن نواميس الحياة ، فيطلعون علينا بتلك الكتب المثيرة المهيجة !! ...

ان القصص الغرامية ، ذات المشاهد العاطفية الخيالية ، الجامحة ، تخدع الشباب ، لقلة تجاربه ، ولا سيما اذا كان ضعيف الثقافة ، جامد التفكير ، وتغرر به ! ... انها ، في إثارتها الميول الدنيئة ، تصرف الشباب عن حياته النفسية الداخلية ، وعن مسراتها الروحية ، اذ تخلق له صوراً فاتنة للذة الحسية ، فتشتبه عليه السعادة الدائمة ، بظواهرها السطحية الموقتة !! ... فتصبح هذه الظواهر موضوع هوس ، يقف عنده ، دون ان يتمكن من العودة لذاته ، حيث تتركز الميول والعواطف ، وتتزن ، بانسجامها بحياته ، وبحيويته ! لذلك تراه ، في هوسه هذا ، شديد الانفعال ، شارد اللب ، سريع التأثر ، جامح الخيال ، مشوش التفكير ، بعيداً عن السمو ، في شعوره وتفكيره ، وفي سلوكه واخلاقه !! ... ليحذر الشباب ذلك ، وليفكر ملياً في واقع الحياة ، وفي الاخطار التي يتعرض لها ، اذا ما خالف النواميس ! ...

ان هذه الملذات المبتذلة ، هي ملذات ظرفية موقتة ، يعقبها الالم والندم !! وهي غير الملذات ، ذات المسرات الدائمة ، التي يتوق اليها

الحب . فعلينا ان لا نخدع بغلو الحماس والانفعال !! .. وان لا يغرر بنا وهمٌ شارد ، او هوى خادع ، او لذة محتقرة مبتذلة !! ... ان الضمير الذي تفسده الميول الدنيئة ، ينقلب لآلة صماء ، لا تسمع ولا تعي ، فيتجرد عن انسانيته ، ويعجز عن ادراك اي مبدأ ، يُحيي المروءة في النفس ، بله اتباعه !! .. ان اتباع الهوى واشباع الشهوات ، والانصراف الى الملذات المبتذلة ، ، يسهل الامتناع عن تحقيق الآمال السامية ، في المستقبل ، ويفتك بكل طُموح في الشباب !! ... فلننتبه ، اذن ، ما دمنا نريد السمو في الحياة !! ...

واذا حذرت الشباب من المطالعات المثيرة والمهيجة ، فانني احذره من العشرة السيئه ، فان فتكها شديد ! ... انها تقضي على الميول السامية التي يوحي بها الشباب ، في خصبه وصفائه واستقامته ، وتُسفّ به الى مستوى الرعاع والاوباش !! ... وليحذر ما قد يُلقى اليه ، من تلك الميول الدنيئة ، المضللة ، وفي مشاهد السينما وغيرها ، او ما يغريه به عشراء السوء الموسوسين من قولهم : إن تلك الميول الدنيئة ، هو أقوى من ان تقاوم !! .. فالشباب ، يستطيع السيطرة عليها ، والامتناع عن الاستجابة لمغرياتها ، كما يمتنع عن تناول طعام شهيّ ، عرف انه مسموم ، مهما بلغ به الجوع ، واشتد السغب !! ...

لا يتعذر على الشباب ، في اخلاصه لذاته ولمجتمعه وامته ، ان يكتشف عشراء السوء . ففي احاديثهم ووسوساتهم ، وفي سيرتهم وتصرفاتهم ، ما يدل عليهم ، دلالة الجَرَذ على القذارة والاوساخ !! ولا يتعذر عليه ، في فطنته ، وفي وثبات نفسه الحيّرة ، ان يميز ، بين الصالح والطالح ، في كتب الحب والغرام ، او في غيرها من الاقاصيص والمشاهد المثيرة للميول

الدنيئة . ففي اسفافها ، وفي بذاءة تعابيرها ، ما لا يجعل مجالا للتردد في التمييز والاختيار !! . .

الشباب ، هو دور الكفاح لبلوغ رشد سليم ! انه المعركة الفاصلة ، قبل النضج ! . . . فهنيئاً لكل فتاة يتوج اكليل النصر هامتها ، في نضجها! . . ومرحى لكل فتى يخرج ، من معركة الرشد ، ظافراً ، رافع الجبين !. . إنه الشباب !. . وإنها الحياة !. . وفي الارادة الحرة يكمن سر الانقاذ !؟. . وفي انقاذ الشباب ، من ويلات الانحراف ، ومن آفات التضليل ، انما يعتمد على الشباب ذاته ، في ارادته الحرة ، لتنبثق ، في ذاته ، شعلة الحب المتحرر المحرر ! . . . وهذا هو الحب الصحيح ! هو حب تحرر ، لا استعباد فيه ! . . . وبذلك يخرج المجتمع عن ان يكون مجتمع استبعاد ، وبغضاء ، تظلم فيه المرأة ، ويظلم فيه الرجل ، اذ يظلم فيه كل انسان مسالم ابي! . . . ويصبح مجتمع حب وتحرر ، تتعاون فيه المرأة والرجل على تحقيق السعادة ، في اجواء من الثقة المتبادلة ، وفي مجتمع يطمئن للعدل والانصاف !! . . .

لا يليق بنا ، ونحن ندعي اليقظة ، بله النهضة ، ان يستمر مجتمعنا ، في كثير من مظاهره ، مجتمع استعباد ، وتفكك ، وحسد ، وبغضاء وافساد ، بتأثير الحب المزيف ، وبفعل مناوراته ومجاملاته ، في جميع مظاهره ، في تفاعلات المجتمع ، وفي الصلات بين الجنسين !! . . اذا كنا نريد مخلصين ان تصبح اليقظة ، التي ندّعيها ، نهضةً ، تتحقق بها الامجاد! . . فلنعمل ، بتفهم وتضحية واخلاص ، على جعل مجتمعنا مجتمع حب صحيح صادق ، اي مجتمع تحرر وتفكير ، وانطلاق ! . . . ولن يتحقق هذا إلا بوعي الشباب ! ولا وعي للشباب ، في انفعالاته وتحمسه ووثباته ، الا بثقافة متّزنه ، مركّزة متفهمة ، هي ثقافة الحب والحياة !! . . اي

ثقافة واقع الحب ، في واقع الحياة الراهن الماثل ، وفي واقعها المثالي ، وهذا هو الذي تتصل به امكانات تحقيق السعادة والامجاد ! ...

ان شركة الحياة ، في زواج صادق ، هو الهدف الذي يرمي اليه الحب الصحيح السليم ! وقـــد سبق وقلنا : ليس الزواج ، في حقيقته ، سوى شكل اجتماعي للحب الصحيح . وهو ، بذلك ، تعبير عن انسجام حياتين ، بكليتهما ، لا باجزاء كل منهما ، او بملابساته . فلا مندوحة ، اذن ، للشباب الواعي ، من ان يفكر ملياً بحقيقة الزواج ، ومن ان يحسن التصرف ، في مناورات التجاذب واختيار النصف المكمّل لكيانه ووجوده ، قبل الاقدام على عقد شركة ، يجب ان تستمر مـدى الحياة ! ! ... والافانه يخشى ، اذا ما سيطرت الرعونة والجهالة في مناورات اختياره ، ان يفلت الزمام من يده ، فيقع في شر اعماله ، ويتعرض لاخطار مر ذكرها ، وربما لاخطار غيرها ، لم يرد لها ذكر صريح ، في بحثنا هـذا ؛ ولكن لا تفوت الفطن ملاحظتها ، ومعرفتها ، وتقدير سوء مغبتها ! ! ..

ان فكرة عبقرية الجنس ، وقد انتزعناها ، اقتباساً ، من جو تشاؤم ، يحيط بآراء شوبنهور ، عن المرأة ، لننقلها الى جو تفاؤل ، ارادته لها الحياة ! وهذا الجو ، هو في واقع طبيعة المرأة ، يتحقق ، كلما ارادت ان تحقق ذاتها ، تحققاً طبيعياً بعيداً عن التصنع والافتعال ، وعن الغفلة والغيبوبة ! ... وهي الفكرة التي يجب ان ترتكز عليها ثقافتها ، في الحب ، كما يجب ان ترتكز ثقافة الشاب ، فيه ، على المروءة والشهامة ! ! ... ومن هذه الثقافة الواعية تنبثق ، في نفوس الفتيات والفتيان ، وسائـــل الانقاذ ! ... فيتحقق الزواج الصالح ، وتنعم الامة بالحياة السعيدة ، في مجتمعها الصالح القوي ، بسجاياه وبانتاجه .

يجب ان يحب الشباب انسجام الحياة ، في نظام البيت ، وفي الطمأنينة الهادئة فيه ، اكثر من الشخص المحبوب ! بل اكثر من الحب ذاته !! ... وهذا انما ينتج عن تحقق مبدأ ارتكاز الحب ، في نفس المحب ، لا في ذات المحبوب ، وقد مر بيانه .

يحلم الشباب الطموح الابي ، عندما تتفتح زهرات الحب الصحيح في قلبه ، وينتشر اريجها في جميع نواحي نفسه ، وفي كوامنها ، بفردوس الحياة الزوجية ! ... وهو حلم جميل أخّاذ ، ينعش الروح ، ويهز القلب ، ويبعث في النفس الارتياح ! ... وكل ما نتمناه ، لشبابنا الحبيب ، ان يحقق ، هذا الحلم الفتان ، كما يجب ان يحقق ليستكمل به وجوده ، وهناءه ، وسعادته !! ...

نعم ، ان الحياة الزوجية السليمة هي فردوس الحياة !! ولكن يجب ان لا نغالي ، فنعتقد انها كلها هناء وسعادة ونعيم ! ... فنستسلم لسراب الاماني وكذب الاحلام !! ... فنتوهم ان ليس في هذه الفردوس مشاكل ، يجب حلها ! ... وعراقيل وعقبات ، لا بد من اجتيازها ! ... ومصاعب ومشقات ، لا مندوحة ، للانسان ، عن الكفاح في سبيل تذليلها ، مـا دام حياً ! ...

ليست الحياة الزوجية السليمة فردوس الحياة ، لانها تريح الانسان من تلك المشاكل والعراقيل والمصاعب والمشقات ، وهي كلها من مستلزمات الحياة ! بل هي الفردوس ، لانها ، بفضل المحبة والالفة والمودة ، وبفعل التعاون والتضامن والتعاطف ، وبقوة ذلك الاتحاد ، - وقد كرّسه الحب - تمنح المتحدين ، بها ، وسائل فعالة للكفاح : تُحل بهـا المشاكل ، ويتم اجتياز العقبات والعراقيل ، وتذليل المصاعب والمشقات ! ... ولا معنى لحياة ، لا كفاح فيهـا ! ... والسعادة ، كل السعادة ، هي في ظفر

الكفاح !! ... وفي المجالدة ! .. وإلا اصبحت الحياة ضيقة المجال ، على رحبها ، لما يُلم بها من ضجر وملل ! وتفقد معناها ، لما يغشاها من استكانة وتقاعس وكسل !!...

فليفطن الشباب ، لذلك كله ، ولملابساته ! ... وليعلم ان انقلاب تلك الفردوس لجحيم ، يكتنفه العذاب ، لا يتم الا اذا اصبحت الحياة الزوجية مشكلة ذاتها ، بذاتها !!... تصبح هي المشكلة ! وتصبح هي العقبات والعراقيل ! وتصبح هي المصاعب والمشقات ! اذا لم يحسن الشباب اعداد ذاته لتلك الحياة ، بالانسجام مع نواميس الحب ، في سلامته وصحته !! ... فلا يكفي ان يمتلك الرجل امرأته ، ولا ان تمتلك المرأة رجلها . بل يجب ان يظفر كل منهما بقلب الآخر ، وبعواطفه ومودته ورحمته !! ... واذا خشينا من سوء التصرف في العلاقات ، بين الفتيات والفتيان ، قبل الزواج ، لما يحدث من مشاكل واخطار في ذلك الدور. فاننا اشد خشية من ذلك ، عندما نفكر فيما ينشأ عنه من ويلات وكوارث ، في اثناء الخطبة ، وبعد الزواج !! ...

قد يشتهر الفتى بامور تصدر عنه ، في تصرفاته وسيرته ! ... وقد تتبع الفتاة هواها ، في بعض تصرفاتها وسلوكها ! ... وقد يغتفر انفعال التجاذب ، في حماس الحب وفي شدة تفاعله ، استهتار الخفة ، واستسلام الطيش ، واتباع الهوى ، فلا يبالي الشباب بشذوذ ، يرى المجتمع الصالح فيه خرقا لحرمته ، واجتيازاً لحدود الحشمة فيه ، وتحديا لاخلاق وسجايا ، يرى فيها مقومات كيانه !! ... ولكن ، لا يكاد يمتلك كل منهما الآخر ، شبه امتلاك ، في الخطبة . وامتلاكا صحيحا ، في الزواج ، حتى تستيقظ النفس من غيبوبتها ، ويبدأ الحساب ! ... قد يجري هذا الحساب بصورة

مكبوتة خفية ، في داخل الذات ، فلا يظهر اثره الا بما ينشأ عنه من تنافر، او خلاف ، قد يحتار الكثيرون في تعليلهما ! ... وقد يكون الكبت فؤاديا ، يجهل الخطيبان ، او الزوجان ، معه، مصدر ما يحدث ، في نفس كل منهما ، من نفرة ، قد تتحول كرها ، بعد ذلك التجاذب الشديد !...

وقد يجري الحساب ، بصراحة ، بينهما ، او بصورة علنية ، على ملأ من الناس . فتهزأ منهما الفضيحة ، على ايجاعها ، وتسخر منها الخفة ، ويسخر منهما الطيش ! فيتألم الاصدقاء ، ويحزنون ! ويفرح الاعداء ويشمتون !.. ثم تتحقق الفاجعة ، يوماً ، بقسوة ، او هجر ، او طلاق ، .... اوجريمة، او انتحار !! ... وفي كل هذه الاحوال تنهار قوى النفس ، وتتكون عقد احتقار الذات للذات . وتشعر هذه بالذلة والانحطاط !! ... وما اشد الفاجعة ، اذا استيقظت النفس لمثلها الانسانية ، ولقيم المجتمع ، بعد ان اثمر الزواج ولداً ، هو فلذة الكبد ، فيناله من العقاب قسطه ، وهو البريء !! ...

فما اشد حاجه الشباب ، لثقافة صحيحة صريحة ، تتصل بحياة الحب ، لينقذ نفسه من ويلات الاخطاء والشذوذ ، ومن اخطارها !...

لعل الفتاة (ف . ش)، مثلا ، — وقد ذكرت الجرائد المحلية ، وانا اكتب هذا البحث ، انها انتحرت ، في زحله - ما كانت لتقدم على الانتحار، لو أن ثقافة الحب ، في نفسها ، نبهتها الى ما قد يعرض ، احيانا ، لأحسن الفتيان ، ثقافة واخلاقا واخلاصا ، من جفاف في النفس ؛ فيجد ، في نفسه ، نفرة ، لا يعرف كيف يعللها ، ولكنها تبعده ، موقتا ، عن كل ما كان يغري قلبه وذهنه !؟ .. الا يجوز ان خطيبها وحبيبها ، حين صادفها تخالفه بمرافقة المرأة التي نهاها عن معاشرتها ، كان في حالة جفاف

نفسي ، فلم يتحرك قلبه لاعتذارها ، وبيان المفاجأة التي جمعتها بتلك المرأة ، دون موعد سابق ، ولا قصد مبيت ؟ ان الشباب ، في هذه الحالة ، يصبح نفوراً جافاً ، لا يرغب في شيء ، حتى ولو كان احب الاشياء اليه ! ... أما كانت انقذت نفسها ، وانقذت حبيبها من آلامـــه ، اليوم ، لو انها ملكت اعصابها الى ان تعود طرارة نفسه اليه ؟ لو صبرت ، لتبين لها اخلاصه ! وقـد برهن ، في بحثه عنها ، وفي محاولته القاء نفسه في البئر ، وقد وجدها ، فيها ، جثة هامدة ، عـلى ان قلبه ينبض بكثير من الحب والاخلاص ! ... لا سيما ، وقد اثبت التحقيق نزاهة الصلة ، بينهما ، بعفافها ، وبشهامته ! .. ثم ان الخطيب نفسه ، لو كان يعلم شيئاً عن نفسية الشباب ، في الفتيات ، وعن شدة ما يتعرضن له من ألم ويأس ، اذا توهمن الجفاء فيمن يخلصن له الحب ، لا سيما اذا كان جفاء اتهام ، لكظم غيظه ، وانتظر وقتاً اكثر ملاءمة للعتاب !! ... لو كان لثقافة الحب والزواج موضع في مناهج التعليم ، لالفت كتبها ، ولانتشرت فكراتهـا ، فلا تكثر بسبب الجهل ، ضحايا وهم اليأس ، واضطراب الظنون !! ... رحم الله ضحايا الجهل ، في حب مخلص امين !! ... رحم الله تلك الضحايا ، سواء أأصبحن في عالم الاموات ، ام كانت لاتزال ، كالاموات ، في عالم الاحياء !! .... وألهمنا ادراك اهمية نشر ثقافة الحب والحياة ، انقاذاً لاحياء البشر ، من موت الحياة !! ...

٦ ـ الخلاصة

كنت اتمنى ان لا اكتفي بما ذكرت من مشاكل الحب والحياة ، في الشباب ، والموضوع خصب ، لا يزال في النفس رغبة ملحـــة بضرورة الاستزادة منه ، والتوسع فيه ؛ ولعل الزمن لا يكون ضنينا ، فيمنح

هنيهات ابلغ بها غايتي ، في تلبية هذه الرغبة ، خدمة للامة ، في شبابها . واعتقد ، الان ، ان فيما بينت ، من اخطار ، ومن وسائل للانقاذ ، كفاية لاثارة النفوس ، وتشويقها للملاحظة والبحث والدرس . وفي هذا التشويق ، بالاثارة ، ما يكفي لدفع الشباب لمحاولة تحقيق ثقافة صحيحة للحب ، في نفوسهم . ولم تكن غايتي في تأليف هذا الكتاب تتجاوز هذا القصد ، على ما ذكرت في مقدمة الطبعة الاولى : « ليست الاهمية في مظاهر الخطأ والصواب ، بل فيما يجب ان تثيره قضية الشباب من دروس وابحاث . » فالمهم ، اذن ، ان تثير مباحث هذا الكتاب نفوس الشباب ، فيحاولون تفهم واقع الحياة ، وحقيقة الحضارة ، في ذاتهم ، وفي مجتمعهم ، ولاسيما في اجواء الحب ، وعليه تدور وقائع الحياة ، وبه تتحقق تطوراتها ، صعوداً ، او نزولا ! ... تقدميا ، او تقهقريا !! ...

واذا كنا نرى في انصراف الناس الى اسباب المعيشة ، والاستهتار بمبادىء حضارة الحياة ، دليلا على التقهقر والانحطاط ؛ فلا يعني ذلك اننا ندعو ، كما اراد ان يفهم البعض ، الى اهمال العمل على رفع مستوى المعيشة بين جميع الناس . اننا لا نرضى باستسلام الناس للجوع والعرى ، ولا نقبل باستغلال اتعابهم ، لفقرهم وضعفهم ! اننا نطالب بالانصاف ، وبتمكين جميع الناس من الحصول على وسائل معيشتهم ، لتتحقق في نفوسهم وسائل الحياة الانسانية ، فلا ينحرفون في علاقاتهم الاجتماعية ، ولا في صلات الحب والحياة . ونرى ، فوق ذلك ، ان الحياة ، في اسمى مظاهرها الانسانية ، وان الحضارة في اوج تعالبها ، لا تصبحان حقيقة واقعية الا بحصول الناس على اسباب المعيشة اولا . ولكن تنظيم امر المعيشة يتطلب مبادىء حضارة تدفع لتحقيق العدالة الاجتماعية ، بين الناس .

لذلك ذكرنا بوضوح ما بين المعيشة والحياة ، وما بين المدنية والحضارة ، من تفاعل وصلات. ولكننا نصرّ على ان الهدف الأسمى هو استكمال حضارة الحياة الانسانية ، باعتبار المدنية وسيلة لها . فاذا قلبت الآية ، واصبحت المدنية غـــاية ، اهملت الحضارة وانحط النوع البشري ، واصبح يعمل لمعيشته ، وحسب ، كالحيوان الاعجم !! ... وهـذا ما لا نريده لبني الانسان !!... لانه يؤدي لفوضى فقد الوازع ، اولطغيان القوة والسلطان ، فنعود لعصور طغاة القوة الغاشمة المستبدين ، وتصبح اللقمة لمن يقدر على اغتصابها ، على ما نشاهده في كل وضع يفقد فيه المجتمع وازع الحياة ، وبواعث الحضارة في الانسان ، حتى في عصرنا هذا ، عصر الديموقراطية والمـدنية والعلم !! ...

واذا قلنا الحضارة ، قلنا الثقافة ، اذ لا تتحقق الحضارة الا بثقافتها . ومن مظاهرها ، ثقافة الحب ؛ وفيها تكمن وسائل انقاذ الناس من اخطار الانحراف ، في حب مزيف ، يتعرض له الشباب ، اذا لم يـدرك حقيقة وافع الحياة ! ...

ان اشد ما يتعرض له الشباب ، من اخطار ، ينشأ عن الجهل والطيش والهوس . فاذا أراد الشباب ان ينقذ نفسه من مـــآزق اخطار الطيش والهوس ، فـــلا بد من ان ينقذ نفسه من الجهل ، اولا ، تطبيقاً لنظرية التخلص من اعراض الامراض العصبية ، بمعرفـة اسبابها . فالهوس في الحب ، مثلا ، عرض مرض نفسي ، يستطيع الشباب ان يتخلص منـه ، متى عرف وايقن انه لا يزال في دور ، لم تتفتح فيه زهرة الحب في قلبه ، وان الحب الصحيح لا يدفعه لاي عمل شائن مع من يحب ! ... فاذا شعر بدافع ، من هذا النوع ، فليتأكد ان حبه مزيف ، ولو كان في سن

الرجال ! وفي محاولة الشباب ادراك هذه الحقائق ، تتحقق ، تدريجيا ثقافة حياة الحب ، في نفسه ، ويصبح مستعداً للاصغاء ، والتأمل ، والتفكير ، ويصبح النصح مجديا .

ولعلي في اسداء بعض النصائح الى الشباب اقدم خير ما يختم به هذا الكتاب :

فنصيحتي الى الفتيات ، خاصة ، ان يحتقرن كل شاب ، لا سيما اذا كان خطيبا ، يحاول ان يستبق الحوادث ، فيطلب ما لا يجوز تلبيته اليه الا بعد حفلة الزواج . ان التساهل نتائج خطرة ، قد تسلب الراحة والطمأنينه ، كل الحياة ! ... والتي تتساهل تحتقر ، ولو بعد الزواج !.. فكم من حياة منزلية سادها الاضطراب والشكوك ، وخسرت كل طمأنينة منزلية ، لذكريات تتصل بمثل هذا التساهل ! ... ومن كان قوى الملاحظة دقيقها ، وتأمل في ما يجري حواليه ، يجد امثلة عديدة تؤيد هذه النظرة !.. لتكن الفتاة يقظة ، ولتحذر تبادل الرسائل الغرامية مع الشبان ، فانها تترك ، على الغالب ، انطباعات مؤلمة ، تنكد عيشتها ، وتورثها المتاعب والاحزان !! ...

ليرتفع كل من كان في دور الشباب ، بعواطفه ، وليعاون نفسه ، على نفسه ، بالعمل على تذوق آثار الفنون الجميلة ، بمظاهرها كالتصوير ، والموسقى ، والآداب ، وغيرها .. فان ما تمنحه هذه الفنون من آثار رائعة ، ترتفع بالنفس ، وتوجه العواطف ، وتؤ ل الشباب لتفتح زهرة الحب الصحيح ، في قلبه .

ليعلم كل من هو في دور الشباب ، ان لسوء استعمال قوى الحياة

اخطاراً فتاكة ، لا أقصد ما قد ينتج عنها من امراض جسدية ، وحسب. بل أقصد ، ايضاً ، ما تحدثه ، في نفس الشاب ، من جفاف ! ... انني اذكر أن احد كبار الفلاسفة ، نسب الجفاف ، في امته ، في عصر من عصور خمولها ، إلى العادات السرية ! وكان على حق ! ... فليحذر الشباب مغبة العواقب ، فلا يكون بلاء على نفسه ، وعلى امته !! ...

ليدرك الشباب جيداً : أنه ، في زمن شبابه ، يكوّن رجولته !وانه، سيكون ، في المستقبل ، على الشكل الذي أراده ، لنفسه ، في دور الشباب ، الخطر !! ... فخلاصه بين يديه !

اختزن ، ايها الشباب ، في فؤادك ، فكرات كبيرة ، تتفاعل فيه ، فتبعث فيك الميول السامية . وتمرن على تذوق آثار الفنون الجميلة ، بتفهم وادراك ! فان هذا التذوق يقوّى تفاعلات الفؤاد ، وقد يكون حافزاً لها ، فتسمو بك ، وتجعلك عنصراً فعالاً ، في بناء الحضارة ، وفي العمل ، على الارتفاع بها إلى العلاء !

قال شيلر : «إن المروآت الجميلة هي التي تجعل الحياة خصبة وسعيدة»!..

فاجعل ، ايها الشباب ، حياتك خصبة ، وسعيدة ، بوعيك وتساميك، وبتجنبك الهوس ، والانخداع بالظواهر ! ... احتفظ بشبابك لهرمك ، لتعيش حياتك ، كلها ، شابا ! ... فالانتقال الى الرجولة ، لا يعني انتهاء الشباب ، وانطفاء شعلته ! ؟ ... انه يعني استمرار الشباب ، بشكل مركز متزن ، بعد أن تفتحت ، في النفس ، زهرة الحب الخالدة الفواحة. ولا يستمر شباب ، بدونها ! ... احتفظ بشبابك ! وتأكد أن الانسان ابن إرادته ! ... لا تنس ، ما حييت ، ما اوصى به احد شعراء العرب شباب امته ، في قوله :

امـا الشبيبة والنعيم ، فانني
لم أدر أيهما ألذ ، وأنضر !
حتى انقضى عهد الشباب ، فبان لي :
ان الشباب هو النعيم الاكبر !
لا تخدعن عنه ، فبائع ساعة ،
منه ، بدنياه جميعاً ، يخسر !

فتأمل ، وفكر مليا ! ... ولا تخدعن عن شبابك ! ... يا امـل !! ...

مصادر الكتاب

لو أردت ان اعد المصادر ، لوجب ان اعدد كل الكتب التي والابحاث والمجلات التي اطلعت عليها في علوم النفس والحياة والاجتماع والتربية ، منذ بدأت دراستي .... ولوجب علي ان اذكر كل الحوادث والوقائع التي سمعتها او شهدتها بذاتي ، وكان لتفاعلها في فؤادي ، مع القواعة العلمية التي درستها ، اثر فعال في اخراج هذا الكتاب . ولما كان هذا متعذراً ، فانني اكتفي بذكر بعض المصادر العلمية ، اجابة لرغبة من اراد .

١. – دائرة المعارف الفرنسة – في اجزائهـــا المتعلقة بعلوم النفس والتربية والحياة .

٢. – مندوز في علم نفس الشاب ، وفي علم نفس الشابة

٣. – تاريخ القضية النسائية العام لابانسور

٤. – روسو – اميل وغيرة

٥. – دركايم – التربية الخلقية ، وغيره

٦. – برغسون – معطيات الوجدان ، وغيره

٧. – بابو – التربية الخلقية ، وغيره

٨. – ريفر – الفؤاد

٩. – شارل لوريدا – الحرية الاخلاقية

١٠ . - بلوندل - العمل ، وغيره
١١ . - انيجانيروس = علم النفس الحيوي
١٢ . - ودير = علم النفس الحيوي
١٣ . - برادين = علم النفس
١٤ . - لومبروزو = روح المرأة ، وغيره
١٥ . - فيكتور بوشه = طريق السعادة
١٦ . - ديوي = مدرسة الغد ، وغيرها
١٧ . - ويليام جيمس = محادثات تربوية وعلم النفس
١٨ . - بوغله = في الاجتماع
١٩ . - فرويد = علم النفس التحليلي ، وغيره
٢٠ . - هيلين دوتسن = علم نفس النساء
٢١ . - وودورت = علم النفس التجريبي
٢٢ . - قانون = في علم النفس
٢٣ . - بيارون = علم النفس التجريبي
٢٤ . - اوجين دوبريل = علم الاجتماع
٢٥ . - لاروس القرن العشرين
٢٦ . - باستيد = علم الاجتماع وعلم النفس التحليلي
٢٧ . - كورفيتش = اتجاهات علم الاجتماع الحديث

تصويب

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
ج	١١	العرض	بالعرض
ح	٥و٦	ان الطفل	ان يكون الطفل
٢٩	٢١	تهد	تهدد
٤٣	٢١	لم يحدوني	لم يحدُني
٥٨	٦	يتحقن	يتحقق
٦١	١	والاجيال	بالاجيال
٦١	١٣	ويحيا الشباب	ولكن الشباب
٧٣	٨	فوجدوا أن	فوجدوا
٨٩	١٥	تدعها	تدعيها
١٠٢	١٢	عير	غير
١٠٣	١٣	وفنسب	فنسب
١٠٦	١١	فية	فيه
١١٠	٥	مخدقه	مختنقة
١١٢	٧	بوجوها	بوجودها
١٣٨	١٧	برث	يرث
١٤٧	١٩	تفاعها	تفاعلها
١٥٠	٢	الستاهل	التساهل
١٧٠	١	ومما لا يقتضيه	ولا مما يقتضيه
١٨٢	١	أية تمرد	اى تمرد
١٨٨	١٠	كلمة الحب	كلمة عن الحب
١٨٩	٢	النبوغ	النوع
١٩٠	٢٠	بالاحتاج	بالاحتياج
١٩٢	١٧	وليتحسن	وليتحسس
١٩٧	٨	والفبزلوجيه	والفيزيولوجية
١٩٨	٩	الحبسين	الجنسان
٢٠٤	١٥	لحقيقة	لحقيقته
٢٠٨	٥	على ما سبق–بيانه	على ما سبق بيانه –

الفهرست (١)

الصفحات

ب الاهداء

ج مقدمة الطبعة الثانية

ه كلمة الدكتور طه حسين بك

يا مقدمة الطبعة الاولى

٩ الفصل الاول - الحياة ...

١١ ١. – ازمة الحياة !

١٥ الشرق والغرب

١٩ ٢. – الحضارة والمدنية

٢٣ ٣. – عود الى الشرق والغرب

٢٧ ٤. – رسالة الشرق العربي في العالم

٣٩ الفصل الثاني - الشباب في المجتمع

٤١ خلاصة الفصل الاول

٤١ ١. – عمل الشباب واثره في الامم

٤٧ ٢. – المستقبل للشباب ، فمم نخشى عليه ؟

٥٢ ٣. – اليقظة الواعية واليقظة البلهاء

٦١ ٤. – صلة الشباب بالاجيال

---

١. – وقع خطأ في ترتيب الترقيم الابجدى للمقدمات ، فكان هكذا : ج ، ه ، و ، آ ، ب ، ج ، د ، ه ، و ، ز ! والصواب هو ب ، ح ، د ، ه ، و ، ز ، ح ، ط ، ى ، يا ، يب فنرجو اصلاح هذا الخطأ ، والاخطاء الواردة في التصويب ، قبل مطالعة الكتاب

الصفحات

٦٧ الفصل الثالث ـ الشباب في حقيقته
٦٩ خلاصة ما تقدم
٧٠ ١. ـ ماهية الشباب
٨٦ ٢. ـ مشاكل الشباب
٩٧ الفصل الرابع ـ الشباب في تربيته
٩٩ خلاصة ما تقدم
١٠٠ ١. ـ ادعاء وغرور
١٠٢ ٢. ـ لم نطالب بحرية التربية
١٠٦ ٣. ـ الحرية والفوضى
١١١ أ. ـ ثقة المربى بنفسه
١٢٠ ب. ـ ثقة المربي بمن يعني بتربيته
١٢٥ ج. ـ ثقة الشباب المتربى بنفسه
١٣٣ د. ـ ثقة الشاب المتربي بمن يساعده على تربيته لنفسه
١٣٦ هـ. ـ ثقة المربين والشباب بامكانات التربية
١٤١ ٥. ـ الفؤاد
١٥٣ الفصل الخامس ـ الشباب في توجيهه
١٥٥ خلاصة ما تقدم
١٥٦ ١. ـ لنثق بوحي الحياة في الشباب
١٦١ ٢. ـ لا حقارة في العمل
١٦٧ ٣. ـ اهمية التوجيه وغايته
١٧٢ ٤. ـ التوجيه المسلكي والمهني
١٨٥ الخاتمة ـ الحب

A.U.B. LIBRARY

الصفحات

١٨٧ خلاصة ما تقدم

١٨٨ ١. – حقيقة الحب

١٩١ ٢. – الحب المزيف

١٩٣ ٣. – عبقرية الجنس

٢٠٣ ٤. – الاخطار

٢١٣ ٥. – وسائل الانقاذ

٢٣٣ ٦. – الخلاصة

٢٣٩ – مصادر الكتاب

٢٤١ – تصويب

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00507866

٧ ك ل

المطبعة العصرية
للطباعة والنشر
صيدا